مَجَالِسُ الشَّافِعِيِّ

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: **مجالس الشافعي**
التأليف: **أحمد حامد قشطة**
موضوع الكتاب: **سير وأعلام**
عدد الصفحات: **172 صفحة**
عدد الملازم: **10.75 ملزمة**
مقاس الكتاب: **14*20**
عدد الطبعات: **الأولى 2025**
الترقيم الدولي: **978-9921-815-252**

القاهرة - جمهورية مصر العربية
٠١٠١٢٣٥٥٧١٤
٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

دار البشير

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم. حسب قوانين الملكية الفكرية. ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

مَجَالِسُ الشَّافِعِيِّ

الأخلاق والمناظرة في تراث الإمام الشّافعيّ

تأليف

أحمد حامد قشطة

دار البشير

المحتويات

المقدّمة ٩
مقدِّمات في الأخلاق الإسلاميَّة ١٣
مفهوم الأخلاق ومكانتها ١٣
الأخلاق: إحدى أهمّ القِيَم الحضاريَّة في الإسلام ١٤
دعوة الشريعة الإسلامية إلى مكارم الأخلاق ١٨
المجاهدَة في إصلاح الأخلاق وتقويمها ٢٢
بين الخُلُق والسُّلوك ٢٤
أهميّة النظام الأخلاقيّ الإسلاميّ ٢٦
مصادر الأخلاق الإسلاميَّة ٢٧
جَوامِع الأخلاقِ الإسلاميَّة ٢٨
خصائصُ الأخلاقِ الإسلاميِّة ٣٣
حضور الذاكرة الأخلاقيَّة في الحضارة الإسلاميَّة ٦٣
المناظرة في التراث الإسلاميّ ٦٩
ماهيَّة المناظرة ٦٩
بدايات المناظرة في الإسلام ٧١
مِن الخطابَة إلى المُناظرة ٧٢
أركان المناظرة ٧٧

آداب البحث والمناظرة ٧٨
بين عِلم المناظرة وعِلم الخِلاف والجَدَل ٧٩
بين المناظرة والجَدَل والمُكابَرَة ٨١
المناظرة الفقهيَّة ٨٢
مادَّة المناظرة الفقهيَّة ٨٢
آفاتُ المناظرة ٨٥
أضرار المِراء والجِدال المذمومَين ٨٦
الأخلاق في حِجَاج الداعية إلى الله تعالى ٨٩
النهي عن الجَدَل والمِرَاء في الإسلام ٩٤
التحذير مِنَ الجَدَلِ العَقيم ٩٧
الحِجَاج والتفكير النقديّ ٩٧
ضوابط المناظرة الأخلاقيَّة في الإسلام ٩٨
الخِلاف الفقهيّ والحِجَاج ١٠١
جوامع الأخلاق الإسلاميَّة في المناظرة ١٠٢
بين الجَدَل الإسلاميّ والسَّفْسَطَة ١٠٧
الجَدَلُ المحمود والجَدَلُ المذموم ١٠٩
أخلاقيات المناظرة عند الشافعي ١١٥
بدايةُ الشافعيّ ١١٥
إشراق الحُجَّة الأخلاقيَّة بين عِلمَي الحديث والفِقه ١١٧
الشافعيُّ مناظراً في العراق ١٢٠

صَلاةُ الشافعيِّ وأخلاقه ١٢٥
خصائص المنهج الأخلاقيّ عند الشافعيّ ١٢٥
خاتمة الدراسة ١٦٥
لائحة المصادر والمراجع ١٦٧
المجلات والدوريات العربيَّة ١٧٢

المقدّمة

الحمدُ لله منزِّل الكتاب، وخالق خلقه مِن تُراب، وَرَازِق عباده النِّعَم والألباب، والصلاةُ والسلامُ على نبينا مُحَمَّدٍ خيرُ مَن عَمِلَ بالكِتاب، وشرعَ الأخلاقَ والآداب، وبعد:

فقد اختزنَت الذَّاكرة الحضاريَّة للأمَّة الإسلاميَّة الكثيرَ مِن مقوِّمات النُّهوض؛ التي اكتسبتها بفضلِ قيامها على تعاليم المنهج الربانيّ الأقوَم، وقد كانت الأخلاق أحد أهم الأصول التي صَلُحَ عليها أول هذه الأمَّة، وفي ذلك قالَ النبيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاق**»[1]، ولمَّا كان مُرادُ الله تعالىَ أنْ يتَّسِمَ المسلمونَ بِصالِحِ الأخلاق؛ فذلك لتكونَ أقوالهم وسيلةً إلى قَبول دعوته لدَى غير المسلمين، ولتكونَ مظاهر أعمالهم في مرأى أعين المدعوِّين قدوةً صالحة[2].

وإذا كان صلاحُ الأمَّة لم يتأتَّى إلا بالتمسُّك بهذا الأصل الأخلاقيّ، فإنَّ عودتَها إلى سابقِ عهدِها مرهونةٌ بالرجوعِ إلى هذا الأصل، وذلك بصورةٍ عمليةٍ بعيدةٍ عن التنظيرِ الأجوف.

وفي هذا السياق، تأتي إشارة شيخُ العربيَّة محمود محمد شاكر (ت: ١٩٩٧م) إلى أنَّ العناية بهذا (الأصل الأخلاقيّ) هي التي حَفِظَت على الثقافة الإسلاميَّة تماسُكها وترابُطها مدَّةَ أربعةَ عشرَ قرناً، مع كلِّ ما مرَّ عليها مِنَ القوارِعِ والنّكبات ووقائع الدهر على طولِ هذا المدى[3].

١_ مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة رضي اللَّه عنه، رقم الحديث: ٨٩٥٢.

٢_ الطاهر ابن عاشور: أصول النظام الاجتماعيّ في الإسلام، دار سحنون، تونس – دار السَّلام، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص ١١٩.

٣_ محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، دار المدني، جدّة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ٣٣.

وعلى الرغم مِن أنَّ القرن الثالث الهجري قد شَـهِدَ بدايات اسـتقلال علم الأخلاق وانفصاله عن كتب الحديث، إلا أنَّه كان حاضراً في التراث الإسلاميّ المبكِّر وبخاصَّة في أدبيَّات الحِجَاج والمناظرة، ولنا في أخلاقيَّات ابن عبَّاس ﷺ في مناظرته الشهيرة للخوارج خيرُ دليل.

ومع بدايات تشـكُّل المذاهب الفقهية في القرن الثاني، اشـتدَّ عُودُ المجادلات العلميَّة والمناظـرات المعرفيَّـة حتـى أُطلِق على عـصر الإمام الشـافعيّ (**عصر المناظـرات الفقهية المثمـرة**)[1]، ومـا كانـت هـذه المناظـرات لتـؤتي ثمارها لـولا تَحَـلِّي أطرافهـا بأخلاقيات الحِجَاج[2]؛ عملًا بقوله تعالى ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[3].

فأصبحَ الفقهُ الإسـلاميّ الذي استُنبِطَ في ذلك العصر مَديناً لهذه المناظرات المخلصة الشريفة، حتى قالَ الشـافعيُّ يوماً بتجرُّدٍ: «**ما ناظرتُ أحداً إلا أحببتُ أن يُوَفَّقَ ويُسَـدَّدَ ويُعَـانَ، ويكـونُ عليه رعايةٌ مِنَ الله وحفـظٌ، وما ناظرتُ أحداً ولم أبـال بَيَّنَ اللهُ الحَقَّ على لسـانِي أو لسـانِه**»[4]، وهذه الكلمة إحدى كلماتٍ ثلاثٍ للشـافعيِّ ذَكَرَ ابنُ حِبَّان أنَّه «مَا تَكَلَّمَ بِهَا أَحَدٌ فِي الإِسْلامِ قَبْلَهُ ولا تَفَوَّهَ بِهَا أَحَدٌ بَعْدَه إلا وَالمَأْخَذُ فِيهَا كَانَ عَنْه»[5].

هـذا وقـد تَرَكَ الشـافعيُّ إرثاً كبـيراً مِن المقـولاتِ التي تعبِّر عن مكانـة الأخلاق في نفسـه، والتـي أصبحت زاداً لكلِّ مَـن أتَى بعده، كما أرسَـى أخلاقيَّات علـم المناظرة بما

١ـ محمد أبو زهرة: الشافعي: حياته وعصره .. آراؤه وفقهه، دار الفِكر العربيّ، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٦١.

٢ـ الحِجَاج: المُجادلَةُ والمُنازَعَةُ فِي أَمرٍ بِإِظهَارِ الدَّلِيلِ وَالبُرهَان. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ يردُّ على معاوية بن أبي سفيان، وقد سأله إقراره على الشام: «أَمَّا إِكْثَارُكَ الحِجَاجُ فِي عُثْمَانَ وَقَتَلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ». انظر: جمهرة رسائل العرب: ١/ ٤١٥، وانظر في تعريف الحِجَاج: معجم الدوحة التاريخي للغة العربية (الموقع الإلكتروني).

٣ـ سورة النحل: ١٢٥.

٤ـ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ (ت: ٤٥٨هـ): ذَيل مناقب الشافعيّ، دراسة وتحقيق: أبي عامر عبدالله شرف الدِّين الداغستاني، آفاق المعرفة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م، ص: ٥٩.

٥ـ صحيح ابن حبان: ٥/ ٤٩٨.

خلَّفَـه من وصايا غَدَت بتعاقُبِ الليالي والأيام مِنهاجاً يسـيرُ عليه كلُّ مَن خاضَ في غِمارِ الحِجَاجِ والمناظرة بِحَقٍّ.

ولإنْ حاولَ البعضُ في عصرنا تقويض بُنيان الحِجَاج الأخلاقيّ في الإسلام؛ من منطلقات الحداثة الغربيَّة المهيمنة، فلقد سعى عددٌ من جهابذة علماء المسلمين إلى توجيه عنايتهم بالتأصيل لـ «**آداب البحث والمناظرة**»؛ من خلال ذِكر الآداب التي ينبغي أنْ تكون مرعِيَّة في المحاورات الفكريَّة، ومِن هنا وجبَ استحضار الذاكرة الأخلاقيَّة في فِقْه الحِجَاج الإسلاميّ.

فالأمَّـةُ الإسـلاميَّة اليوم هـي أحوجُ ما تكـون إلى البحث عن المشـتركات فيما بينها، وهي كثيرة؛ فجميع المذاهب والطوائف الإسـلاميَّة تشتركُ في أصول العقيدة مِنَ الإيمان وأركانه الأساسـيَّة، والأركان الخمسـة للإسلام، وفي التوجُّه إلى قِبلةٍ واحدة، وإلى اعتماد مصحفٍ واحدٍ دون الخلاف عليه، وفي العدوِّ المشترك والمصالِح المشتركة.

فحضارتُنا الإسلامية وَسِعَت تعدُّدية في الفِكر وحتى في بعض مجالات العقيدة، كما أنَّها وَسَّعَت صدرها تماماً للاختلافات الفقهيَّة والمدارس المتنوعة دونَ حرَج، حتى يكونَ الشيء الواحد حلالاً محضاً لدى مدرسةٍ فقهية، وحراماً محضاً وباطلاً لدى مدرسةٍ أخرى[1].

وبالجملـة، فهذه دراسـةٌ تسـعى إلى تلمُّس الجوانـب الأخلاقيَّة للمناظـرةِ والحِجَاج في تُـراث الإمام الشـافعيّ ﷺ، والتي جعلت مِـنَ المناظرةِ إحدى وسـائل تثبيت العِلم، وإنضـاج الآراء الفقهيَّـة المسـتندة إلى الأدلَّة الراجِحَة، وقد أطلقَ أبـو نصر الفارابيّ (ت: ٣٣٩هـ) تسـمية «**الفَحْص**» على هذا الحِجَـاج الأخلاقيّ الذي تكون ممارسـتهُ «لطلب الفائدة ولتخليصِ الصِّدقِ عن الكذب»[2].

١ـ علي محيي الدين القره داغي: نحن والآخر: دراسة فقهيّة تأصيليّة، لجنة التأليف والترجمة، الاتِّحاد العالميّ لعلماء المسلمين (الموقع الالكتروني)، ص: ٢٦.

٢ـ خالد ترغي: المناظرة الفقهيَّة: من منطق الجدل إلى منطق الحوار، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م، ص: ٣٣.

مناسبة الحديث عن مجالس الشافعيّ

كان إعـداد هـذه الدراسـة عقب مشـاركة كاتبهـا في فعاليـات المؤتمر الـدوليّ الأوّل للمناظرة والحوار بدولة قطر، خلال الفترة من التاسـع والعشرين إلى الثلاثين من شـهر مايو ٢٠٢٣م، وقد جاءت مشاركته على هيئة ملصقٍ بحثيّ ضمن محور المناظرة في التراث الإسـلاميّ، تحت عنوان (**حُضُور الذَّاكِـرَة الأخْلاقِيَّة فِي فِقْهِ الحِجَاج الإسـلامِيّ**)، وفيها تتبَّع أخلاقيَّات المناظرة عند الإمام الشـافعيّ في مجالسـه العامَّـة والخاصَّة، فكانت بمثابة جولـة تاريخيَّة بين أروقة هذه المجالس، يتعرَّف فيها القارئ على الجوانب الأخلاقيَّة التي ميَّـزت هذا الإمـام في مناظراتِه وحِجاجِه، فجعلت منه مؤسِّسـاً لأحـد المذاهب الفقهيَّة المعتمـدة، وهو المذهب الثالث من حيث الترتيب الزمنيّ للمذاهب الفقهيَّة الأربعة التي بقي أثرها قائماً بين الناس إلى اليوم.

مقدِّمات في الأخلاق الإسلاميَّة

مفهوم الأخلاق ومكانتها

الأخلاق: جمع مفرده الخُلُق، ومعناه: السَّجِيَّة والطَّبْع، ويعرِّف الإمام أبي حامد الغزاليّ (ت: ٥٠٥هـ) الخُلُقَ بقوله: «الخُلُق هيئةٌ في النفسِ راسِخة، عنها تصدُر الأفعال بسهولةٍ ويسر، مِنْ غَيرِ حَاجَةٍ إلى فِكرٍ وَرَوِيَّة»[١]، وقد تنوَّعت الدراسات التي ربطتْ بين الجانب الأخلاقي وجوانب أخرى في الحياة مبيِّنةً أثره عليها؛ لأنَّ الهدفَ مِن عِلمِ الأخلاق «أنْ نُحَصِّل لأنفسنا خُلُقاً تصدرُ به عنا الأفعال كلها جميلة، وتكون مع ذلك سهلةً علينا لا كُلفَةَ فيها، ولا مشقَّة، ويكون ذلك بصناعة، وعلى ترتيبٍ تعليمي»[٢].

وقد امتازت الأخلاق في الإسلام بمكانةٍ خاصَّة؛ فهي لُحْمَة النُّظُم الإسلامية كافَّة، بل هي غايةُ الدِّينِ وهدفه، حتى إنَّ رسالة الإسلام تمَّ حصرُ غايتها في إقرار الأخلاق وإتمامها، والتي تُعَدُّ مناطَ التفاعل والتواصل المجتمعي، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاق**»[٣]، والحقيقة أيضاً أنَّ هذا الجانب – جانب الأخلاق والقيم – لم يُوَفَّ حقُّه إلا في حضارة المسلمين، تلك التي قامت في الأساس على القيمِ والأخلاق.

ولقد عَظُمَتْ مكانة الأخلاق في المجتمع المسلم استجابةً للأوامر الإلهية التي عمَّقت معانيها في النفوس، وربطتْ بين تلك المعاني وتحقُّقها ومستوى الإيمان لدى المسلم، فكلَّما كان يقينُ العبد بالله قوياً؛ سَلَكَ سلوكاً أخلاقيًّا إيجابيًّا، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ رَسُولُ

١_ إحياء علوم الدين للغزالي: ٣/ ٥٣.

٢_ تهذيب الأخلاق لابن مسكويه: ٢٣٣.

٣_ مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة رضي اللهَّ عنه، رقم الحديث: ٨٩٥٢.

الله ﷺ: «**مَـن كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَـومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَهُ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»[1].

هـذا وتمثِّـل الأخـلاق والقِيَم الجانـب المعنـويّ أو الرُّوحيّ في الحضارة الإسـلاميَّة، وأيضـاً الجوهـر والأسـاس الذي تقـوم عليه أي حضـارة، وفي ذات الوقـت تضمن سِرّ بقائها وصمودها عبر التاريخ والأجيال.

وتأتي أهمية الأخلاق باعتبارها من أفضل العلوم وأشرفها؛ ذلك أنَّ علم الأخلاق – بالتعريف المختصر – هو عِلم الخير والشر، والسلوك النافع والضار، والطيب والخبيث، ولهذا عندما يحاول بعض العلماء بيانَ قيمة علم الأخلاق بالنسبة للعلوم الأخرى؛ فمنهم مَن يقول: إنَّه إكليل العلوم جميعاً، ومنهم مَن يقول: إنَّه تاج العلوم، ومنهم مَن يقول: إنَّه زُبدة العلوم، ذلك أنَّ العلوم الأخرى أساسـاً تساعد على الأخلاق في الكشف عن الخير والشر وعن النافع والضار، وهما موضوع الأخلاق[2].

وبالنظـر إلى **موضـوع الأخلاق في السـياق الإسـلامي**؛ نجد أنَّه كلُّ مـا يتَّصل بعمل المسـلم ونشـاطه، وما يتعلَّق بعلاقته بربه، وعلاقته مع نفسِـه، وعلاقته مع غيرِه مِن بَنِي جِنسِه، وما يحيطُ به مِن حيوانٍ وجماد[3]، وفيه دليلٌ على سَعة موضوع هذا العِلم.

الأخلاق: إحدى أهمّ القِيَم الحضاريَّة في الإسلام

تُعـدُّ الأخـلاق أحدَ أهمِّ الخصائص التي تُميِّز الإنسـان عن الطبيعـة الحيوانيَّة، وأحد مؤثِّـرات سَـير الأحـداث في تاريخ البشر، وقـد اتَّسـمت بالأهميَّة العظيمـة في الحضارة

١ـ صحيح البخاري (٦٤٧٥).

٢ـ مقداد يالجن: علم الأخلاق الإسلامية، الرياض، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص: ٧.

٣ـ خالد بن جمعة بن عثمان الخرَّاز: موسوعة الأخلاق، الكويت، مكتبة أهل الأثر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص: ٢٢.

الإسـلاميَّة، فكان لها من التشريع المرتبط بالإيمان ارتباطاً وثيقاً ليكون أساسـها مبنيًّا على تصوُّرٍ سليمٍ لحقيقة الكَون والغاية من الوجود الإنسانيّ في الحياة.

فكـمال الاعتقـاد وصحَّـة التعبُّـد لله مترتِّب عـلى الالتـزام بالقيم الأخلاقيَّـة كما قالَ النبـيُّ ﷺ: «**خَيْرُكُـمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْـلِي ..**»[1]؛ لأنهَا تُبينِّ القناعة الإيمانيَّة الصحيحـة والسـلوك القَويم لدى الفرد، مما يحـدِّد بعد ذلك مدى انسـجام هذه الأفراد داخل المجتمعات.

والحق أنَّه لا يمكن أنْ يُتصوَّر إقامة مجتمعٍ فاضلٍ أو حضارةٍ راقيةٍ دون أخلاق، ولا يمكـن أنْ تتحقَّـق الأخلاق إلا بالقناعـةِ الإيمانيَّة، فتحقيق القِيَـم الأخلاقيَّة في الحضارة الإسلاميَّة مرتبطٌ بقوَّةٍ داخليَّةٍ تستطيع التفريق بين الخير والشر، وتكافح من أجل الخير، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2].

وللقِيَـم الأخلاقيَّـة في ظـلِّ الحضـارة الإسـلاميَّة خصائـص تنفـرد بِهـا عـن سـائرِ الحضارات، منها:

أوَّلا: المرجعيَّة الإلهيَّة

جـاءت القِيَـم الأخلاقيَّة مُحـدَّدة المعالِم في القرآن الكريم والسـنَّة النبويَّـة، ولم يقتصر تحديدهـا على أعراف النـاس أو عقولهم؛ لأنَّ تلك الأعراف والعقـول قد تخطئ أو تتأثَّر بنزعاتٍ فكريَّةٍ معيَّنة، فالأخلاق وحي مِنَ الله وليست مجرَّد أذواقٍ حضاريَّة، أو نزعاتٍ فكريَّة، أو نظريَّاتٍ اجتماعيَّة، بل هي نظام إسلاميّ ثابت، لا يمكن التلاعب به أو تطويعه حسب المصالِح الشخصيَّة أو الأهواء الماديَّة.

١ـ أخرجه الترمذي في «جامعه»، باب: ما جاء في فضل أزواج النبي ﷺ (٦/ ١٩٢)، رقم الحديث: ٣٨٩٥، من حديث عائشة رضي الله عنها، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

٢ـ سورة النازعات: ٤٠ – ٤١.

ثانياً: سمو الأخلاق ورقيّها

جاءت القِيَم الأخلاقيَّة في الحضارة الإسلاميَّة في أرقى درجات السموّ الإنسانيّ، وجُعل لهذا السموّ مثلٌ بشريٌّ أعلى يقتدي الناس به، وهم الأنبياء والمرسلون، ولن يجد الناظر في تاريخ الحضارات مثالاً أرقى من الأنبياء والرُّسُل؛ لأنَّهم كانوا النموذج الأمثَل للعمل بالقِيَم الأخلاقيَّة التي أُمِروا بِها مِنْ ربِّهم، وهذه رسالة بليغة لأصحاب الفلسفات والنظريَّات الأخلاقيَّة المنفصلة عن نور الوحي والرسالات السَّماويَّة.

وقد كان النبيُّ ﷺ نموذج الأخلاق السَّامية والرُّقي البشريّ في أكملِ صُوَرِه، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

ثالثاً: الشمول وسعة الأُفُق

جاءت القِيَم الأخلاقيَّة في ظلِّ الحضارة الإسلاميَّة متضمَّنة في جوانبِ الحياةِ الإنسانيَّةِ كافَّة، فلم تقتصر على جانبٍ محدود، أو أماكن معيَّنة، بل شملت الأفراد والمجتمعات، وتدفَّقت في كلِّ المظاهر الحضاريَّة من العلاقات الاجتماعيَّة والشؤون السياسيَّة والعسكريَّة والاقتصاديَّة وغيرها.

فنجد في القرآن الكريم الآيات التي أوضحت معالِم تلك القيم في المواقف والمجالات المختلفة، كالنصوص التي تُبيِّن آداب الحديث والتواصل الإنسانيّ، مثل قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]، ويدخل في ذلك النهي عماَّ يفسد العلاقات من الأخلاق السيئة، مثل: الهَمْز واللَّمْز والغِيبَة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[3].

١ـ سورة القلم: ٤.

٢ـ سورة الإسراء: ٥٣.

٣ـ سورة الهمزة: ١.

ونجد كذلك النصوص التي عالجت منهاج التعامل بين الناس، فبيَّنت – مثلاً – بعض آداب المجالس والبيوت وغيرها، ومنها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾[1].

كما قرَّرَت القيم الأخلاقيَّة الخاصَّة بالحكَّام والقادة مِنَ الأمرِ بالعدلِ والشورى والرِّفق بالرعيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾[3]، فنجد في ظلِّ الحضارة الإسلاميَّة كيف جعلت القيم الأخلاقية مبدأ التزام الحاكم بالعدل بين الرعيَّة والرِّفق بِهم وإقامة الحقِّ فيهم دون غشٍّ أو خداع أو اكتساب مزيَّة على حساب النَّاس، وبهذا تصير العلاقة في دعم لأداءِ المسؤوليَّات، فالحاكم يقوى برعيَّته والرعيَّة تقوى بحاكمِها في ظلِّ القيم الأخلاقيَّة.

وبهذا الاتساع في أُفُقِ المعنَى الأخلاقيّ تتوطَّد أركان الحضارة الإسلاميَّة؛ لقيامِها على أركانٍ أخلاقيَّةٍ نبيلة فريدة تكاد لا تجدها في حضارةٍ أخرى.

رابعاً: الحافز الإلزاميّ

يُعدُّ بقاء القيم الأخلاقيَّة وتطبيقها في الحضارة الإسلاميَّة أمراً مهمًّا، ولذلك وجَّهت أبناءها إلى الالتزام بالعمل بتلك القيم النبيلة، وجعلت لذلك حافزاً وداعماً مؤثِّراً يقومُ على مبدأين[4]:

١_ سورة المجادلة: ١١.

٢_ سورة النساء: ٥٨.

٣_ سورة آل عمران: ١٥٩.

٤_ محمد عبدالله دراز: دستور الأخلاق في القرآن، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة،

١. مبدأ المسؤولية.

٢. ومبدأ الجَزاء.

فالمسؤولية تعني: أنَّ الإنسان مُكلَّف، ومسؤول عن فِعلِه أمام الله عزَّ وجل، وأمَّا الجزاء (الجزاء الأخرويّ) فهو يمثِّل نتيجة عادلة للموقف الأخلاقيّ الذي التزمنا به وتحمَّلنا مسؤوليته.

والمسؤولية والجزاء هما السبب في بناءِ حضارةٍ مزدهرة؛ فالذي يدفع الإنسان إلى التمسُّك بالأخلاق هو إدراكه بأنَّه سيحاسبه ربُّه إنْ قصَّر أو أساء، ويُثيبه إنْ أحسَن؛ فالأخلاق في ظلِّ الحضارة الإسلاميَّة لا تكونُ تابعةً للهوَى، وإنَّما هي إلزام ومحاسبة وسعي لنَيلِ مرضاة الله تعالى.

وقد أوضحَ القرآنَ الكريم أنَّ النفس قابلة للخير والشر، ومستعدَّة لتلقِّي الأخلاق الحسنة والأخلاق السيئة، قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[1].

فالإنسان فيه نزعات للخير ونزعات للشر، لكنَّ الحضارة الإسلاميَّة أقرَّت جوانب الخير وشجَّعت مَن يمتثل لها، كذلك حذَّرت مِن ارتكابِ الأخلاق السيئة، وتوعَّدت مَن يرتكبها[2].

دعوة الشريعة الإسلامية إلى مكارم الأخلاق

دعتْ الشريعة إلى التحلِّي بصالِحِ الأخلاق، وتجنُّب فاسدها؛ فكانت الأخلاقُ قسمان: أخلاق كريمة، وأخلاق ذميمة، وقد جاءت الشريعة تدعو إلى تزكية النفوس

١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص ١٣٦ وما بعدها.

١_ سورة الشمس: ٨.

٢_ اللجنة العلمية بمجمع البحوث الإسلامية: صور من القيم الحضارية في الإسلام، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، الطبعة الأولى، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م، ص ٣٩ – ٤٣.

وتطهيرها حتى تكون كريمةَ الأخلاق، نبيلةَ السَّجايا، فَلَم تَدَع خُلُقاً كريماً إلا رغَّبت فيه، ولا خُلُقاً ذميماً إلا حذَّرت منه، بل إنَّ جميع الأحكام الشرعية تدورُ مع الأخلاق حيثُ دارت، فلا ترى حُكماً شرعياً يُعارض الأخلاق ويُصادمها، وحسبُك أنَّ الله أثنَى على عبدِه ورسولِه مُحَمَّد ﷺ بقولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وهنا يُبيِّن الإمام الطاهر ابن عاشور أنَّ المقصود مِن مكارمِ الأخلاق: حصولُ الدُّربة بالتدريج على ملاحظة الوصايا والإدراكات بالفضائل ملاحظةً مستمرةً في كلِّ الأعمال والأحوال والأكوان حتى يحصُل في تلك الدُّربة إلفٌ بها وجفاءٌ لأضدادها؛ بحيث إذا عَرَضَت للمتخلِّقِ بها شهوةٌ وميلٌ إلى فعلِ أضدادها، لم يطاوعه إلفُهُ القديم بتلك، وجفاؤه القديم أضدادها على إتيان تلك الأضداد، وعَسُرَ عليه إتيانها فترك شهوته العارضة لشهوته المتأصِّلة، وذلك هو حكم المحبة.

فإذا بَلَغَت الأمَّة إلى غايةِ حلبة مكارم الأخلاق على جمهورها، وسادتْ تلك المكارم في معظم تصاريفها = زَكَتْ نفوسها، وأثمرتْ غروسها، وزالَ موحشها وبدا مأنوسها. فحينئذٍ يسودُ فيها الأمن وتنصرفُ عقولها إلى الأعمال النافعة وتسهل الأُلفَة بين جماعاتها، فتكون عاقبة ذلك كله تعقُّلاً ورفاهيةً وإنصافاً من الأنفُسِ فينتظم المعاش[2].

هذا، وقد دعا الحقُّ عباده إلى المبادرةِ إلى رحمتِه وجنَّتِه التي أعدَّها للمتَّقين مِن عبادِه، وأولُ صفاتهم تحلِّيهم بالأخلاق الفاضلة الكريمة؛ مِنَ الإنفاق في حالِ اليُسر والعُسر، وكَظْم الغيظ والعفو عن الناس ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[3].

١ـ سورة القلم: ٤.

٢ـ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: ١١٦ – ١١٧.

٣ـ سورة آل عمران: ١٣٣ – ١٣٤.

وعدَّ في آيةٍ أخرى الأعمالَ التي تُعتبر بحق أعمالاً صالحة في ميزانِ الخير؛ فعدَّ الأخلاق الفاضلة من الوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضَّراء وحين البأس أحدَ أركانِها ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1].

وقد رغَّب النبيُّ ﷺ باتِّباع الأخلاق الحميدة، وحذَّر من كلِّ خُلُقٍ ذَميم، فالخيرُ الحقيقيّ في ميزانه ﷺ هو الخُلُقُ الحَسَن، ففي الحديث: «**البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ**»[2]، والخُلُقُ سبيلُ الارتقاء في مَدارِجِ الكَمال، وفي الحديث: «**إِنَّ مِنْ أَخْيَرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا**»[3]، وفي حديثِ أبي هُريرة: «**إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ المُؤْمِنينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُم خُلُقًا**»[4].

وحُسن الخُلُق أثقلُ شيءٍ في الميزان، كما يقول الرَّسول ﷺ، ففي الحديث: «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ**»[5]، وصاحب الخُلُق الطَّيب يدرك بحُسن خُلُقه منازلَ العاملين المجدِّين، ففي الحديث: «**وإنَّ صاحبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغَ دَرَجَةَ صاحبِ الصَّوْمِ والصَّلاة**»[6]، وأكثر ما يدخل الناس الجنَّة الخُلُقُ الحَسَن، ففي الحديث: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَكثَرِ مَا يُدخِل النَّاسَ الجَنَّة، فَقَالَ: «**تَقْوَى الله وَحُسْن الخُلُق**»[7].

١ـ سورة البقرة: ١٧٧.

٢ـ صحيح مسلم، رقم الحديث: ٢٥٥٣.

٣ـ رواه البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمرو، رقم الحديث: ٦٠٢٩.

٤ـ رواه الترمذي وحسَّنه، والحاكم وصحَّحه، انظر: فتح الباري: ١٠/ ٥٦٣.

٥ـ أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والترمذي وصحَّحه هو وابن حِبَّان. انظر: فتح الباري: ١٠/ ٥٦٣.

٦ـ رواه الترمذي، وأبو داود وابن حبَّان والحاكم، انظر: فتح الباري: ١٠/ ٥٦٣.

٧ـ أخرجه الترمذي وابن حبَّان وصحَّحاه، وهو عند البخاري في الأدب المفرد، من حديث أبي هريرة، انظر: فتح الباري: ١٠/ ٥٦٣.

وأحبُّ الناسِ إلى رسول الله ﷺ وأقربهم منه مجلساً يوم القيامة: أحسنهم خُلُقًا، ففي الحديث: «**إنَّ مِنْ أَحَبِّكُم إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُم مِنِّي مجلساً يومَ القيامة، أحاسنُكُم أخلاقاً، وإنَّ مِن أبغضكم إِلَيَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة: الثَّرثارون، والمتشدِّقون، والمتفيقهون**»[1].

قال المُنَاوِيّ: «أي: أكثرَكُم حُسنَ خُلقٍ، وهو اختيارُ الفضائلِ، وتركُ الرذائلِ؛ وذلك لأنَّ حسنَ الخُلقِ يَحملُ على التَّنزُّهِ عن الذنوبِ، والعُيوبِ، والتَّحلِّي بمكارمِ الأخلاقِ، مِن الصدقِ في المقال، والتلطُّفِ في الأحوال، والأفعال، وحُسنِ العِشرةِ مع الإخوانِ، وطَلاقَةِ الوَجهِ، وصِلةِ الرحِمِ، والسَّخاء، والشجاعةِ، وغيرِ ذلك مِنَ الكمالاتِ»[2].

وبحُسنِ الخُلُق يسع المرءُ الناس، فمالُ المرءِ لا يسعُ الناس جميعاً، وفي الحديث: «**إنَّكم لن تسعوا الناسَ بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسطُ الوجه وحسن الخُلُق**».

وقد كان الرسولُ ﷺ أحسنُ الناسِ خُلُقاً، فهو الأُسوةُ والقدوةُ صلوات الله وسلامه عليه، وقد بلغَ بأخلاقه الكريمة منازل عالية، وحسبُك شهادة ربِّه له ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3].

وقد عَرَفَ خُلُقَه أصحابُه وأعداؤه على حدٍّ سواء، وتحدَّثت به الرُّكبان، ولم يجد الخصوم في خُلُقِهِ مطعناً، وقد وصفَ لنا الصحابيُّ الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه، رسول الله ﷺ، وكان عالِماً به حقَّ العِلم، فهو خادمه الذي لازمهُ عشر سنين، قال: "**كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناسِ، وكانَ أجودَ الناسِ، وكان أشجعَ الناسِ**".

وانظُر إلى هذه الصورة الرائعة التي ينقلها أنس رضي الله عنه، عن خُلُقِ الرسول ﷺ: «**خدمتُ رسول الله ﷺ عشرَ سنين، والله ما قال لي: أفٍ قط، ولا قال لي لشيءٍ، لِمَ فعلتَ كذا؟ وهلا فعلتَ كذا**».

١ـ رواه الترمذي وحسَّنه، انظر: جامع الأصول: ٤/ ٦.

٢ـ فيض القدير: ٢/ ٥٢٩.

٣ـ سورة القلم: ٤.

وكما أثنى الله على الأخلاق الفاضلة وأهلها، حذَّر من الأخلاق الذميمة وأهلها، ففي محكم التنزيل: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[1]، ومما وصىَّ به لقمان ابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2].

المجاهدَة في إصلاح الأخلاق وتقويمها

رغَّبَت الشريعةُ الإسلاميَّة في أمر المجاهدة في إصلاحِ الأخلاق وتقويمها؛ فَمِنَ الثابتِ لدينا في مجالِ كلِّ تكليفٍ ربَّانيّ أنَّ اللهَ تباركَ وتعالَى لا يكلِّفُ نَفْساً إلا وُسعها، فمسؤوليةُ الإنسان تنحصرُ في نطاقِ ما يدخلُ في وُسعه، وما يستطيعه مِن عمل، أمَّا ما هو خارجٌ عن وُسعِ الإنسان واستطاعته، فليسَ عليه مسؤولية نحوه، يُضافُ إلى ذلك أنَّ نسبةَ المسؤولية تتناسبُ طرداً وعكساً مع مقدار الاستطاعة.

فما كان من الطباع الفطريَّة قابلاً للتعديل والتبديل، ولو في حدودِ نِسَبٍ جزئية، لدخوله تحت سلطان إرادة الإنسان وقدرته، كان خاضعاً للمسؤولية، وداخلاً في إطارها تجاه التكاليف الربانيَّة، وما لَم يكن قابلاً للتعديل والتبديل؛ لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته، فهو غيرُ داخلٍ في إطار المسؤولية تجاهَ التكاليف الربانية.

وفي هذا السياق، يُشير د. عُمر الأشقر[3] إلى أنَّ بعض الباحثين والفلاسفة قد ذهب إلى أنَّ الأخلاق غرائز في النفسِ الإنسانية لا تقبل تقويماً ولا تعديلاً، وقد استغلَّ هذه المقالة مَن ثقُلت عليهم مجاهدة نفوسهم، وذهبوا يبرِّرون ما أقاموا عليه مِن ذميمِ الأخلاق بأنَّه ليس في وسعهم تغيير ما غُرِسَ فيهم من الأخلاق الذميمة، والصوابُ مِنَ القولِ: أنَّ مِنَ الأخلاق الكريمة ما يطبع عليه صاحبه، فهذا يحمُد الله على ما آتاهُ الله مِن

١_ سورة القلم: ١٠ – ١٣.

٢_ سورة لقمان: ١٨.

٣_ **أ.د. عُمَر بن سُليمان الأشقَر** (١٩٤٠ – ٢٠١٢م): من كبار علماء الشريعة المعاصرين.

فضلِه، ومِنَ الأخلاقِ الكريمة ما يُنالُ بالاكتسابِ والمجاهدة[1].

ويُشدِّد الشيخ عبدالعزيز الطَّرِيفي على أنَّ هذه الأخلاق والطبائع المكتسبة هي التي لا تُولد مع الإنسان؛ وإنَّما يتطبَّع عليها، كخُلُق التواضُع والكِبر، واللِّينِ والشِّدةِ، والكَرم والبخل، كما يتطبَّعُ ساكنُ الباديةِ والصحراء على الشِّدةِ والقوة، والقسوة والجفاء، وعكسُ ذلك ساكنُ المدنِ والسَّواحِل؛ فإنَّها تُرقِّقُ الطبع، وكما يتطبَّع مُخالِطُ أهلِ الكرمِ على الكرم، ومخالطُ أهلِ البُخلِ على البُخل، والرجلُ الذي يُخالِطُ النساءَ يتطبَّعُ على الرِّقةِ والتنعُّم، والمرأةُ التي تُخالِطُ الرجالَ تتطبَّعُ على الخشونةِ والشِّدة، وهكذا حَواسُّ الإنسان وجوارحُه التي هو مركَّبٌ منها، قد تتطبَّعُ على شيءٍ فلا تنفكُّ عنه إلا بشدةٍ، فمَن اعتادَ النومَ في ضَجيج الأسواقِ ووسطَ أحاديثِ الناسِ وصَخَبِهم، لا يتمكَّنُ مِن النوم إلا على ذلك، ولو سكَتَتِ الأصواتُ لَما قدَرَ على النوم، بل يَرَاها عندَ نومِه مِن النعيم! وعكسُه مَن اعتادَ النومَ وقتَ السُّكون، لا يَطيبُ له نومٌ إلا بتمامِ السكون، ويُكدِّرُه خِلافُه ولو كان طَنِينَ الذُّباب.

وما يعتادُه الإنسانُ قد يُصبحُ طبيعةً له؛ حتى يشُقَّ عليه الانفكاكُ عنه كالطبيعةِ التي يُولَدُ عليها، وربَّما سيَّرَتْه في مُعتقَدِه واختياره مِن حيثُ لا يشعُر، يَنزعُ في رأيه إلى ذلك، ويتوهَّمُ أنَّه اختار وتفكَّرَ فيه، وربَّما يَجري عليه اختيارُه بلا وقوفٍ وتفكُّر، وكَثيرٌ من الذين تَرسَخُ فيهم العقائد والبدعُ والأخطاءُ إنَّما هو بسببِ النشأةِ والتطبُّع عليها.

وقد يكونُ في ولادةِ الإنسانِ ونشأته توفيقٌ ونعمةٌ إذا وُلِدَ ونشأَ في وسطِ الحقِّ والخير، وقد يكونُ في ولادتِه ونشأتِه ابتلاءٌ إذا وُلِدَ ونشأَ في وسطِ الباطلِ والشر، وإذا تطبَّع الإنسانُ على أمرٍ فلا يَحمِلُه مجرَّدُ النشأةِ على الشكِّ فيما هو عليه، كما لا يحملُه مجردُ النشأةِ على جعلِ ذلك كافياً على كونِه الصواب[2].

١ـ نحو ثقافة إسلامية أصيلة: ٢٥٩.

٢ـ عبدالعزيز بن مرزوق الطَّريفي: الفصل بين النفس والعقل، الرياض، مكتبة دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، ص: ٨٠ - ٨١.

وبذلك يظهر أنَّ الإنسان في استطاعتِه إصلاح ما فَسَدَ مِن أخلاقِه بطريقِ المجاهدة، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1]، ويقول النبيُّ ﷺ: «**إِنَّما العلمُ بِالتَّعَلُّم، وإِنَّما الحِلْمُ بِالتَّحَلُّم، ومَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، ومَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ**»[2]، ويُضيف الطَّرِيفي بأنَّ تلك الطبائع التي طُبع أو تطبَّعَ عليها الإنسان تختلفُ في إمكانِ تغييرها ومقدارِه؛ وذلك بحسَبِ تمكُّنِ الطبعِ في الإنسان، وإذا كان متمكِّنًا كان التأثيرُ فيه قليلاً وطويلاً، وأيسرُ الطباعِ تغيُّراً الذي تطبَّعَ عليه الإنسانُ ولم يطُلْ بقاؤُه عليه[3].

بين الخُلُق والسُّلوك

هذا وقد نبَّه د. محمد عبدالله دراز إلى التفريق بين الخُلُق والسُّلوك؛ فالخُلُقُ أمرٌ معنويٌّ وهو صفةُ النفس وسَجِيَّتها، أمَّا السلوك فهو أسلوب الأعمال ونَهْجها وعادتها، وما هو إلا مظهر الخُلُق ومرآته ودليله، ثمَّ أشار ﷺ إلى أنَّه لكي تكونَ الأفعال علامةً صحيحةً على خُلُقِ صاحبها، لابدَّ أن يجتمعَ فيها عنصران:

أحدهما: أن تتكرَّر الأفعال على نَسَقٍ معيَّن حتى تكون عادةً مستقرة، وحتى تدل على قوةٍ راسخةٍ ونزعةٍ ثابتةٍ إلى هذه الأفعال؛ فإنَّ الذي يدلُّ على خُلُقِ المرء هو جملة تصرُّفاته في عامة الأوقات والأحوال المختلفة لا في النادر منها.

والثاني: أن تقوم الأمارات على أنَّ هذه الأفعال صادرة بطريقةٍ انبعاثيةٍ عن النفس، وليست أثراً لأسبابٍ خارجية، مِن الخوفِ أو الرجاءِ، أو الحياءِ أو الرياءِ، أو نحوها؛ مما يجعل صدورَ الأعمالِ تكلُّفاً وتصنُّعاً على خلافِ سَجِيَّة صاحبها، ويجعلنا نحكم بأنَّ خُلُقَهُ الحقيقي على النقيض مما يوحِي به ظاهرُ هذه الأفعال[4].

١ـ سورة العنكبوت: ٦٩.

٢ـ السلسلة الصحيحة للألباني (٣٤٢).

٣ـ الفصل بين النفس والعقل: ٨١ – ٨٢.

٤ـ كلمات في مبادئ علم الأخلاق: ٨ – ٩.

وتظهر أهمية الأخلاق الإسلامية لِمَا لها مِن أثرٍ في سلوكِ الفرد، وفي سلوكِ المجتمع؛ أمَّا أثرها في سلوك الفرد، فلِما تزرعه في نفس صاحبها من الرحمة، والصدق، والعدل، والأمانة، والحياء، والعِفَّة، والتعاون، والتكافل، والإخلاص، والتواضع.. وغير ذلك من القيم والأخلاق السامية، فالأخلاق بالنسبة للفرد هي أساس الفلاح والنجاح، يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[2]، والتزكية في مدلولها ومعناها؛ تعني: **تهذيب النفس باطناً وظاهراً، في حَرَكاتِه وسَكَناتِه.**

وأمَّا أثرها في سلوك المجتمع كلِّه، فالأخلاق هي الأساس لبناء المجتمعات الإنسانية إسلامية كانت أو غير إسلامية، يقرِّر ذلك قولهُ تعالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[3].

فالعمل الصالح المدعم بالتَّواصي بالحقّ، والتَّواصي بالصَّبر في مواجهة المغريات والتحديات مِن شأنِه أنْ يبني مجتمعاً محصَّناً لا تنالُ منه عوامل التَّردي والانحطاط، وليس ابتلاءُ الأممِ والحضارات كَامِناً في ضعف إمكاناتِها الماديَّة أو منجزاتِها العِلمِيَّة، إنما في قيمتها الخُلُقية التي تسودها وتتحلَّى بها[4].

ومَن تأمَّل ضروبَ الواجباتِ الأخلاقيَّة وكثرتِها وتزاحُمها على الأوقات، وشدَّة الحاجة في تطبيقها إلى دقَّةٍ في الفَهم، وسلامةٍ في الذَّوق، وحِكمَةٍ في السياسة، للتوفيقِ بين مختلف المطالب الحيويَّة والاجتماعيَّة والروحيَّة وغيرها، على نِسَبٍ قد تختلفُ باختلافِ الظُّروفِ والملابسات؛ أدركَ أنَّ السلوكَ الأخلاقيّ جديرٌ بأنْ يُعَدَّ فنًّا مِن أرقَى الفنونِ

١_ سورة الشمس: ٩ – ١٠.

٢_ سورة الأعلى: ١٤ – ١٥.

٣_ سورة العصر: ١ – ٣.

٤_ موسوعة الأخلاق للقسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية: ١٥ – ١٦.

الجميلـة، لِمَن عرَف كيـف يؤلِّف مِن حياتِه اليوميَّة صِفَةً مُنسَّـقة كاملـة، على منهاجِ قولِ الرَّسـول ﷺ ذي الخُلُق العظيم: «**إنَّ لِرَبِّك عليك حقًّا، ولنفْسِـك عليك حقًّا، ولأهْلِك عليك حقًّا، فأعْطِ كلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه**»[1].

وقد كانت الأخلاقُ حاضرةً في شِـعْرِ الجاهليين؛ فنجد أنَّ أبو عبدالله مُحَمَّد بن سَـلَّام الجُمَحِي (ت: ٢٣١هـ) أوردَ في مقدمة كتابه «**طبقات فُحُول الشُّعراء**» حديثاً عن صِنفَينِ مِنَ الشُّـعراء، لشِـعرهِما صِلَةٌ واضحةٌ بالجانبِ الأخلاقيّ، يقول: «فَكَانَ مِنَ الشُّعَراء مَنْ يَتَأَلَّـه[2] فِي جَاهِلِيَّتِـه، وَيَتعفَّـف فِي شِـعْرِهِ، ولا يسـتبهرُ[3] بالفواحِـش، ولا يَتَهَكَّـم[4] في الهجاء، ومنهم مَن كَانَ يَنْعِي عَلَى نَفْسِهِ وَيَتَعَهَّر»[5].

أهميّة النظام الأخلاقيّ الإسلاميّ

تكمُن أهمية النظام الأخلاقيّ في الإسـلام بتميُّزه بالشُّـمول والسِّـعة؛ فهو يعمل على إبـراز المُثُـل العليا لكلِّ عامـلٍ في كلِّ مجال، وتلـك المُثُل نحن بحاجةٍ إليهـا في كلِّ ميدانٍ ليعرفَ كلُّ فردٍ مدى اقترابه أو ابتعاده عن تلك المُثُل في الميادين المهمَّة في الحياة الاجتماعيَّة.

هـذا بالإضافـة إلى أنَّ هذا النظام – في ضَوء تلك المُثُل – سـوف يوضِّح الأخلاقيَّات الخاصَّـة بكلِّ عاملٍ في كلِّ ميدانٍ من ميادين الإدارة والصناعة والتجارة والسياسـة، كما أنَّـه عندمـا يتحوَّل إلى التطبيق عـن طريق التربية الأخلاقيَّة الشـاملة لكلِّ فـردٍ من أفراد المجتمع عن طريق التربية الإلزاميَّة؛ سـوف يكوِّن الشـعور بالمسئوليَّة الأخلاقيَّة في ضَوء المعايير الأخلاقيَّة في بناء الشخصيَّات[6].

١ـ صحيح البخاري، رقم الحديث: ١٩٦٨.

٢ـ تَأَلَّهَ: تَنَسَّكَ وتعبَّد. انظر: المعجم الوسيط: ٢٥.

٣ـ استبهرَ بالفواحش: تبجَّح بذكرها وصرَّح بما يجب أن يُخفى.

٤ـ تهكَّم وتكهَّم في الشَر: تعرَّض له وأتاه.

٥ـ عيسى علي العاكوب: التفكير النقديّ عند العرب، دمشق، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص: ١١٩.

٦ـ علم الأخلاق الإسلامية: ١٣.

وهذا يقودنا إلى الحديث عن «**علم الأخلاق العمليّ**»[1] الذي هو بحثٌ عن أنواع المَلَكات الفَاضِلَـة التي يجـبُ علينا التحلِّي بِها؛ كالإخـلاصِ والصِّدق، والعفَّة والشَّـجاعة، وأمثالها، وهـذا النـوعُ هو أمسُّ الضَّربَينِ[2] بالحيـاة، وأحقُّهما بأنْ يكونَ نِبراسـاً في كلِّ يد؛ فهو الغذاء اليومـيّ، بـل هو الواجب العينـيّ، ولذلك لا تكاد تخلو أمَّة في القديـم والحديث من معرفته والحثِّ على آدابه التي تصل إليها بالفطرة، أو بالفِكر، أو بالتجربة، أو بالوراثة والرِّواية[3].

مصادر الأخلاق الإسلاميَّة

يمكـن أنْ نُجمِـل مصـادر الأخلاق الإسـلاميَّة في مصدرين رئيسـيين، هما أعظم ما تُستمدُّ منه هذه الأخلاق؛ كتابُ الله عزَّ وجلَّ، وسُنَّة نبيِّه ﷺ الصَّحيحَة.

فالقرآنُ الكريم هو المصدرُ الأوَّل للأخلاق، والآيات التي تضمَّنت الدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهي عن مسـاوئها كثيرة، منهـا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[4]، وقوله تعـالى: ﴿**قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ**﴾[5].

ويدلّنـا عـلى أصالـة هذا المصدر أنَّ الرسـول ﷺ الـذي وصفه الله عزَّ وجـلَّ بالخُلُق العظيم، تصفه السيدةُ عائشة رضي الله عنها بقولِها: «**كَانَ خُلُقُ رَسُولِ الله ﷺ القُرآنَ**»[6]، ومعنَـى ذلـك كما يقول ابنُ كثيرٍ: «أنَّه قد ألزمَ نفسـه ألا يفعلَ إلا ما أمـرَه به القرآن، ولا

١ـ كما أطلقَ عليه د. دراز.

٢ـ المقصود بالضَّربَين: عِلم الأخلاق النظري والعملي.

٣ـ كلمات في مبادئ علم الأخلاق: ١٧ – ١٨.

٤ـ سورة النحل: ٩٠.

٥ـ سورة الأعراف: ٣٣.

٦ـ المستدرك على الصحيحين، رقم الحديث: ٣٥٢٧، حديثٌ صحيح.

يترك إلا ما نَهَاه عنه القرآن، فصارَ امتثال أمر ربِّه خُلُقاً له وسَجِيَّة، صلوات الله وسلامه عليه إلى يومِ الدِّين»[1].

جَوامِع الأخلاقِ الإسلاميَّة

أعادَ مُحَمَّد بن يعقُوب الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ) جميعَ الأخلاقِ الكريمة إلى أربعةٍ، وهي: الصَّبر، والعِفَّة، والشَّجَاعَة، والعَدْل.

والسرُّ في ذلك أنَّ الصبرَ يحملُ صاحبه - كما يقول الفيروزآبادي - على الاحتمال وكَظمِ الغيظ وإماطةِ الأذى، والحِلْم، والأناة، والرِّفق، وعدمِ الطَّيْش، والعَجَلَة.

والعِفَّة تحملهُ على عِزَّةِ النفس وإيثار معالي الأخلاق والشِّيَم، وعلى البَذْلِ والنَّدَى الذي هو شجاعة النفس وقوَّتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظمِ الغيظِ والحِلْم، فإنَّه بقوَّةِ نفسِه وشجاعتها يمسك عِنَانَها، ويكبحها بلجامها عن السَّطوةِ والبطش، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**ليسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**»[2]، وهذه هي حقيقة الشجاعة، وهي مَلَكَة يقتدِر بها على قهرِ خَصمِه.

والعدلُ - كما يقول أيضاً - يحملُ صاحبه على اعتدالِ أخلاقه، وتوسطه بين طرفي الإفراطِ والتفريط، فيحمله على خُلُقِ الجُودِ والسَّخَاء، الذي هو توسُّطٌ بين الإمساك والتَّقتير، وعلى خُلُقِ الحياء الذي هو توسُّطٌ بين الذِّلَّةِ والقِحَة، وعلى خُلُقِ الشَّجاعة الذي هو توسُّطٌ بين الجُبْنِ والتَّهوُّر، وعلى خُلُقِ الحِلْم الذي هو توسُّطٌ بين الغضبِ والمَهَانَة، **والتَّوَسُّطُ منشأُ جميع الأخلاق الفاضلة مِن هذه الأربعة**[3].

١_ ابن كثير، الفصول في سيرة الرسول ﷺ: ٢٤٦.

٢_ صحيح البخاري، رقم الحديث: ٦١١٤.

٣_ بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي: ٢/ ٥٦٩.

خُلُقُ الصَّبر

يحتلُّ الصبر منزلةً عظيمة من منازِلِ الدِّين، ومَقَامٌ رفيعٌ من مقاماته، وقد ذكره الله عزَّ وجلَّ في مواطنَ كثيرةٍ في كتابه، حتى قالَ الإمامُ أحمد: «ذَكَرَ اللهُ الصبرَ في القرآنِ الكريم في أكثرَ مِن تسعينَ مَوضِعاً»، وهذا يدُلُّنا دلالةً بيِّنةً على عِظَمِ شأنِ الصبر ورفيعِ مكانته، وحاجة العبد الشديدة إليه في باب الطاعات ليَفعَلها، وفي باب المَنهيَّات ليَترُكَهَا، وفي بابِ المصائب المقدَّرة لِئلا يجزَعَ ويتسَخَّط.

والصبرُ بذلك أحدُ أهمِّ أركانِ الأخلاق الإسلامية التي لا يستغني عنها المسلم في طلبه للحقِّ ودفعِهِ للباطل، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[1]، فالتواصي بالحقِّ يدخلُ فيه حَملُ النَّفسِ على مشقَّة التكليف في القيامِ بما يجب، وفي اجتنابِ ما يحرم؛ إذ الإقدام على المكروه والإحجام عن المراد كلاهما شاقٌّ شديد[2]، والتواصي بالصبر يكون بِحَبْسِ النفسِ على أداء الفرائض، وعلى المصائب من قدرِه، وحَبْسِهَا عن المعاصي، فيُوصي بعضُهم بعضاً برفقٍ ولينٍ بهذه الأمور[3].

خُلُقُ العِفَّة

يُعتبر هذا الخُلُق من الأخلاق المركزيَّة في الإسلام، ويمكن التعبير عنه بأنَّه ضبطُ النفسِ عن الشهوات وقَصْرِها على الاكتفاء بما يُقيم أَوْد الجسد، ويحفظ صِحَّته فقط، واجتناب السَّرف في جميع الملذَّات وقصد الاعتدال[4]، والعِفَّة: الكَفُّ عما لا يَحِلّ ويَجْمُلُ.

١ـ سورة العصر.

٢ـ التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٨٩.

٣ـ تفسير جزء عمَّ لمساعد الطيار: ٢٢٣ – ٢٢٤.

٤ـ «تهذيب الأخلاق» المنسوب للجاحظ: ٢١.

وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**إنَّ نَاسًا مِنَ الأنْصَارِ سَأَلُوا رَسولَ اللهِ ﷺ فأعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فأعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فأعْطَاهُمْ، حتَّى نَفِدَ ما عِنْدَهُ، فَقَالَ: ما يَكونُ عِنْدِي مِن خَيْرٍ فَلَنْ أدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، ومَن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، ومَن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، ومَن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وما أُعْطِيَ أحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[1].

قال ابن عبدالبر: «فيه الحَضُّ على التعفُّف والاستغناء بالله عن عبادِه، والتصبُّر، وأنَّ ذلك أفضل ما أعطيه الإنسان، وفي هذا كلِّه نَهْيٌ عن السؤال، أمرٌ بالقناعة والصبر»[2].

وكان ﷺ يدعو: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى وَالتُّقَى، وَالعَفَافَ وَالْغِنَى**»[3]، يقول الإمام النووي: «أمَّا العَفَاف والعِفَّة؛ فهو التنزُّه عمَّا لا يُباح، والكف عنه، والغِنَى هنا غِنَى النفس، والاستغناء عن الناس، وعمَّا في أيديهم»[4].

وقد كان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، يرى بأنَّ العَفَاف هو المروءة الباطنة[5]، ويقول عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «نحن معشرَ قريش نعدُّ الحِلْمَ والجُود: السؤدد، ونعدُّ العَفَاف وإصلاح المال: المروءة»[6].

وقال الحسن البصري: «لا يزالُ الرجلُ كريماً على النَّاسِ حتى يطمعَ في دينارهم، فإذا فعلَ ذلك استخفُّوا به، وكَرِهُوا حديثه وأبغضوه».

١_ صحيح البخاري (١٤٦٩).
٢_ التمهيد لابن عبدالبر: ١٠/ ١٣٣.
٣_ صحيح مسلم (٢٧٢١).
٤_ شرح صحيح مسلم: ١٧/ ٤١.
٥_ العقد الفريد لابن عبد ربه: ٢/ ١٥٠.
٦_ الآداب الشرعية لابن مفلح: ٢/ ٢١٥.

خُلُقُ الشَّجاعَة

الشَّجاعةُ لغةً هي شدَّةُ القلبِ عند البأس[١]، واصطلاحاً هي «الإقدامُ على المكارهِ، والمهالكِ، عند الحاجةِ إلى ذلك، وثبات الجأش عند المخاوف، والاستهانة بالموت»[٢].

وقال ابنُ حَزْم: «حدُّ الشَّجاعَة: بذلُ النفس للموت، عن الدِّين، والحريم، وعن الجارِّ المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلماً في المال، والعِرْض، وفي سائر سُبُل الحق، سَوَاء قلَّ مَن يُعارِضُ أو كَثُر»[٣]، وقال بعضهم: «حدُّ الشجاعة: سِعَةُ الصَّدر، بالإقدامِ على الأمورِ المتلفَة»[٤].

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى الله مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ علَى ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ باللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وإنْ أَصَابَكَ شَيءٌ، فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلْتُ كانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فإنَّ (لو) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[٥].

قالَ النوويُّ في شرحِ هذا الحديث: «والمرادُ بالقوةِ هنا: عزيمة النفس والقريحة في أمورِ الآخرة، فيكونُ صاحب هذا الوصف أكثرَ إقداماً على العدوِّ في الجهاد، وأسرعَ خروجاً إليه، وذهاباً في طلبِه، وأشد عزيمةً في الأمرِ بالمعروف، والنهيِّ عن المنكر، والصبر على الأذى في كلِّ ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاةِ، والصومِ، والأذكارِ، وسائرِ العبادات، وأنشط طلباً لها، ومحافظةً عليها، ونحو ذلك»[٦].

وقال ابن القَيِّم: «والشَّجَاعَة تحمله على عِزَّةِ النفس، وإيثارِ معالي الأخلاق والشِّيَم، وعلى البذلِ والنَّدَى، الذي هو شجاعة النفس، وقوتها، على إخراج المحبوب، ومفارقته، وتحمله

١_ المعجم الوسيط: ٤٧٣.
٢_ تهذيب الأخلاق المنسوب للجاحظ: ٢٧.
٣_ الأخلاق والسير لابن حزم: ٨٠.
٤_ نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري: ٣/ ٣٤٧.
٥_ صحيح مسلم (٢٦٦٤).
٦_ شرح النووي على صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٥٢.

على كظمِ الغيظ، والحِلْم، فإنَّه بقوةِ نفسِه، وشجاعتها، يمسك عنانها، ويكبحها بِلِجامِها عن النِّزعِ، والبطش، كما قال: «ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّديدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»[1]، وهو حقيقة الشجاعة، وهي مَلَكَةٌ يقتدرُ بها العبد على قهرِ خصمه»[2].

خُلُقُ العَدل

العَدلُ خلاف الجَوْر؛ وهو القَصدُ في الأمور، وما قامَ في النفوس أنَّه مستقيم، وقد شبَّه ابنُ حَزْم العدلَ بالحِصْنِ الذي يلجأُ إليه كلُّ خائِفٍ، وذلك أنَّك ترى الظالِمِ وغير الظالِمِ إذا رأى مَن يريدُ ظلمه؛ دعا إلى العدل، وأنكرَ الظلمَ حينئذٍ وذَمَّه، ولا ترى أحداً يذمُّ العدلَ، فَمَنْ كان العدلُ في طَبعِهِ فهو ساكنٌ في ذلك الحِصْنِ الحَصِين[3].

والعدلُ ممَّا تواطأت على حُسنِهِ الشرائع الإلهيَّة والعقول الحكيمة، وتمدَّحَ بادِّعاءِ القيام به عظماءُ الأُمم، وسجَّلوا تمدُّحهم على نقوشِ الهياكل مِن كِلدانيَّة ومِصريَّة وهِنديَّة، وقد أمرَ اللهُ تعالى بإقامةِ العدل أمراً عَزْماً بما كرَّر في كتابه من الآيات الآمرة بإقامةِ العدل، المحذِّرة مِن مخالفته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾[4]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[5]، وقالَ النبيُّ ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يومَ القِيَامَةِ في ظِلِّهِ، يَومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ ..**»[6].

قالَ ابنُ رَجَب: «وأوَّلُ هذه السّبعة: **الإمامُ العَادِل**، وهو أقربُ النَّاسِ مِنَ الله يومَ القيامة، وهو على مِنبَرٍ مِن نُورٍ على يَمينِ الرَّحمن، وذلك جزاءً لمخالفته الهَوَى، وصبره عن

١ـ صحيح البخاري (٦١١٤).
٢ـ الفروسية لابن القيم: ٤٩١.
٣ـ الأخلاق والسير لابن حزم: ٢٢٩.
٤ـ سورة النساء: ١٣٥.
٥ـ سورة المائدة: ٨.
٦ـ صحيح البخاري (٦٨٠٦).

تنفيـذ ما تدعوه إليه شـهواته وطمعه وغضبه، مع قدرته عـلى بلوغِ غرضهِ مِن ذلك؛ فإنَّ الإمـامَ العادل دعته الدُّنيا كلها إلى نفسـها، فقال: **إنِّي أخـافُ الله ربَّ العالَمين**، وهذا أنفعُ الخَلْـقِ لعبـادِ الله، فإنَّه إذا صلح صلحت الرَّعِيَّة كلها، وقـد رُوِيَ أنَّه ظلُّ الله في الأرض؛ لأنَّ الخلقَ كلَّهم يستظلونَ بظلِّه، فإذا عَدَلَ فيهم أظلَّه الله في ظلِّه»[1].

وقد نبَّه الإمام محمد الطاهر ابن عاشور إلى مكانةِ العدل مِن أصولِ النظام الاجتماعيّ في الإسلام، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[2]، مؤكِّداً هذا الخبَر التشريعيّ بحرفِ (إنَّ)، ومفتتحاً باسمِ الجلالة الذي يُلقي الحرمة على هذا الخبر ويقوي دواعي الأمَّة لتلقِّيه والعمل به، ومُخبِراً عن الاسـم بالجملةِ الفعليَّة المفيدة التي تُجدِّد الأمر وتكرِّره، ونظيره في هـذا المعنى وفي خصوصيَّاتـه؛ قوله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[3]، وحسـبنا اتِّفاق البشر كلهم في جميعِ الأعصار على مَدحِ العَدلِ وتمجيده والمطالبة بنشرِه على الإجمال، وإنْ اختلفوا في جزئيَّاته وعند تطبيقه[4].

خصائصُ الأخلاقِ الإسلاميِّة

تمتازُ الأخلاق الإسلاميَّة بمنظومةٍ مِنَ الخصائص العظيمة التي تعكس روح الإسلام وجماله وجاذبيَّته، وإليك بيانُ جملةٍ مِن هذه الخصائص:

الخصيصة الأولَى: ربَّانيَّة المصدر

الإسـلامُ كلُّـه؛ عقائـدُه وعباداتُـه ومعاملاتُه وأخلاقُه وسـلوكيَّاتُه مِـن عند الله جلَّ وعَلا، وما مِن أمرٍ مِن أمورِ الإسـلام إلا ويسـتمدُّ تعاليمه ونُظُمه ومبادئه من كتاب الله وسُـنَّة رسـوله ﷺ، ومعنَى أنَّ الأخلاق الإسـلاميَّة ربَّانِيَّة المصدر؛ أي أنَّها مِن الله تعالى

١ـ فتح الباري: ٤/ ٥٩.

٢ـ سورة النحل: ٩٠.

٣ـ سورة النساء: ٥٨.

٤ـ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: ١٧٤ – ١٧٥.

الذي أمَرَ بها وحثَّ عليها ورغَّب فيها، ونَهَى عمَّا يخالفها، وحذَّر منه إمَّا في القرآن الكريم أو في سُنَّة النبيِّ ﷺ.

إنَّ ربانيَّة الأخلاق الإسلاميَّة تعطيها ثقةً وقبولاً، وتجعلها في موضع الرِّضا والتسليم؛ لِخُلُوِّها من التناقُض والاختلاف والغموض، كما جعلتها هذه الربانيَّة في غاية الوضوح والجمال؛ فهي تدعو إلى نفسها بنفسها، بخلاف القيم الوضعية التي تحتاج إلى وسائل بهرجَة وتزيين لإلباسها ثوب الرَّواج والقبول الذي قد لا تتَّصِف به على الحقيقة.

إنَّ خاصيَّة الربانيَّة في الأخلاق الإسلاميَّة هي كالرأس للجسد، والروح للحياة، لا قيام للأخلاق بدونها، فكلُّ ما يأتي بعد ذلك من الخصائص تبعٌ لهذه الخاصية، سائرٌ تحت لوائها.

وقد وصفَ اللهُ تعالى كتابه بأنَّه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1]، كما وصفَ رسوله ﷺ بقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[2]، ممَّا يجعل كلُّ أمرٍ من أمور هذا الدِّين غاية في الكمال ومراعاة مصالح العباد.

الخصيصة الثانية: الشُّمول والعُموم

إنَّ مِن أهمِّ ما يميِّز الأخلاق الإسلاميَّة أنَّها شاملة، شأنها في ذلك شأن الدِّينِ كلِّه في شمولِه وعمومِه؛ ذلك أنَّ الإسلام آخر الأديان، ورسوله ﷺ آخر الأنبياء وخاتمهم، وجاء القرآنُ الكريم وَحْياً مِن الله عزَّ وجلَّ مراعياً لهذا الأمر.

وقد بيَّن القرآن علاقةَ الإنسانِ بربِّه وخالقِه جلَّ وعلا، وبيَّن علاقة الإنسان بنفسه وما يجبُ عليه من صيانتها وحفظها، وكذلك علاقة الإنسان بغيره من بَنِي جنسِه، بل وتعدَّى إلى ذِكْرِ ما يجبُ عليها مِن الرِّفق والتعامل برحمة مع المخلوقات التي تعيشُ حوله، أو ينتفعُ بها بوجهٍ ما.

١ـ سورة فصلت: ٤٢.

٢ـ سورة النجم: ٣ - ٤.

ويمكن إدراك شمول خُلُق الإسلام وهو يُخاطب بدعوته الجن والإنس، والعربَ والعَجَم، والأبيضَ والأسود، على حدٍّ سواء ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، ويقولُ سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2]، فإذا كانت دعوته عامَّة شاملة؛ فكذلك قِيَمُهُ الأخلاقية ومبادئه توافق هذا الشمول ولا تختزله في بعض جوانبه، أو تمارسه على بعض الفئات مِن أتباعه دون بعض.

وفي معرِضَ دعوتِه إلى الأخلاق وأمرِه بها، يقول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[3].

يقولُ ابنُ كثير في تفسيره لهذه الآية: «يأمرُ تباركَ وتعالَى عبده ورسوله ﷺ أنْ يأمرَ عباد الله المؤمنين أنْ يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنَّهم إنْ لَمْ يفعلوا ذلك نَزَغَ الشيطانُ بينهم، وأخرجَ الكلامَ إلى الفِعَال ووقعَ الشَّر والمخاصمة والمقاتلة، فإنَّه عدوُّ آدمَ وذريته مِن حينِ امتنعَ مِن السُّجُود لآدمَ وعداوتُه ظاهرةٌ بيِّنَة»[4]. إنَّها دعوةٌ عامَّة للقولِ الطَّيب، والعِفَّة في المنطق، بجميعِ أنواعه، في كلِّ حالٍ، ومع كلِّ أحد.

وتزخر السنَّة النبوية بالكثيرِ من الأدلةِ العامَّة والخاصَّة التي تدعو إلى حُسنِ الخُلُق، وتحثُّ على التعاملِ به، ومِن ذلك قوله ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأتبعِ السَّيِّئةَ الحسَنةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[5]، وهنا يظهر أنَّ الأمرَ بالتقوَى حيثما كان المرءُ؛ لهو أعظمُ دليلٍ على شمول الأخلاق الإسلاميَّة للإنسان في جميعِ أحواله في السرِّ والعَلَن، والرِّضا والغضب، على أيِّ حالٍ كان، وفي أيِّ زمان.

١ـ سورة الذاريات: ٥٦.

٢ـ سورة الحجرات: ١٣.

٣ـ سورة الإسراء: ٥٣.

٤ـ تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٦.

٥ـ صحيح الترغيب والترهيب للألباني (٢٦٥٥).

وفي قولِـه ﷺ: «**وَخَالِـقِ النَّـاسَ بِخُلُقٍ حَسَـنٍ**» أي: عَامِـل النَّـاسَ كُلَّ النَّاسِ، دون استثناء، بجميع الأخلاق الحَسَنَة التي تُحِبُّ أنْ يُعامِلُوكَ بها.

وشـمولُ الأخلاق في الإسـلام يعني أنَّ دائرة الأخلاق الإسلاميَّة واسعةٌ جدا؛ فهي تشـمل جميع أعمال الإنسـان الخاصة بنفسـه، أو المتعلِّقة بغيره، سـواء كان الغـير فرداً أو جماعـة أو دولـة، فلا يخرج شيء عن دائرة الأخلاق ولُزُوم مراعـاة معانيها، مما لا نجد له نظيراً في أيَّةِ شريعةٍ سماويةٍ سابقة، ولا في أيِّ قانونٍ وضعيٍّ بشري.

الخصيصة الثالثة: الثَّباتُ واللُّزوم

مِـن بـينِ خصائص الأخلاق الإسـلاميَّة أنَّها ثابتـة في مبادئها وحقائقهـا وحدودها، فالصـدقُ خُلُـقٌ حميـدٌ دائماً، لا يمكن ذلـك في زمانٍ دونَ آخر، أو لـدى جيلٍ دونَ غيره، وهذا الثبات يضمنُ دقَّة المعايير، واستقرارَ القِيَم وصحة التربية.

وبقدرِ ثباتِ الأخلاق وشيوعِ أثرها في حياةِ الناس، بقدرِ ما تزدهرُ الأُمم وتتقدَّم حتى ولـو كانت غيرَ مسـلمة، فثباتُ المعايـير أمرٌ عظيم لا مكان فيه للمجاملات والرشـاوى والنزوات الشـخصية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «إنَّ اللهَ يُقِيمُ الدَّولَةَ العَادِلَة وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَة، وَلا يُقِيمُ الدَّولَةَ الظَّالِمَة وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَة»[1].

الخصيصة الرابعة: الإقناع العقلي والوجداني

فتشريعاتُ الإسـلام توافقُ العقول الصحيحة، وتتوائمُ مع الفِطَرِ السـليمة، وتحصل القناعة الكاملة والانسجامَ التَّام مع ما أتتْ به الشريعة الإسلاميَّة من نُظُمٍ أخلاقية.

فالأخـلاق الإسـلاميَّة بهـا يقنعُ العقل السـليم، ويـرضَى بها القلب، فيجدُ الإنسـان ارتياحاً واطمئناناً تجاهَ الحَسَنِ من الأخلاق، ويجدُ نُفرةً وقلقاً تجاهَ السيئ من الأخلاق.

١ـ مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٤٦.

الخصيصة الخامسة: المسؤولية

الأخلاق الإسلاميَّة تجعلُ الإنسانَ مسؤولاً عمَّا يصدُر منه في كلِّ جوانبِ الحياة، سواء كانت هذه المسؤولية مسؤولية شخصية، أم مسؤولية اجتماعية، ولا تجعله اتكاليًّا لا يأبه بما يدورُ حوله من أشياء، وهذه خاصية من خصائص أخلاقنا انفردتْ بها الشريعة الغرَّاء.

وتعني المسؤولية الشخصية أنَّ الإنسانَ مسؤولٌ عمَّا يصدرُ منه عن نفسه، إنْ كانَ خيراً فخير، وإنْ كانَ شرًّا فشر وفي هذا الصَّدد يقولُ اللهُ تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1]، ويقولُ تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[2]، ويقولُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[3].

فهذه الآيات وغيرها تبيِّن لنا مدى المسؤولية التي تقعُ على عاتقِ الإنسان عمَّا يصدرُ منه، يقولُ النبيُّ ﷺ: «.. **وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ**»[4]، يقولُ ابنُ حَجَر في شرح الحديث: «لا يُلقي لها بالًا؛ أي: لا يتأمَّل بخاطره، ولا يتفكَّر في عاقبتها، ولا يظنُّ أنَّها تؤثِّرُ شيئاً»[5]، وهذا يصبُّ في باب خطورة الاستهانة بالكلمة استشعاراً للمسؤولية الشخصية.

الخصيصة السادسة: العِبرَة بالظاهرِ والباطن

لا تكتفي الأخلاق الإسلاميَّة بالظاهرِ مِنَ الأعمال، ولا تحكم عليه بالخيرِ و الشرِّ بمقتضَى الظاهرِ فقط، بل يمتدُّ الحكم ليشمَلَ النوايا والمقاصد، وهي أمورٌ باطنيَّة، فالعِبْرةُ إذاً بالنِيَّة، يقول رسولُ الله ﷺ: «**إنَّما الأعْمالُ بالنِّيّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى**»[6]، والنِيَّة هي مدارُ التكليف، وعلى ذلك فالإسلام يُراعي نِيَّةَ الإنسان في الحكم على عمله الظاهر.

١ـ سورة الطور: ٢١.
٢ـ سورة النساء: ١١١.
٣ـ سورة الإسراء: ٣٦.
٤ـ صحيح البخاري (٦٤٧٨).
٥ـ فتح الباري: ١١/ ٣١١.
٦ـ صحيح البخاري (١).

الخصيصة السابعة: الرقابة الدينيَّة

تعني الرقابةُ في هذا المقام: مراقبة المسلم لجانبِ مولاه سبحانه في جميعِ أمورِ الحياة، وعلى هذا فإنَّ الرقابة في الأخلاق الإسلاميَّة لها مدلولها المستقلُّ والمختلف عن الرقابة في مصادر الأخلاق الأخرى، حيث تكون رقابةً خارجية من الغَير؛ تتمثَّل في رقابة السلطة والأفراد.

أمَّا الرقابة في الإسلام فهي رقابةٌ ذاتيةٌ في المقام الأوَّل، وهي رقابةٌ نابعةٌ مِنَ التربيةِ الإسلاميَّة الصَّحيحة، ومِن إيقاظ الضَّمير، فإذا كان المسلمُ يعلم أنَّ اللهَ معه، وأنَّه مُطَّلِعٌ على حركاته وسكناته، فإنَّه يكون رقيباً على نفسِه، ولا يحتاجُ إلى رقابةِ الغير عليه، يقولُ تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1]، ويقولُ سبحانه: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[2]، ويقولُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[3]، فإذا قرأ المسلمُ هذه الآيات وعرف معناها؛ فإنَّه حينئذٍ يتيقَّن أنَّه إذا تمكَّن من الإفلات من رقابة السلطة، فإنَّه لن يتمكَّن من الإفلات من رقابة الله، وهذا في حدِّ ذاته أكبر ضمانٍ لعدم الانحراف والانسياق إلى الأخلاق المذمومة.

الخصيصة الثامنة: الأخلاق الإسلاميَّة ترتبطُ بالجزاء الدنيوي والأخروي

ترتبطُ أخلاق الإسلام ارتباطاً وثيقاً بالجزاء، سواء في الدنيا أو الآخرة، لذا وُجِدَ الوعدُ والوعيد، والترغيبُ والترهيب، فالأخيارُ مِنَ النَّاس: جزاؤهم عظيم في الدنيا والآخرة؛ ومِن ذلك ما أعدَّه اللهُ لهم في الآخرة، كما في قوله تعالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[4].

١ـ سورة الحديد: ٤.

٢ـ سورة طه: ٧.

٣ـ سورة النساء: ١.

٤ـ سورة التوبة: ٧٢.

وكذلك ما وعدهم اللهُ به في الدنيا من الجزاءِ العاجل، قالَ تعالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[1]، وقالَ أيضاً: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[2].

وأمَّا الأشرارُ مِنَ النَّاس؛ فقد توعَّدهم اللهُ عزَّ وجلَّ، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾[3].

وأمَّا جزاؤهم في الدنيا؛ فمِثاله قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[4].

خصائص المنهاج القرآني في البناء الأخلاقي للإنسان

حَمَلَ القرآنُ الكريم الكثير من القواعد الأخلاقية التي يجب على المسلم أن يتأمَّلها ويتوقَّف عندها معتبراً بها في بناءِ نفسِه أخلاقياً ورُوحيًّا، وفي هذا السياق تشير د. مريم حسين السَّادَة[5] إلى أنَّ المتدبِّر لكتابِ الله جلَّ في عُلاه يجد صفوة الفضائل الأخلاقية التي تبني الإنسان وأخلاقه، وتعزز إنسانيته وكرامته؛ حيث يخاطب القرآن الكريم النفسَ

١_ سورة الطلاق: ٢ – ٣.

٢_ سورة الزمر: ١٠.

٣_ سورة الحج: ١٩ – ٢٢.

٤_ سورة النحل: ١١٢.

٥_ باحثة قطرية في مجال الدراسات الإسلامية، حصلت على الماجستير في التفسير وعلوم القرآن من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر (يونيو ٢٠١٧م) عن رسالتها «المنهاج القرآني في البناء الأخلاقي للإنسان وأثره في رواد مراكز القرآن الكريم وعلومه في دولة قطر»، وقد تمَّ إصدار هذه الرسالة كأول كتاب يُنشر ضمن سلسلة الرسائل العلمية لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر (٢٠١٩م)، كما حصلت الباحثة مؤخراً على درجة الدكتوراه في تخصص الدراسات الإسلامية وقضايا المجتمع المعاصر، من جامعة محمد الخامس بالمملكة المغربية (٢٠٢٣م).

الإنسانية بما يجولُ في خفاياها خطاباً يُصلِحُ حالها ويُسعدها، ويكون الخطاب مِن خلال أساليب متنوعة تجذب المتدبر والمتأمل في الآيات القرآنية؛ حيث يتفنن بأسلوب الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ووصف الجنة وما تحمله مِن نعيمٍ دائم جزاءً لمستحقيها مِن أصحابِ الأخلاق الحميدة، ويصفُ النارَ وما تحمله مِن عذابٍ سقيمٍ لِمَن يستحقها من أصحاب الأخلاق الذميمة، وعبر القصة والمثل، والتقرير والتلقين من خلال أساليب الخطاب المتنوعة، والغوصِ في عالَمِ الأخلاقِ الظاهرةِ والباطنة، والمقابلة والمزاوجة، والدعوة إلى المراقبة، والتنوع والشُّمول، واللِّين في النصح والقول.

وفي الأسطر القادمة، تستعرض د. مريم عدداً من هذه الخصائص الأخلاقية الدالة على شمولية المنهاج القرآني لكافة الجوانب الهادية إلى تمثُّل الأخلاق في حياة المسلمين[1]:

الخصيصة الأولَى: تنوُّع أساليب الأمر بمكارم الأخلاق، والنهي عن سيئها

تتنوَّع منهجية القرآن الكريم في الأمر بالأخلاق؛ فتارةً تأتي بأمرٍ صريحٍ وإلزامٍ واضحٍ لقيمةٍ معينة، والنهي عن ما يُضادها، وتارةً أخرى تأتي بأمرٍ مقاربٍ لتلك القيمة وبيان قيمتها وفضلها وأثرها على الإنسان وأنَّها مِن صفات المؤمنين، فمثلاً جاءَ الأمرُ الصريح بالتعاون على البرِّ والتقوَى والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان في قولِه تعالَى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾[2]، وجاءت آيةٌ أخرى تبينِّ أنَّ التعاون من صفات المؤمنين وتؤكِّد فضله وأثره عليهم، قالَ تعالَى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[3]، أي: «بعضهم يُوَالِي بعضاً، فَهُم يَدٌ واحدة، يأمرونَ بالإيمان، وينهونَ عن الكُفر»[4].

١ـ المنهاج القرآني في البناء الأخلاقي للإنسان: ٨٩ – ١١١.

٢ـ سورة المائدة: ٢.

٣ـ سورة التوبة: ٧١.

٤ـ زاد المسير لابن الجوزي: ٢/ ٢٧٧.

الخصيصة الثانية: المُزاوَجَة بين الترغيبِ والترهيب، والوعدِ والوعيد، والثوابِ والعقاب

يعتبرُ أسلوب الترغيب في الأخلاق الحسنة، والترهيب عن ضدِّها مِن أهمِّ ما يمتازُ به المنهاج القرآني، ويكون ذلك مِن خلالِ التأكيد أنَّ اللهَ سبحانه وتعالَى يُجازِي مَن يتمسَّك بالأخلاقِ الحسنة ويُثيب كلَّ إنسانٍ بعمله، ويُجازِي مَن يجحدها ويتمثَّل بِمَا يُضادها، «وقد تعدَّدت في البيان القرآني صورة الزجر والوعيد والوعد والترغيب، وترمي كلها إلى إشعار الإنسان بمقدار ما تقتضيه خلافة الإنسان عن الله في الأرض من تحقيق مكارم الأخلاق»[1]. قالَ تعالَى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2]، وقالَ تعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3]، ويتبعها قوله تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[4].

فالآيةُ الأولَى تحملُ وعدًا للذين أحسنوا بأنَّ لهم الجزاءَ والثوابَ الحَسَن والخلود في الجنة، وفي المقابل يأتي الوعيدُ في الآيةِ التي تليها للذين أساؤوا بأنَّ لهم العذابَ والعقاب لما قدَّمت أيديهم والخلود في النار، وفي هذا الصدد يقول محمَّد عبدالله دراز: «يربط القرآن الكريم بين الفضيلة والسعادة، وبين الرذيلة والعقوبة، والفصل بين الأبرار والأشرار، تاركاً في ذلك الأثر العميق في نفوس العباد، موجهاً أنظارهم نحو الأخلاق الحميدة ذات الآثار المجيدة»[5]، ويقول ابن جزي: «تأمَّل القرآن تجد الوعدَ مقروناً بالوعيد، قد ذكر أحدهما على إثرِ ذِكرِ الآخر؛ ليجمعَ بين الترغيبِ والترهيب، وليتبينَ أحدهما بالآخر»[6].

١ـ الموسوعة في سماحة الإسلام لمحمد الصادق عرجون: ١/ ١٩٩.

٢ـ سورة الأحزاب: ٢٤.

٣ـ سورة يونس: ٢٦.

٤ـ سورة يونس: ٢٧.

٥ـ دستور الأخلاق في القرآن: ٢٢١، بتصرف.

٦ـ التسهيل لعلوم التنزيل: ١/ ١٥.

الخصيصة الثالثة: إقناع العقل وإمتاع العاطفة

المتفكِّر في كتابِ العزيز الحكيم يرى الإقناعَ العقلي مِن خلال ما يطرحه مِن قصصٍ وأمثال، وما تحمله مِن عبرٍ وعظات، ويرى الإمتاع العاطفي مِن خلال ما يقدِّمه مِن براهين وحُجَج، وما تحمله مِن تشويقٍ وترقيق[1]، فعَلَى سبيل المثال تأتي العبرة والعظة لقيمةٍ معينة في ثنايا قصةٍ من القصصِ القرآني تؤدي إلى التفكُّر والتعقُّل بتلك القيمة، وتؤدي إلى تحريك العاطفة تجاه سلوك تلك القيمة، والقرآن الكريم ضَرَبَ الأمثالَ بشكلٍ مباشرٍ وغير مباشر، وبأساليب متنوعة منها التمثيل الطبيعي نحو قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وقالَ تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾[3]، تقول عائشة عبدالرحمن في كتابها الذي كرَّسته لخدمة قضايا الإنسان: «لا يمكن أن تمارس حرية العقيدة بمعزل عن حرية العقل والرأي، فلا يكون للإنسان أن يجادل فيما لا يقتنع به ولا أنْ يسأَلَ فيما لا يطمئنُ إليه»[4]، وجاء القرآنُ الكريم ليقنع العقل، ويمتع العاطفة دون إخلالِ جانبٍ مقابل جانبٍ آخر، بل جاءَ بشكلٍ يدمج بين الشيئين ويظهر البلاغة القرآنية التي لا نظير لها.

الخصيصة الرابعة: مخاطبة جميع الناس كلٌّ بقدرِه

يخاطبُ المنهاج القرآني جميع النَّاسِ مخاطبةَ الخبير بشؤون حياتهم، فلا يقتصر على مخاطبة الخاصة دون مخاطبة العامة، ولا يقتصر على مخاطبة العامة دون مخاطبة الخاصة،

١_ نظرات في الإسلام لمحمد دراز (مقدمة البيومي): ٢٠، بتصرف.

٢_ سورة البقرة: ٢٦١.

٣_ سورة الكهف: ٥٤.

٤_ القرآن وقضايا الإنسان: ١١٣.

ومَن تأمَّل آياتِ الكتاب الحكيم يرى التنوُّع في الخطاب لسلوك قيمةٍ أخلاقيةٍ معينة، أو الابتعاد عن ضدِّها، ولا شكَّ أنَّ في ذلك التنوُّع والتوسُّع في الخطاب أهدافاً وأغراضاً أهمها شمولية الخطاب القرآني لجميع أجناس البشر وأصنافهم؛ ليشملَ في ذلك جميع جوانب الإنسان المختلفة مخاطباً به العقلَ والعاطفة.

ومِن أنواع الخطاب القرآني خطاب العامة نحو قوله تعالَى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1]، ومنها خطاب الخاصَّة كقوله تعالَى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2]، ومنها الخطاب الموجَّه لنوعٍ واحدٍ من البشر كقوله تعالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾[3].

الخصيصة الخامسة: العناية بالأخلاق الباطنة والظاهرة

لا يقتصر المنهاج القرآني على بيان أهمية الأخلاق الظاهرة وأثرها، أو بمعنى آخر الأخلاق المحسوسة التي يكونُ إدراكها مِن خلال تصرُّفات الإنسان وما يصدُر عنه مِن أفعالٍ أو أقوال، بل يغوصُ في عالَمِ الأخلاقِ الباطنة التي لا يمكن إدراكها إلا في قرارة الشخص ذاته، ويتعمَّق في الأخلاق الغير محسوسة التي تحرِّك الأخلاق المادية وتضبطها، «فالتحلِّي بمحاسن الأخلاق يشتمل على التحلِّي بما ظهر منها وما بَطَن»[4]؛ حيث «تهدف الأخلاق الإسلاميَّة إلى أن تملك على المسلم قلبه، فيدفعه إليها إيمانه، ويزيده الالتزام بها إيمانًا، فمصدرها قلبيٌّ، وأصلها صلاح الباطن»[5]، فقد يأمر القرآن الكريم الإنسان بأنْ يضبط أفعاله ويصحح أقواله مِن خلال ما ظهر مِن القيمِ الأخلاقية وما بطن، قال تعالَى:

١_ سورة البقرة: ١٧٢.

٢_ سورة الأعراف: ١٤٤.

٣_ سورة البقرة: ٤٠.

٤_ الأخلاق الزكية في آداب الطالب المرضية لأحمد بن يوسف الأهدل:

٥_ هذه أخلاقنا عندما نكون مؤمنين حقاً لأبي أسامة محمود محمد الخزندار: ١٩.

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾[1]، يقول مقداد يالجن: «ابتدأ الإسلام مِن تطهيرِ الباطن ليكونَ الاستعدادُ إلى التحلِّي بالأخلاق الفاضلة حتى تصلَ إلى أعلى الدرجاتِ التي تبرهنها الأخلاق الظاهرة»[2].

الخصيصة السادسة: مقابلة القيمة الحسنة بالقيمة السيئة

يقابل المنهاج القرآني القيمةَ الحسنةَ بما يضادها مِن القيمِ السيئة، ليظهر بعد ذلك الفرقُ الواضح بينهما، وما يترتب على الإنسان مِن أثر، على سبيل المثال قَابَلَ القرآنُ الكريم الصبرَ بالاستعجال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[3]، وقَابَلَ الشكرَ بالكفر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[4]، وقَابَلَ الإصلاحَ بالإفساد في قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[5].

ومِن خلالِ المقابلة والمقارنة في الأسلوب القرآني تظهر البلاغة القرآنية في أجمل صورها؛ حيث تعطي رونقاً ومتعةً، تلفتُ الأنظار وتبهرُ الأبصار، وتدفعُ الإنسان نحو تلك القيمة التي جاء أسلوب التقابل بينها وبين ما يُضادها لتجعلَ القارئ يُدرك الآثار، دون شكٍّ أو إنكار، ولتوضِّح المعاني والأفكار، وتكشف الأسرار، وتؤكد الأخبار.

فحينَ يتتبَّع القارئ قيمةً معينة؛ تتشكَّل لديه خلفية حول أهمية تلك القيمة وأثرها عليه وعلى غيره مِن الأفرادِ في الدنيا والآخرة، ثمَّ يأتي أسلوب المقارنة بينها وبين ما يُضادها لتؤكِّد الفكرة، أو بمعنَى آخر لتُظهر الفرقَ الواضح الجليَّ بين مَن يتمسَّك بالقيمةِ الحسنة وبين مَن يتمثَّل بعكسها، حَاثاً بذلك على مكارمِ الأخلاقِ وأجلِّها.

١ـ سورة الأنعام: ١٢٠.

٢ـ دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية: ٢٧، بتصرف.

٣ـ سورة الأحقاف: ٣٥.

٤ـ سورة الإنسان: ٣.

٥ـ سورة الأعراف: ٥٦.

الخصيصة السابعة: الدعوة إلى مراقبة الذات وتحكيم الضمير

المتأمل في آياتِ الذِّكرِ الحكيم يرى التأكيدَ على دعوةِ الإنسان بأنْ يراقبَ ذاته وتصرُّفاته ويحكِّم ضميره في جميع الأحيان؛ حيث تضعُ الأخلاق القرآنية المسؤولية على عاتقِ كلِّ فردٍ؛ فيتحمل مسؤولية أخلاقه التي سيُحاسبه عليها الرقيبُ سبحانه وتعالَى العَالِمُ بخفايا الذات وما تَجُول به مِن أسرارٍ، والخبيرُ بظواهرها، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[1].

وفي هذه الآيةِ الكريمة جاءَ الأمرُ بأداءِ الأماناتِ إلى النَّاس، والعدل بالحكم والمقياس، خَاتِماً جلَّ جلاله هذه الآيةَ بأنَّه يسمعُ الأقوال، ويبصرُ الأعمال؛ فهو الرقيب سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[2]، وهو العَالِمُ بما يجهر من الأقوال وما يبطن: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾[3]، وليسَ غيره تعالىَ يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفي الصُّدور: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾[4].

وهذه الخصيصة تدفعُ الإنسانَ إلى فعلِ الخيرات واجتناب المنكرات؛ حيث تُشعِر الإنسان بالمراقبة الدائمة مِن خالقِ السمواتِ والأرض سبحانه وتعالَى الحيُّ القيُّوم؛ مما تجعله يضبط أحواله وجميع أفعاله الظاهرة والباطنة، فتحركه نحو الصَّلاح والفلاح وطريق النجاح، وتجعله يطمئن في حالِ المِحَنِ والشدَّة؛ فاللهُ سبحانهُ وتعالَى مطلعٌ على حالِه، خبيرٌ بمآلِه، يُمِدُّه بالراحةِ والطمأنينة، والإصرار والعزيمة، قالَ تعالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾[5]، فيكفي في ذلك الإنسان بأنَّه في عينِ العزيزِ القدير سبحانه وتعالَى.

١ـ سورة النساء: ٥٨.

٢ـ سورة النساء: ١.

٣ـ سورة طه: ٧.

٤ـ سورة غافر: ١٩.

٥ـ سورة الطور: ٤٨.

الخصيصة الثامنة: تنوُّع المجالات الأخلاقية

تتنوَّع مجالات الأخلاق في القرآن الكريم لتشملَ الجانب الإنساني؛ وهو الذي يرتبطُ بعلاقة الإنسان مع خالقه سبحانه وتعالَى والتي تمارس مِن خلالها أركان الإسلام، والجانب الأسري الذي يحدِّد علاقة الإنسان بمحيط أسرته وأقاربه، والجانب الاجتماعي الذي يربطُ الإنسانَ مع الآخرين، والجانب الوطني الذي يحدد الضوابط الدولية بين الحكام والشعوب ويقوِّي العلاقات الدولية مع بعضها البعض، وسائر جوانب الحياة المختلفة.

وجميعُ الجوانب تُنشأ مجموعة مِن القيمِ والمبادئِ الأخلاقية التي تركنُ إلى كلِّياتٍ مشتركة تؤدِّي إلى ارتقاءِ الفرد بذاته، وتحسين معاملاته، وضبط أفكاره ومعتقداته، وتقوية علاقاته مع جميعِ مَن حولِه، «فالقرآن الكريم هو كتاب الأخلاق الأول، وهو الذي يهدي للتي هي أقوم، وحسن الخُلق من جملة ما يهدي إليه القرآن»[1]، قالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]، فتختصُر هذه الآية الكريمة العديدَ مِن المجالاتِ الأخلاقية في مختلفِ جوانبِ الحياةِ الإنسانية بين المؤمنين.

والقرآنُ الكريم حين يُلقي الضوءَ على قيمةٍ معينةٍ؛ يرومُ بذلك أهدافاً منها إصلاح نِيَّة الفاعل، أو تصحيح الفعل مِن خلالِ تلك القيمة، وبهذا التنوُّع في مجال الأخلاق لتشملَ جميع المجالات؛ يستطيعُ الإنسان السيرَ في هذه الحياة وفق مشيئة الخالق سبحانه وتعالَى، ووفق مشيئة الشخص ذاته لما يحبُّه ويرضاه.

١ـ موسوعة الأخلاق لخالد بن جمعة الخراز: ٨٤.

٢ـ سورة الحجرات: ١١.

الخصيصة التاسعة: مراعاة الفروق الفردية في اكتساب الأخلاق

يراعي القرآنُ الكريم جميعَ الناس؛ حيث يوافق فهمهم ويلائم فِطرتهم ويناسب قدراتهم، فيأتي بألفاظٍ وأساليب يدركها العلماء ويعرفها البسطاء، كما يأتي بما يُلائم الفطرة التي فُطِرَ النَّاسُ عليها؛ فلا يأمر بالتزام قيمةٍ أخلاقية إلا بما يستطيع عليه جميع البشر، قالَ تعالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[1]، ويراعي فروقَ جميع الأشخاص بغضِّ النظرِ عن نوعية تلك الفروق سواء كانت فروقاً عقلية: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2]، أم فروقاً جنسيَّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[3].

فالناسُ على الرغم مِن اشتراكهم في المعنَى الإنسانيّ إلا أنَّهم أفرادٌ متمايزون؛ لكلِّ فردٍ وجودَه الخاص، وعالَمه المتفرِّد به، وعلى هذا المفهوم للإنسان، قامت أحكام الشريعة الإسلاميَّة ومبادئها[4]، يقولُ تعالَى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾[5]، ومراعاةُ الفروق الفردية لا شكَّ أنهَّا مِن أهمِّ ما يضبطُ أخلاق الإنسان التي راعاها القرآن الكريم؛ فتَواصَلَ مع كلِّ شخصٍ حسبَ قدرتِه واستعدادِه ووفقَ ما يناسبه، ممَّا قد يؤدي إلى توجُّه الشخص نحو تلك القيمة التي أمرَ بها خالقه سبحانه وتعالَى، والتي تُلاءِم فطرته وطموحاته، وتتناسب مع مخيِّلته، وترتقي به نحو الأفضل، والابتعاد عن ما يضاد تلك القيمة المجلبة سوء العاقبة.

١ـ سورة البقرة: ٢٨٦.

٢ـ سورة البقرة: ٢٦٩.

٣ـ سورة الحجرات: ١٣.

٤ـ التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم يونس الخطيب: ٦/ ١٢١٩، بتصرف يسير.

٥ـ سورة الزخرف: ٣٢.

الخصيصة العاشرة: التكامل والتعادل

يتجلَّى في القرآن الكريم طابع التكامل في القيم الأخلاقية، لأن القيمة الأخلاقية الواحدة يجب على كل فرد أن يطبقها على مسارٍ محدَّد[1]، بالإضافة إلى توضيح إيجابيات تلك القيم، وبيان سلبياتها.

كما حقَّق القرآنُ الكريم وضعية التعادل في ميزانها الذي كان يميلُ تارةً إلى جانبٍ وتارةً أخرى إلى جانبٍ آخر، ثم يدفعها كلها في اتجاه واحد، بحيث صار جديرًا بأن ينسب له عن حق مجموع هذه الأخلاق[2]، مستخدماً بذلك جميع الوسائل والأساليب المتنوعة التي تدرِّب الإنسان على سلوكِ قيمةٍ معينة، وإنَّها إنْ لَم تكن تحرِّك الأبدان وتوجهها بشكل مباشر فإنما توجه النفوس وتحركها تجاه تلك القيمة.

كما راعى القرآنُ الكريم التوازن بين القيم الأخلاقية حتى لا تطغى قيمة على قيمةٍ أخرى، ولا يطغى جانب على الجانب الآخر فيحدث التقصير والاختلال لقيمةٍ أو جانب؛ مما قد يؤثر بعد ذلك في مسيرة الحياة الإنسانية، فجاءت العناية الإلهية لتنهض بالإنسان من خلال تحقيق التوازن الدقيق في جميع مجالات الحياة من خلال تزكية الإنسان بالقيم الأخلاقية جميعها؛ حيث يصوغُ القرآن الكريم الإنسان المتوازن الصالح الذي يتحلَّى بمكارمِ الأخلاق الموزونة التي لا تعارض بين جوانبها، ويكون التركيز عليها جميعاً تاركاً التطبيق على الإنسان كلٌّ على حسبِ قدرته واستطاعته دون إهمال بعضها مقابل البعض الآخر. وقيل: «إنَّ الأخلاقَ مواهبُ وحظوظ، وليستْ بالتربية، وإنَّ التربيةَ ربما عادتْ على صاحبها بالخذلان، وكانت كالدواء لم يُصادِف محله فأودَى بمتناوِلِه وأورده موردَ الهَلَكَة»[3]، وهذا القول لا يصح؛ حيث تتقوى الأخلاق بممارسة

١_ دستور الأخلاق في القرآن: ٣٨، بتصرف.
٢_ نفس المصدر السابق: ٨ – ٩، بتصرف.
٣_ مجلة المنار لرشيد رضا: ١/ ٥٦.

الإنسان لها بشكل مستمر، وللتربية الصحيحة المستنبطة من المنهاج القرآني الأثر البالغ في سلوك الفرد وأخلاقه حتى يصبح الخُلق الحسن بعد ذلك سَجِيَّة وطبع في الإنسان.

الخصيصة الحادية عشرة: تأكيد أهمية الدعاء لاكتساب مكارم الأخلاق

يشيرُ القرآن الكريم إلى أهمية الدعاء في اكتساب مكارم الأخلاق والابتعاد عن مساوئها؛ فقد أرشدنا الخالقُ سبحانه وتعالَى في فاتحةِ كتابِه إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1]، وقالَ تعالَى: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[2]، وإنَّه لِمَن واجبِ المسلم التوجُّه بالدعاء إلى خالقه كما توجه إليه أولو العزمِ مِنَ الرُّسُل؛ حيث يساهم الدعاء في إصلاح النفس مِن الأخلاقِ الذميمة، قالَ تعالَى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾[3]، فبالدعاء قد تتفتَّح أبواب السماء، ولا تنقطع الأرجاء، فيُناجي العبدُ ربَّه في الخفاء، وفي السَّراءِ والضَّراء، يبتغي حُسنَ الجزاء.

الخصيصة الثانية عشرة: اللِّين في النصحِ والإرشاد

المتأمِّل في كتابِ الله سبحانه وتعالَى يرى اللِّين في النصح والرفقَ في الإرشاد؛ حيث يُشير الخالق جلَّ في عُلاه إلى القيمِ الأخلاقية بعطفٍ يستجيشُ النُّفُوس، ويأسرُ القلوب، مصرفاً بذلك عباده عن أسلوبِ الغلظة والشدة التي تؤدي إلى النفور والفرقة، يبيِّن ذلك قوله تعالَى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾[4]، وهذه الآية صريحةُ الدلالة في الدعوة إلى إشاعة الرحمة والمودة بين المسلمين، والتزام مبدأ

١ـ سورة الفاتحة: ٦.

٢ـ سورة البقرة: ٢٥٠.

٣ـ سورة إبراهيم: ٣٥.

٤ـ سورة آل عمران: ١٥٩.

الشورى بينهم لما يحقق مِن ذلك مِن تآلفٍ وتكاتف.

وقـالَ تعـالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1]، أي: بالطريقـة التـي هي أحسـن طـرق المجادلة مِـنَ الرفقِ واللِّـين مِن غير فظاظةٍ أو بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس ويجلو العقول»[2]؛ فالقول والجدال إنما يكونُ بالرفقِ واللِّين، والدعوة إلى سبيل الله قوامها

الحكمة والموعظة الحسنة والجدال الحسن الذي لا يعقبه سوءٌ ولا محن.

الخصيصة الثالثة عشرة: ربط الأخلاق الحسنة بالله عز وجل وبالإيمان به

ربطَ القرآنُ الكريم الأخلاق الحسنة بالله تبارك وتعالَى مصدر الكمال الأخلاقي، كما ربطها بالإيمانِ به سبحانه وتعالَى برباطٍ وثيق، فمثلاً ربطَ الكرم بالله سبحانه وتعالى، قال تعـالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[3]، وربَـطَ الرحمةَ بالله سـبحانه وتعالَى: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[4].

ومِـن آثارِ رحمته «يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائبِ بالقبول»[5]، كما ترتبطُ الأخـلاق بالإيـمان بالله عزَّ وجـلَّ ارتباطاً وثيقـاً؛ مما قد يدفع العبد إلى ممارسـة الأخلاق الحسـنة تقرُّبـاً إلى الله سـبحانه وتعـالَى، وطمعاً في اكتسـابِ الثواب وحسـن المآب، وأن يبتعـد عـن الأخـلاق السـيئة التي تـؤدي به إلى سـوء العقاب، وأشـد العـذاب، وهناك الكثـير مِن الآيات التي تربط الإيمان بالأخـلاق الفاضلة، وتبيِّن أنَّها مِن صفات المؤمنين التحـلِّي بها، والعمـل عليها في جميع شـؤون حياتهم؛ حيث يقـول تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

١ـ سورة النحل: ١٢٥.

٢ـ مدارك التنزيل للنسفي: ٢/ ٢٤٢.

٣ـ سورة الرحمن: ٧٨.

٤ـ سورة يوسف: ٩٢.

٥ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود: ٤/ ٣٠٥.

إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1]، كما يقولُ تعالىَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[2]، فالإيمانُ والأخلاق كلٌّ منهما يقوِّي الآخر ويهذبه، وكلَّما صَحَّتْ عقيدةُ الإيمان للإنسان وتَرَقَّتْ؛ صلحت أخلاقه وسَمَت.

الخصيصة الرابعة عشرة: ربط القيم بالملائكة والكُتُب والأنبياء عليهم السلام

ربطَ القرآنُ الكريم الأخلاق الحسنة بملائكة الرحمان، وبكُتُب المنَّان، وبالأنبياء عليهم السَّلام، قالَ تعالَى في وصفِ الملائكة عليهم السَّلام بالكرم: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾[3]، وهم الذين لا يعصونَ أمرَ الله سبحانه وتعالَى ويفعلون ما يُؤْمَرون، وقالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[4]، ويُسبِّحونَ بحمدِ الله سبحانه وتعالَى ويستغفرونه: قالَ تعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[5].

وقالَ تعالَى في وصفِ كُتُبِه: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾[6]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾[7].

وقالَ تعالَى في وصف أنبيائه عليهم السَّلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[8]، وقالَ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾[9]، وقالَ تعالَى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ

١_ سورة الحجرات: ١٠.
٢_ سورة الحجرات: ١٥.
٣_ سورة الانفطار: ١١.
٤_ سورة التحريم: ٦.
٥_ سورة الزمر: ٧٥.
٦_ سورة عبس: ١٣.
٧_ سورة الواقعة: ٧٧.
٨_ سورة التوبة: ١١٤.
٩_ سورة الدخان: ١٧.

حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[1]، وغيرها مِن الآياتِ التي تؤكِّد أنَّ مكارم الأخلاق وأتمها شأن الأنبياء عليهم السلام.

الخصيصة الخامسة عشرة: ربط مكارم الأخلاق بالمقامات الشريفة والرفيعة

اشتملتْ الآياتُ القرآنية بما يربط الأخلاق الحسنة بالمقامات الشريفة والرُّتَب العالية، على سبيل المثال لا الحصر أضاف المنهاج صفة الكرمِ إلى المقامِ العالي، والرزق الغالي، والأجر المنالي، قال تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[2]، وقالَ تعالىَ: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾[3]، وقالَ تعالىَ في وصفِ نعيم الجنة: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾[4]، كما قالَ سبحانه وتعالىَ للذين أحسنوا وعملوا الصالحات أنَّه عزَّ وجلَّ سيُجازيهم بالثوابِ الحَسَن، قالَ تعالىَ: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾[5].

الخصيصة السادسة عشرة: برهنة التوبة بالقيم الأخلاقية

وذلك مِن خلالِ تأكيدِ القرآن الكريم على القيم الأخلاقية باعتبارها دليلاً على صدقِ توبةِ العبد؛ حيث أخبرنا اللهُ سبحانه وتعالىَ بأنَّه الغفورُ الرحيم الذي يغفر لِمَن يتوب مِن عبادِه ويتبع توبته بالأعمال المجيدة والقيم الحميدة، فتتبدَّل السيئات إلى حسنات بإذنه سبحانه وتعالىَ، قالَ تعالىَ: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[6]، قال الرازي: «المرادُ مِن قولِه تعالىَ ﴿وَأَصْلَحَ﴾: أي يتوب بنيةٍ صالحةٍ صادقةٍ وعزيمةٍ صحيحةٍ خاليةٍ عن سائرِ الأغراض»[7]، ويتبع ذلك الأعمال الصالحة؛

١_ سورة الإسراء: ٣.
٢_ سورة الأنفال: ٤.
٣_ سورة يس: ١١.
٤_ سورة الرحمن: ٧٠.
٥_ سورة آل عمران: ١٩٥.
٦_ سورة المائدة: ٣٩.
٧_ مفاتيح الغيب: ١١/ ٣٥٧.

فالإنسان عندما يسعى لإزالة مشاعر الإثم وتأنيب الضمير، ويعزم على عدم تكرار الفعل المذنب، ويصحِّح تفكيره، إنما يجبُ عليه بيان ذلك مِن خلالِ أفعاله التي تصدُر منه مِن جديد، ويذهب إلى خالقه عزَّ وجلَّ العَالِمِ بخفايا النفوس وظواهر الأفعال فيعترف بذنبه أمامه سبحانه وتعالَى دونَ أدنى حرج، فهو الغفور الذي وسعتْ رحمته كلَّ شيء.

ويحدِّد القرآن الكريم أساليبَ تلك البرهنة وقبول توبة العبد مِن خلالِ عدَّة أمور تمكِّن العبد مِن الوصولِ إلى تطهيرِ النفس واستحقاقِ المغفرة بإذن الله سبحانه وتعالَى ابتداءً بإصلاح السَّريرة، ثم إصلاح الأفعال العملية مِن خلالِ الالتزام بمكارم الأخلاق والابتعاد عن مساوئها، قالَ تعالَى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾[1].

الخصيصة السابعة عشرة: الواقعية والمنطقية

تمتازُ خصائص القيم الأخلاقية القرآنية بواقعيَّتها؛ حيث تُراعي واقع الحياة الإنسانية، وتتناسب مع مخيِّلة الإنسان فلا تأتي بقيمةٍ لا تناسبُ فطرته، وتعقد صفوَ حياته، كما تمتاز بمنطقيَّتها التي تُراعي فِكر الإنسان وعقليته فلا تأتي بقيمةٍ تناقضُ تلك الأفكار والمعتقدات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[2]، فخالقُ السماواتِ والأرض ومَن عليها هو أعلمُ بخواطرِ الإنسان، وبواعثه النفسية، وقدراته واستطاعاته، وهو الذي مع الإنسان أينما كان وكيفما يكون، قالَ تعالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[3]، فلا يأمر سبحانه وتعالَى الإنسانَ إلا بما يناسبُ قدراته ووفق استطاعاته، ويجلب له خيري الدنيا والآخرة، قالَ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ

١_ سورة الفرقان: ٧٠ – ٧١.

٢_ سورة ق: ١٦.

٣_ سورة الحديد: ٤.

يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[1].

يقولُ الزمخشري: «يريدُ اللهَّ أنْ يبيِّن لكم ما هو خفي عنكم مِن مصالحكم وأفاضل أعمالكم، وأنْ يهديكم مناهج مَن كان قبلكم مِن الأنبياءِ والصالحين والطُّرُق التي سلكوها في دينهم لتقتدوا بِهم»[2]، فلا يكلفهم إلا بما تقتضيه قدراتهم، ولا يقتصر القرآن الكريم على مراعاة قدرات الإنسان فحسب بل يتعداه إلى السهولة في تطبيق المأمور به مِن القيمِ الأخلاقية، وسهولة الابتعاد عن ما يناقضها، قالَ تعالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3]، وقالَ تعالَى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾[4].

يقول وهبة الزحيلي: «تمتازُ قيم الإنسان في القرآن الكريم بمنطقيَّتها وواقعيَّتها؛ لأنَّها مِن أجلِ بناءِ الإنسان وهي للإنسانِ نفسه»[5].

هذا، ويستنبط محمد عبدالله دراز شروطاً معينة للقرآن الكريم عند الأمر والإلزام بقيمةٍ مِنَ القِيَم وهي: إمكانية التصرُّف، واليُسر العَمَلي، وتحديد الواجبات وتدرُّجها[6].

وفي الحقيقة القرآن الكريم لا يأتي إلا بما يناسب الإنسان ويجلب له الخيرَ عاجلاً أم آجلاً، واللهُ سبحانه وتعالَى أعلمُ بعبادِه وما يتناسب مع سجيَّتهم فيحدِّد الحقوق والواجبات وفق إمكانية الإنسان ويسره العملي.

١_ سورة النساء: ٢٧ – ٢٨.

٢_ الكشاف: ١/ ٥٠١.

٣_ سورة البقرة: ١٨٥.

٤_ سورة الطلاق: ٧.

٥_ القيم الإنسانية في القرآن الكريم: ٣١.

٦_ دستور الأخلاق في القرآن: ٣٩ – ٥٩، بتصرف.

الخصيصة الثامنة عشرة: إبراز فلسفة القيم والتعليل لها

وذلك عندما يأمرُ الله سبحانه وتعالَى بقيمةٍ معينة، يذكر سبب الأمر بتلك القيمة أو آثارها سواء كان ذكرها بنفس الآية التي جاءَ بها الأمر أو بآية أخرى، فمثلاً عندما أمرَ الله سبحانه وتعالَى الإنسانَ بقيمةِ العدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[1]، جاءت فلسفة تلك القيمة أنَّ العدل أقربُ لتقوَى الله جلَّ في عُلاه، وفي آيةٍ أخرى قالَ تعالَى: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[2]، ولا يضيعُ أجرهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[3].

ولَمَّا كان الإحسان هو الجمال النفسي للإنسان؛ جاءَ التأكيدُ في آيةٍ أخرى أنَّ الإحسان إنَّما يكونُ جزاءه إحسان، وذلك في قوله تعالَى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[4]، وعندما أمرَ سبحانه وتعالَى بالصبر، قالَ تعالَى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾[5]، وجاءَ في آيةٍ أخرى أنَّ الصبر مِن عزائمِ الأمور، قالَ تعالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[6].

ومِن خلالِ ذلك يتَّضح أنَّ القيم الأخلاقية في القرآن الكريم تبرهن نفسها، وتثبت قيمتها، وتبيِّن أهميتها، ومَدَى الحاجة إليها، ليُدرك الإنسان مدى أهميتها بالنسبة له، فيعمل بها وفق ما تقتضيه المنهجية القرآنية، ولتظهر لديه الملكة الحسية مِن خلال التأمُّل العقلي في الآيات الكريمة التي تلفت الأنظار اتجاه مظاهر الجمال للقيم الأخلاقية الحسنة؛ مما يترك في النفس الإحساس بالبهجة والسرور تجاه تلك القيم، وهذا يؤدي بالإنسان إلى السلوك الحسن والامتثال بتلك القيم.

١ـ سورة النحل: ٩٠.
٢ـ سورة البقرة: ١٩٥.
٣ـ سورة التوبة: ١٢٠.
٤ـ سورة الرحمن: ٦٠.
٥ـ سورة ص: ١٧.
٦ـ سورة الشورى: ٤٣.

هـذا، ويضعُ القرآن الكريـم كلَّ قيمةٍ في محلها ويأمر المسـلمين بالعمل بها في الوقت المناسـب مع الشـخص المناسـب، ففي قوله تعـالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1]، توضِّح الآية الكريمة طبيعةَ المسلمين وما ينبغي عليهم مِن رحمةٍ ومودَّةٍ تربطها الإخوة الإسلاميَّة، وتبيِّن كيف كانت علاقة المسلمين مع بعضهم البعض المتمثلة بالرسول ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين بأنَّها قائمة على الرحمةِ والمودةِ والتعاون، والشـدة والغلظة على الكفار مِن غيرِ ظلمٍ ولا عدوان؛ حيث قالَ تعالَى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[2].

الخصيصة التاسعة عشرة: الوسطية والاعتدال

قالَ تعـالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[3]، مما لا شكَّ فيه أن ديننا الإسلاميّ دينُ التوسُّط والاعتدال فلا فيه مِن إفراط ولا فيه مِن تفريط؛ حيث «جاء الإسلام وسطاً في الأخلاقِ بين الإفراط والتفريط، والتقريب بين المثل الأعلى والواقع، وانسجام بين العقل والغريزة التي هي قوة مع رحمة، وحكـم مع عدل، وتواضع مع عزَّة، ومسـاواة مع تسـامح، وتشـاور مـع عزم، ولين مع حـزم»[4]، فالقرآن الكريم يدعو الإنسـان إلى التوسُّـط والاعتدال في جميـع الأمور ويذم التقصير والغلو ومجاوزة الحدّ[5].

ومَن تأمَّل في القيم الأخلاقية القرآنية يرى أنَّها سارت على نفس هذا النهج والمنوال؛ حيـث أمرَ اللهُ سـبحانه وتعـالَى في كتابه الكريم المسـلمين أنْ يكونـوا معتدلين في حياتهم الدينيـة والأخلاقيـة، وجميـع شـؤون حياتهـم؛ فمثلاً مسـألة إنفـاق الأموال التـي تُعتبر

١ـ سورة الفتح: ٢٩.
٢ـ سورة البقرة: ١٩٠.
٣ـ سورة البقرة: ١٤٣.
٤ـ بيان المعاني لعبدالقادر بن ملا آل غازي: ٦/ ٤٩٢.
٥ـ القواعد الحسان للسعدي: ٧٢، بتصرف يسير.

مِن أهمِّ المسائل التي تهدِّد الجانب الاقتصادي؛ جاءَ الأمرُ في القرآن الكريم أنْ ينفقَ الناسُ أموالهم في سبيل الله عزَّ وجلَّ على أكملِ وجهٍ ودون أدنَى تقصير، قالَ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، وفي المقابل نَهاهُم سبحانه وتعالَى عن التبذير وعن الإسراف الذي ليس في محله، قالَ تعالَى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[2]، وقالَ تعالَى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[3]، مشيرًا بذلك إلى التوسُّط في الإنفاق، والتوازن والاتساق، لصيانة الأرزاق، وقالَ تعالَى في التأكيد على الاعتدال في الإنفاق: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[4]، كما قالَ تعالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[5]، أي: «الاقتصاد والتوسط بين الإفراط والتفريط وذلك هو الجود الممدوح فخير الأمور أوساطها»[6].

الخصيصة العشرون: لفت الأنظار من خلال أسلوب الحوار

اعتنَى القرآنُ الكريم بأسلوب الحوار وجاءت بعض الحوارات تحملُ قِيَماً أخلاقيَّة بشكلٍ صريح وشكلٍ غير صريح، وتحدِّد ضوابط الحوار وتسنّ معاييره التي تُبنَى على الأخلاق، وتؤكِّد على صدق الأنبياء عليهم السلام مِن خلال الحجج والبراهين التي تقنع العقول، والتي تدعو الإنسان إلى الحوار في شتَّى مجالات الحياة لينعم الأفراد بعد ذلك بمجتمعٍ هادئ يسوده الأمن والأمان.

١ـ سورة التوبة: ٣٤.

٢ـ سورة الإسراء: ٢٦ – ٢٧.

٣ـ سورة الأنعام: ١٤١.

٤ـ سورة الفرقان: ٦٧.

٥ـ سورة الإسراء: ٢٩.

٦ـ روح المعاني للألوسي: ٨/ ٦٣.

يقول مقداد يالجن: لا تخلو أيَّة مناقشة أو محاورة أو مناظرة مِن القيم الأخلاقية وذلك مِن حيث النية، ومن حيث استهداف المقاصد، وكذلك من حيث الأداء[1]؛ فالحوار أمرٌ ضروريٌ يحتاجُ إليه الإنسان لإقناعِ الذات وحلِّ المشكلات وذلك بمراعاة آدابه الأخلاقية.

وتتنوع مجالات الحوار في القرآن الكريم فتارةً يكونُ حواراً بين الله سبحانه وتعالَى وبينَ مخلوقاته، وتارةً حواراً بين الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم، وتارةً أخرى بين بني البشر مسلمين كانوا أو كافرين، قالَ تعالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾[2]، وهنا جاء الحوار لأهل الكتاب بأنْ لا يغلوا في دينهم غيرَ الحقِّ.

كما تتنوع أساليب الحوار في القرآن الكريم لتشمل الأسلوب الوصفي؛ نحو خطاب الله سبحانه وتعالى للملائكة عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]، نشاهد في هذه الآية الكريمة عَرضاً وَصفياً واقعياً دارَ بين الخالقِ عزَّ وجلَّ وملائكته عليهم السلام.

ومِن خلالِ الأسلوب البرهاني الذي يقوم على العلم والبرهان، نحو قوله تعالَى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4]، فهنا جاءت دعوة موسى عليه السلام لقومه أنْ يستعينوا بخالقهم ويصبروا، داعماً قوله بالمواقف الصحيحة والبراهين المقنعة بأنَّ الأرضَ للخالقِ سبحانه وتعالَى يُورِثُها مَن يشاءُ مِن عبادِه.

١ـ تربية الأجيال على أخلاقيات وآداب المناقشة والمحاورة والمناظرة العلمية: ١٧، بتصرف يسير.

٢ـ سورة المائدة: ٧٧.

٣ـ سورة البقرة: ٣٠.

٤ـ سورة الأعراف: ١٢٨.

الخصيصة الحادية والعشرون: التكرار تأكيدًا على بعض القيم الأخلاقية

جاءَ أسلوب التكرار في القرآن الكريم يؤكِّد على بعض القيم الأخلاقية تارةً، ويعظِّم شأنها تارةً، ويحذِّر مِن عدم امتثالها تارةً أخرى، وجاء التكرار بشكلٍ صريح ومباشر لقيمٍ معينة، وجاءَ بشكلٍ يدعو إلى ما يقارب لتلك القيم، كما جاء التكرار في بعض المواضع في اللفظ والمعنَى موصولاً ومفصولاً، والموصول نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1]؛ فتكررت هذه الآية بعد الآية التي قبلها مباشرة.

وأمَّا المفصول فقد جاء في صورتيه، الصورة الأولى: التكرار في القرآن كله، نحو قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[2]، فتكررت هذه الآية الكريمة والتي تحذِّر مِن الكذب الذي يضاد الصدق في أكثر من سورة.

والصورة الثانية: التكرار في نفس السورة نحو قوله تعالَى في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]؛ حيث تكررت هذه الآية في نفس السورة ثماني مرات، يقولُ السُّيُوطِي: «كررت ثماني مرات كل مرة عقب كل قصة فالإشارة في كل واحدة بذلك إلى قصة النبي المذكور قبلها وما اشتملت عليه من الآيات والعبر»[4]، وهي تؤكد أن العزة والرحمة مِن صفات الخالق سبحانه وتعالَى الذي وسعت رحمته كل شيء.

كما قد يأتي في القرآن الكريم تكرار الأمر بالتزام قيمة معينة أو بيان أهميتها وفضلها، والنهي عن ضدها أو بيان أضرارها وفي ذلك لا شك عظيم الفائدة للمسلمين حيث تكون الاستفادة أكثر والتطبيق أظهر.

١ـ سورة الشرح: ٥ – ٦.

٢ـ سورة المرسلات: ٤٧.

٣ـ سورة الشعراء: ٩.

٤ـ الإتقان للسيوطي: ٣/ ٢٢٧.

الخصيصة الثانية والعشرون: الدعوة إلى القيم الأخلاقيَّة من خلال الاستفهام

يعتبرُ الاستفهام مِن أساليب القرآن الكريم التي استُخدمت للدعوة إلى بعض القيم الأخلاقيَّة والتنفير عن ضدِّها، وأساليب الاستفهام في القرآن الكريم تتنوع، فمنها ما يفيد الإنكار والنفي نحو قولِه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[1]؛ حيث تستنكر هذه الآية الكريمة الذين يظنُّون بغيرهم مِن الناس ظنَّ السوء، ويتجسَّسون على أحوال غيرهم، ويغتابونهم مبطلة ومستنكرة أشد الاستنكار هذا الفعل الذميم مِن خلال التشبيه البليغ لذلك الفعل، «ومِنَ الصدقِ ما يقومُ مقامَ الكذب في القبحِ والمعرةِ ويزيدُ عليه في الأذَى والمضرَّة، وهي الغيبة والنميمة والسعاية»[2]. ومنها ما يفيد التوبيخ نحو قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3]؛ حيث تلقي هذه الآية الكريمة اللومَ على عاتقِ الذين يأمرونَ النَّاسَ بالبرِّ وفعل الخير وهُم خلاف ذلك، فيكون الاستفهام هنا بمعنى الاستنكار والتعجب والتوبيخ. ومنها ما يفيد التقرير والإثبات نحو قوله تعالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[4]، وقالَ تعالَى: ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5]، تبين الآية الكريمة الاستفهام الإنكاري المبني على تعزيز قيمة العفو والصفح بربط ذلك برغبة الدخول في مغفرة الله سبحانه وتعالَى.

١ـ سورة الحجرات: ١٢.

٢ـ أدب الدنيا والدين للماوردي: ١/ ٢٦٦.

٣ـ سورة البقرة: ٤٤.

٤ـ سورة التوبة: ١٠٤.

٥ـ سورة النور: ٢٢.

الخصيصة الثالثة والعشرون: العناية بالمهارات الأخلاقية الجماعية

تضافرت الآيات القرآنية الكريمة التي تدعو الإنسان إلى روح الجماعة ونشر القيم الأخلاقية فيما بينها مِن خلالِ العديد مِن المهارات الجماعية، فالمتأمِّل في الكتاب الكريم يرى العناية الفائقة في هذا الشأن؛ حيث تأتي معظم الخطابات التي تأمر بالتزام قيمةٍ معينة أو بيان أهميتها وفضلها على الفرد والمجتمع بصيغة الجمع، وإنْ كانت تأتي خطابات بصيغة المفرد، ولكن طابع الجمع هو الغالب، فمثلاً في سورة الفاتحة يأتي الدعاء بصيغة الجمع ليشمل دعاء الإنسان لنفسه ولأخيه المسلم، قالَ تعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1].

يقول السيوطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ شاملٌ لعلمِ الأخلاق»[2]، والأخلاق «التي تنمِّيها العبادات في النفس ليس المقصود منها أن تكون أخلاقًا أنانية ذاتية للشخص نفسه فحسب، ولكن المقصود منها هو أن تكون أخلاقًا»[3] لتشمل أخلاق الفرد نفسه مرورًا بأخلاق الفرد مع غيره كما قالَ تعالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4]؛ فالقرآن الكريم يحث المسلمين على التعاون والوحدة لا الأنانية والفُرقة التي باتتْ تهدِّد الحضارة الإنسانية، وتأذن للمجتمعات بالزوال.

ويدعو القرآن الكريم إلى التكافل والتكاتف بين المسلمين في جميع مجالات الحياة المختلفة، حيث «أخذ الإسلام يبني المجتمع بناءً واحدًا متماسك الأطراف، وكان أول ما اتخذه من ذلك ايجاباً الحثُّ على التعاون والتراحم»[5]، قالَ تعالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

١ـ سورة الفاتحة: ٥ – ٦.

٢ـ أسرار ترتيب القرآن: ٥٨.

٣ـ التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية لعلي علي صبح: ٢٦٧.

٤ـ سورة الحجرات: ١٠.

٥ـ تيسير التفسير لإبراهيم القطان: ١/ ١٦٦.

﴿وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[1]؛ فالإنسان لا يمكنه العيش بمفردِه بل لابدَّ مِن انخراطِه مع غيرِه، وبتعاونه مع أفراد مجتمعه وتكافله معهم على الخير وإقامة الحق تنهض المجتمعات وتتحقق الغايات، «ولذا كان مِن أبرزِ مظاهر الوعي في الأفراد: شعورهم بحق الجماعة عليهم، وتصرفهم في حدود التعاون الاجتماعي، فالدين الحق هو الذي ينمي روح الشعور بحق الجماعة، والأمة الراقية هي التي تغلب الروح الجماعية كل نزعة فردية وانعزالية في أبنائها»[2].

الخصيصة الرابعة والعشرون: إبراز العلاقة الوثيقة بين الأخلاق وحقوق الإنسان

ربطَ المنهاجُ القرآني أخلاق الإنسان بالحقوق والواجبات، وضَمِنَ لكلِّ إنسان ما له وما عليه من حقوق، ووضع حدوداً وضوابط لا يعتدي عليها أحد، فكلُّ إنسانٍ له حرية الاختيار وحرية التعبير دون إجحاف حق أحد. وجعل المنهاج القرآني محور ضبط تلك الحقوق والواجبات الأخلاق فمتى صلح ذلك المحور الرئيس صلح حال الإنسان وسلوكه مع الآخرين، فالأخلاق هي التي تحرك الإنسان نحو احترام حقوق غيره من الأشخاص؛ وذلك لا شك يؤثر سلباً أو إيجاباً في ارتقاء المجتمع وتقدمه أو انحلاله وتعثره، ويتعدى ذلك الأثر من حقوق الإنسان إلى حقوق الدول، وما جاء من أوامر أخلاقية واجبة على الإنسان تعتبر أداة تحقيق لتلك الحقوق المشروعة، ونظام حقوقي مناسب ينظم حركة سير الإنسان في تعامله مع غيره، ويجعله أكثر التزاماً للقوانين المسنونة.

١ـ سورة المائدة: ٢.

٢ـ أخلاقنا الاجتماعية لمصطفى السباعي: ٦٣.

حضور الذاكرة الأخلاقيَّة في الحضارة الإسلاميَّة

تُعَدَّ الأخلاق السِّياج الواقي للحضارةِ الإسلاميَّة، وهي الأساس الذي قامت عليه؛ فمبادئ القيم والأخلاق تتدخَّل في كلِّ نُظُم الحياة، وفي مختلف أوجه نشاطها، سواءً في السلوك الشخصي، أم في السلوك الاجتماعيّ أو السياسيّ أو الاقتصاديّ، وقد بُعِثَ رسولُ الإسلام ﷺ ليُكمل الأخلاق ويُتَمِّمَها، فقال ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»[1]، وبهذه الكلمات حدَّد النبيُّ ﷺ الغايةَ مِن بعثتِه، وكيف أنَّه يُريد أن يُتَمِّمَ صَالِحَ الأخلاق في نفوسِ أُمَّتِهِ والناسِ أجمعين، ويُريدُ للبشريةِ أنْ تتعاملَ بقانون الخُلُقِ الحَسَن الذي ليسَ فوقه قانون[2].

يؤكِّد د. مصطفى السِّباعي على أنَّه مِن بينِ ما يلفتْ نظرَ الدارسِ للحضارةِ الإسلاميَّة؛ أنَّها جعلتْ للمبادئ الأخلاقيَّة المحلَ الأوَّل في كلِّ نُظُمِها ومختلفِ ميادينِ نشاطها، وهي لَم تتخل عن هذه المبادئ قط، ولَم تجعلها وسيلةً لمنفعةِ دولةٍ أو جماعة أو أفراد؛ ففي الحُكم، وفي العلم، وفي التشريع، وفي الحرب، وفي السِّلْم، وفي الاقتصاد، وفي الأسرة .. رُوعِيَتْ المبادئ الأخلاقية تشريعاً وتطبيقاً، وبلغتْ في ذلك شأواً سامياً بعيداً لم تبلغه حضارة في القديم والحديث، ولقد تركتْ الحضارة الإسلاميَّة في ذلك آثاراً تستحقُّ الإعجاب وتجعلها وحدها مِن بينِ الحضارات التي كفلتْ سعادة الإنسانيَّة

١ــ مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة رضي اللهَّ عنه، رقم الحديث: ٨٩٥٢.

٢ــ راغب السرجاني: ماذا قدَّم المسلمون للعالَم: إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانيَّة، القاهرة، مؤسسة اقرأ، الطبعة السابعة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص: ١/ ٦٠.

سعادةً خالصة لا يشوبها شقاء[1].

وعلى مستوى علاقة الأخلاق بالحُكم والسياسة عند المسلمين وغيرهم؛ يُشير د. محمَّد عمارة إلى أنَّ الحضارة الغربية قد عزلتْ «السياسة» عن «الأخلاق» و«القيم»، عندما جعلتْ من «الميكيافيليَّة» مذهبها السَّائد في الفلسفة السياسيَّة؛ فاجتمعتْ وأجمعتْ على أنَّ «القوَّة» هي «القيمة» في عالَم السياسة، والغايات تبرِّر الوسائل، وصكَّت للسياسةِ ذلك التعريف الذي يقول بأنَّها «فنُّ الممكن مِن الواقع».

في المقابل، فإنَّ حضارتنا العربية الإسلاميَّة قد ربطتْ «السياسة» بـ«القيم» و«الأخلاق»، وجعلتْ «العدل» هو القيمة الكبرَى في عالَم السياسة والمقصد الأعظم مِن مقاصد الشريعة، وما أعمقه وأبلغ دلالته ذلك التعريف الذي صكَّته للسياسة، بلسانِ الإمام أبو الوفاء ابن عقيل (ت: ٥١٣هـ) عندما عرَّفها فقال: «السياسة» ما كان من الأفعال بحيث يكون النَّاس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد». فهُنا يظهر الربطُ العضوي بين السُّبل والحِكمَة، بين الوسائل والغايات، بين الأعمال والقيم والأخلاق[2].

ويعود د. السِّباعي ليؤكِّد على أنَّ كلَّ حضارةٍ فيها عنصران: عنصرٌ روحيّ أخلاقيّ، وعنصرٌ ماديّ؛ **أمَّا العنصرُ المادي** فلا شكَّ في أنَّ كلَّ حضارةٍ متأخرة تفوقُ ما سبقها، تلك هي سُنَّةُ الله في تطوُّر الحياة ووسائلها، ومِن العبثِ أنْ تطالب الحضارة السابقة بما وصلتْ إليه الحضارة اللاحقة، ولو جازَ هذا لَجازَ أنْ نزري بكلِّ الحضارات التي سبقتْ حضارتنا؛ لِمَا ابتدعته حضارتنا من وسائل الحياة ومظاهر الحضارة ما لَم تعرفه الحضارات السابقة قط، فالعنصر الماديّ في الحضارات ليسَ هو أساس التَّفاضُل بينها دائماً وأبداً.

١ـ من روائع حضارتنا: ٣٧.

٢ـ الطريق إلى اليقظة الإسلامية: ٦١ – ٦٢.

وأمَّا العنصرُ الأخلاقيّ والروحيّ؛ فهو الذي تخلُد به الحضارات، وتؤدِّي به رسالتها من إسعاد الإنسانيَّة وإبعادها عن المخاوف والآلام، ولقد سبقتْ حضارتنا كلَّ الحضارات السابقة واللاحقة في هذا الميدان، وبلغتْ فيه شأواً لا نظيرَ له في أيِّ عصرٍ من عصور التاريخ، وحسب حضارتنا بهذا خُلُوداً[٣].

وهنا يأتي تشديد شيخ العربيَّة محمود شاكر على أنَّ عناية الحضارة الإسلاميَّة بهذا «الأصل الأخلاقي» هي التي حَفِظَتْ للثقافةِ الإسلاميَّة تماسُكها وترابُطها مدَّة أربعةَ عشرَ قرناً، مع كلِّ ما مرَّ عليها من القوارعِ والنكبات ووقائع الدَّهر على طول هذا المدى، ومع كلِّ ما انتابَها مِنَ الضَّعف، ومع كلِّ ما اعْتَوَرَها أو دخلَ عليها من التقصيرِ والخَلَل، وبقاءُ هذا التَّماسُك على طول القرون، هو وحدَه إحدى عجائبِ الحضارات والثقافات التي عرفها البشر[٤].

وبهذه الخصائص تكون الحضارة الإسلاميَّة ذات خصوصيَّات متفرِّدَة؛ فهي عالَمِيَّة، وهي تقومُ على الوحدانيَّة المطلقة لله ربِّ العالَمِين، وتتَّسِم بالتّوازن والوسطيَّة، كما أنَّها تتَّسِم بالصبغة الأخلاقيَّة؛ فهي بذلك ليستْ حضارة قوميَّة، ولا عنصريَّة، ولا هي ضد الفِطْرَة الإنسانيَّة.

وهذه الخصائص التي تتفرَّد بها الحضارة الإسلاميَّة تكتسب طابع الدَّيمومة والاستمرار من مبادئ الدِّين الإسلاميّ الحَنيف؛ لأنَّها نابعةٌ منها، ولصيقةٌ بِها، وهي بذلك بمنزلة الجوهر النفيس الذي لا يتبدَّل ولا يتغيَّر، وإنْ تبدَّلَت الأحوال، وجَدَّت المستجدات[٥].

وليسَ أدلَّ على **حضورِ الذاكرة الأخلاقيَّة في الحضارة الإسلاميَّة** مِن استعراضِ بعض شهادات المُنصفين مِنَ الغربيين الذي عايَنوا هذه الأخلاق في قراءتِهم للتاريخ

٣_ من روائع حضارتنا: ٣٨ – ٣٩.

٤_ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: ٣٣.

٥_ ماذا قدَّم المسلمون للعالم: ١/ ٦١.

الإسلاميّ قراءةً مُتَّزِنَةً، بعيدةً عن الانجرافِ وراءَ الهَوَى الغربيّ الذي يفرضُ أنَّ حضور هذه الذّاكرة قاصِرٌ على فلاسفة الحضارة اليونانيَّة القديمة، وقد أنتجَت لهم هذه القراءة المُتَّزِنَة أنْ يربطوا بين الإسلام والمدنيَّة الحديثة.

يقول **جلين ليونارد**: «يجب أنْ تكونَ حالة أوروبا مع الإسلام بعيدةً مِن كلِّ هذه الاعتبارات الثّقيلة، وأنْ تكونَ حالةَ شُكْرٍ أَبَدِيّ، بدلاً مِن نُكران الجَميل الممقوت والازدراء المهين؛ فإنَّ أوروبا لَم تعترف إلى يومنا هذا – بإخلاصٍ صادقٍ وقلبٍ سَليمٍ – بالدَّيْنِ العظيم المدينَة به للتربية الإسلاميَّة والمدنيَّة العربية، فقد اعترفَتْ به بفتورٍ وعدمِ اكتراث؛ عندما كانَ أهلها غارقينَ في بحار الهمجيَّة والجهد في العصور المظلمة فقط.

ولقد وصلت المدنيَّة الإسلاميَّة عند العرب إلى أعلى مستوى من عظمةِ العمران والعلم؛ فأحيَتْ المجتمع الأوروبي وحَفِظَته من الانحطاط، ولَم نعترف – ونحن نرى أنفسنا في أعلى قمَّة من التهذيبِ والمدنيَّة – بأنَّه لولا التهذيب الإسلامي، ومدنيَّة العرب وعِلْمهم وعظمتهم في مسائل المدنيَّة، وحُسن نظام مدارسهم، لكانت أوروبا إلى اليوم غارقةً في ظلمات الجهل»[1].

ويقول المؤرِّخ الإنجليزي **ويلز**[2]: «كلُّ دينٍ لا يسيُر مع المدنيَّة في كلِّ أطوارها؛ فاضْرِبْ بع عرضَ الحائط، وإنَّ الدِّين الحقَّ الذي وَجَدْتُه يسيرُ مع المدنيَّةِ أينما سارتْ هو الإسلام .. ومَنْ أرادَ الدليل فليقرأ القرآن وما فيه من نظراتٍ ومناهجَ علمية، وقوانين اجتماعية؛ فهو كتابُ دِينٍ، وعِلْمٍ، واجتماعٍ، وخُلُقٍ، وتاريخٍ، وإذا طُلِبَ منِّي أن أُحَدِّد معنى الإسلام؛ فإنِّي أُحَدِّدُه بهذه العِبارة: «الإسلام هو المدنيَّة»»[3].

١_ الإسلام والحضارة العربية لمحمد مرد علي: ٨٢.

2_ Herbert George Wells (1866 – 1946 A.D.).

٣_ الإسلام والمبادئ المستوردة لعبدالمنعم النمر: ٨٤.

ويقـول **بريفولـت**[1]: «ولقد انبعثت الحضارة الإسـلاميَّة انبعاثاً طبيعيـاً من القرآن، وتميَّـزت عـن الحضـارات البشريـة المختلفة بطابـع العـدل، والأخـلاق، والتوحيد، كما اتَّسَمَتْ بالسَّماحَة، والإنسانية، والأخوَّة العالمية»[2].

ويقول **جوستاف لوبون**[3]: «إنَّ حضارة العرب المسلمين قد أدخلتْ الأمم الأوروبية الوحشيَّة في عالَم الإنسـانية؛ فلقد كان العربُ أساتذتنا .. وإنَّ جامعات الغرب لَمْ تَعْرِف لهـا مورداً علمياً سـوى مؤلَّفات العرب، فهُم الذين مَدَّنُـوا أوروبا مادَّةً وعقلاً وأخلاقاً، والتاريـخ لا يعرف أُمَّـة أنتجتْ ما أنتجوه .. إنَّ أوروبا مَدِينَـة للعربِ بحضارتها .. وإنَّ العـربَ هـو أَوَّل مَنْ عَلَّم العـالَمَ كيف تتَّفِقُ حُرِّيَّة الفكر مع اسـتقامةِ الدِّين .. فَهُم الذين علَّموا الشعوب النصرانية، وإنْ شئتَ فَقُلْ: حاولوا أنْ يُعَلِّمُوها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسـان .. ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأُولَى أرقَى كثيراً من أخلاقِ أُمَمِ الأرضِ قاطبةً»[4].

ويقـول رئيـس وزراء الهند **جواهر لال نهـرو**[5]: «إنَّ دخول الغُـزاة الذين جاءوا من شـمال غرب الهند، ودخول الإسـلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند؛ إنَّه قد فضحَ الفسـاد الذي كان قد انتشرَ في المجتمع الهندوكي، إنَّه قد أَظْهَرَ انقسـام الطبقات واللَّمس المنبوذ، وحب الاعتزال عن العالَم الذي كانت تعيش فيه الهند.

إنَّ نظرية الأُخوَّة الإسلاميَّة والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها، ويعيشون فيها، أَثَّرَتْ في أذهانِ الهندوس تأثيراً عميقاً، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤساء الذي حَرَّمَ

1_ Robert Briffault (1876 – 1948 A.D.).

٢_ ربحتُ محمداً ولم أخسر المسيح لعبدالمعطي الدالاتي: ١٢٨.

3_ Gustave Le Bon (1841 – 1931 A.D.).

٤_ حضارة العرب: الصفحات: ٢٦، ٢٧٦، ٤٣٠، ٥٦٦.

5_ Jawaharlal Nehru (1889 – 1964 A.D.).

عليهم المجتمع الهندي المساواة والتمتُّع بالحقوق الإنسانية»[1].

ونختم بما ذكره البروفيسور **هوكينج**[2]: «إنَّ الشغفَ بالعلم والتعطُّش الدائم لارتياد مناهله، صفاتٌ امتازَ بها هؤلاء العرب؛ وهي التي تمدُّ عبقريَّاتهم بالقوَّة المبدعة الخلاقَة؛ يعشقونَ الحريَّة ويتطلَّعونَ دوماً إلى المُثُلِ العليا بدون تعصُّبٍ ولا تَزَمُّتٍ .. ولسوف نرى عندما تزول اللَّفحة المحرقة التي أصابت العرب وخدَّرت نفوسهم، أنَّ عناصرَ الثروة العلمية الكامنة، والشجاعة الفكرية الخابية، سوف تنطلقُ من عِقَالِها، وتتحرَّر من أَسْرِهَا؛ ليعودوا سريعاً لاحتلالِ مكانتهم على الأرض، والدليلُ على قولي: هو ما كان مِن انطلاقةِ العرب سريعاً في نهضتهم الأولى، وما تركوه للأجيال من تراثٍ علميٍّ وآثارٍ خالدة»[3].

١_ نقلاً عن كتاب: ماذا خسر العالَمَ بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي: ١٠٧.

2_ Stephen William Hawking (1942 – 2018 A.D.).

٣_ تطور الفكر العلمي عند المسلمين لمحمد الصادق عفيفي: ١٩.

المناظرة في التراث الإسلاميّ

ماهيَّة المناظرة

جاءَ اشتقاق مصطلح المناظرةِ من المادَّة اللغويَّة (نَ، ظَ، رَ)، ولذا فإنَّ «كلَّ مناظرةٍ (نَظَر)، وإنْ كانَ ليسَ كلَّ نَظَرٍ مناظرة، فالمناظرةُ مفاعلةٌ من النَّظَر، وهو نَظَرٌ بين اثنين»[٤]، فالمفاعلةُ تتضمَّن تفاعلاً بين طرفين، وتبادلاً في التأثيرِ بينهما.

يُشير د. علي السَّند إلى أنَّ النَّظَرَ في اللغةِ، والذي جاءَ منه مصطلحُ المناظرة، له عدَّة معانٍ، منها:

• النَّظَرُ بالعقل، فهو «تقليبُ البَصَرِ والبَصيرةِ لإدراكِ الشيءِ ورُؤيتِه، وقد يُرادُ به التأمُّلُ والفَحْصُ، وقد يُرادُ به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفحصِ، وهو الرَّوِيَّةُ، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[٥] أي: تَأَمَّلُوا»[٦]، وهذا المعنى لَصِيقٌ بالمناظرةِ التي لا تتمُّ دون النظرِ في الأدلَّة وتأمُّل في الحُجَج.

• كما تأتي المناظرة من النَّظَر بمعنى الإبصار بالعين؛ «لأنَّ كلاً من الخصمين ناظرٌ للآخر»[٧]، ويُؤيِّده قول الرَّاغب الأصفهاني: واسْتِعْمَالُ النَّظَرِ في البَصِرَ أكثرُ عندَ العامَّةِ، وفي البَصيرَةِ أكثرُ عندَ الخاصَّةِ»[٨].

٤_ الكافية في الجدل للجُويني: ١٩.

٥_ سورة يونس: ١٠١.

٦_ مفردات ألفاظ القرآن: ٦٤٢.

٧_ فن آداب البحث والمناظرة لهارون عبدالرَّازِق: ١٤.

٨_ مفردات ألفاظ القرآن: ٦٤٢.

ومِن هذا المعنَى: أخَذَ علماءُ المناظرةِ أحدَ الآدابِ الواجبِ رِعايتُها عند عملية التَّناظُر؛ وهي عدم الإعراض عن الخصم، والحرص على النَّظَرِ إليه قَدْرَ المُستَطاع.

• وقد تأتي المناظرة من النَّظَر بمعنَى الانتظار؛ «يقالُ: نَظَرْتُهُ وَانْتظَرْتُهُ وَأَنْظَرْتُهُ، أي: أَخَّرْتُهُ»[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[2]، وفي حديثِ أنس ﷺ: «انْتَظَرْنَا النبيَّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، حتَّى كانَ شَطْرُ اللَّيْلِ»[3]، ومنه قَول عَمْرو بن كُلثُوم:

أَبَا هِنْدٍ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليَقِينَا

ومِن هذا المعنَى: أخَذَ علماءُ المناظرة ضرورة الانتظار عند عرض الخصم للحجج والأدلَّة، وعدم مقاطعته.

• والمناظرةُ قد تكونُ مأخوذةً من النَّظَرِ بمعنَى النَّظِير: المَثِيل[4]؛ «لأنَّ كلًا منهما نَظِيرٌ للآخر»[5]، «والمُنَاظِر: المِثْلُ والشَّبِيه في كلِّ شَيْء، يقالُ: فلانٌ نظيرك، أي مثلك، لأنَّه إذا نَظَرَ إليهما النَّاظِرُ رآهُما سَواءً.

وَنَاظَرَهُ: صَارَ نَظِيرًا لَهُ في المخاطبة، وَنَاظَرَ فُلاناً بفلان: جَعَلَهُ نَظِيره، ومنه قول الزُّهْرِيّ مُحَمَّد بن شِهَاب: «لا تُنَاظِر بِكِتابِ الله ولا بِكَلامِ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ أَبو عُبَيد: «أَي لا تَجْعَل شَيئاً نَظيراً لَهُمَا»[6].

١_ نفس المصدر السابق.

٢_ سورة الحديد: ١٣.

٣_ صحيح البخاري (٦٠٠).

٤_ مفردات ألفاظ القرآن: ٦٤٣.

٥_ فن آداب البحث والمناظرة: ١٤.

٦_ تاج العروس للزَّبيدي: ١٤/ ٢٤٩ – ٢٥٢.

ومِـن هذا المعنَـى: وَضَعَ العلماء شرطـاً للمتناظِرَيْنِ؛ وهو أنْ يكونـا نَظِيرَيْنِ في العِلْمِ والفَهْم، فلا يُنَاظِرِ العَالِمُ الجَاهِلَ.

فخُلاصَـة مـا جاءَ في المعنَى اللغـويّ للمناظرة أنَّها مأخوذةٌ مِـن النَّظَر بالبَصيرة، أو البَـصَر، أو مِن الانتظار، بمعنَى التمهل والتوقف، أو مِنَ النَّظِير بمعنَى المثيل أو الشَّـبيه، ولا تخلـو هـذه المعاني اللغوية من ارتباطٍ بينها وبين المعنَى الاصطلاحي، فلم يخرج علماء المناظـرة في حديثهـم تأصيلهـم لهذا عـن هذه المعـاني اللغوية، فقد ذكـروا أنَّ مِن شروطِ المناظـرة أنْ يكـونَ الطرفانِ نظيران، كما ذكروا أنَّ مِن آدابها أنْ ينظرَ كلُّ طرفٍ إلى الطرفِ الآخر فلا يُعْرِض عنه بوجهه، وينتظره كي يسمع حُجَّتَه ودليله.

ومِـن هنا يمكن تعريف المناظرة باعتبارها ممارسـة عامة بأنَّها: مراجعةٌ في الكلامِ بين طرفينِ مختلفين، يسـعَى كلٌّ منهما لتصحيحِ قولِه، وإبطالِ قولِ الآخر، مع رغبةِ كلٍّ منهما في ظهورِ الحقِّ[1].

بدايات المناظرة في الإسلام

لَمَّا كانت المناظرة هي محكُّ لعقولِ الرِّجال، وبها يصل الباحث عن الحقِّ إلى مبتغاه، ولها أهميةٌ بالغةٌ في تدريب طالبِ العلم على المُحَاجَجَةِ، ومعرفةِ مسالكِ العلماء في الاستدلال، وتنمية المَلَكَة الفقهية؛ اسـتوجب ذلك كله الرجوع إلى منابت تراثنا الإسـلامي الأصيل لاستكناهِ الحكمة في هذا الفعل.

يُشـير د. عـلي السَّـند إلى أنَّ علم المناظـرة لم يكن غريباً على الثقافةِ الإسـلاميَّة، حيث كانت المناظرة كممارسـة عملية حاضرة منذ بدايات تشـكُّل الثقافة الإسـلاميَّة، وتحديداً مـع نـزول الوحي، حيث فجَّر الوحيُ الجـدلَ حول العديدِ من القضايا التي كانت شـبه

١ـ مقدمات حول المناظرة في التراث الإسلامي، د. علي السند، الموقع الإلكتروني لـ «مركز مناظرات قطر»، ١٧ أبريل ٢٠٢٢م.

مستقرة في الثقافة العربية، مِمَّا أدى إلى نشوء حالة من الجدلِ والنقاش والحوار والمناظرة، وكل أشكال تداوُل الحجج والأدلة بمختلف أشكالها، وحول قضايا مصيرية ووجودية تتعلق بما وراء المادة؛ كالتوحيد، والرسالة، واليوم الآخر، وقد سجَّل القرآن الكريم العديد من هذه الحوارات، ناقلاً الحجج، والحجج المضادَة بكل موضوعيَّة.

وهذا لا يعني أنَّ العربَ والمسلمين عرفوا المناظرة كعلمٍ له قواعد وأصول منهجيَّة كما عرفته اليونان وتحديداً أفلاطون – الذي أعطى الجدلَ قيمةً عاليةً في فلسفته، حيث جعله محورَ الفلسفة وأداتها الرئيسية، والطريق الموصِّل إلى العلمِ الكلي، وإلى معرفة المُثُل والماهيَّات الحقيقية للأشياء، وجَعَلَ الجدلَ يقابل نظرية المعرفة التي تشغل حيِّزاً كبيراً من الفلسفة – وإنَّما عرفوه كممارسة راسخة في ثقافتهم، تتجلَّى في منتدياتهم، وأشعارهم، وأسواقهم، وخُطَبِهم، كما تتجلَّى في نصوص القرآن الكريم الذي واجَهَ حُجَج أدلَّةِ المخالفين، كما نقل محاورات ومجادلات الأنبياء مع أقوامهم، وقد تجلَّتْ فيما بعد في مجالس الخلفاء الذين كانوا يعقِدونَ لها مجالس خاصَّة يُدعَى لها الفلاسفة والفقهاء والمتكلِّمون والمحدِّثون والشعراء، فيما يشبه الرعاية الرسميَّة للمناظرة من قِبَلِ الدولة[1].

مِن الخطابَة إلى المُناظرة

يُعتبر فنّ الخطابة عند العرب هو الممهِّد والمُعبِّد لطريق فنِّ المناظرة عبر سلسلةٍ مِنَ المراحل؛ وبما أنَّ جذور هذا الفن متأصِّلةً في الأدبِ العربيّ فلابدَّ مِن نبذةٍ موجزة عن تطوُّره عبر العصورِ الإسلاميَّة وصولاً إلى العصرِ العباسيّ الذي شَهِدَ حياة الإمام الشافعيّ ﷺ.

يُشير د. عبداللطيف سلامي[2] إلى أنَّ الشِّعرَ عند العرب في العصر الجاهلّي كان أكثرَ ازدهاراً وشيوعاً من الخطابة، فقِلَّة الكتابة وندرتها جعلا هذا اللون الأدبيّ يرقَى ويزدهر، بيدَ أنَّ الخطابة أيضاً نالتْ حظَّها مِنَ الاهتمام آنذاك، فكانت مرآةً تعكسُ واقع الحياة

١ــ نفس المصدر السابق.

٢ــ مدير مركز البحوث التربوية بجامعة قطر.

الطبيعيَّـة والاجتماعيَّـة لسـكَّانِ الجزيرة العربيَّة، وقد كان الشُّـعراء والبُلغـاء فخر القبيلة ومجدهـا وعزَّهـا يحظونَ باحـترامٍ وتقديرٍ بالِغَين بـين أقوامهم، وكانت العـرب تختار مَن هو أبلغُ لساناً وأقوى بياناً، وأقوى مقدرةً على الكلام المرتجَل حتى يتحدث باسمها. لقد تأثَّرت الخطابة في عصر الجاهلية بعاملين أساسيين:

- **البيئة الصحراوية** وحياة الترحال والفروسيَّة والبطولة.
- **البيئة الاجتماعية** التي أثَّرتْ على نمطِ عيش البدو الرحَّل وأعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم، ومـا يحيطُ بالأمَّة من نُظـمٍ اجتماعية وقوانين القبيلة، وعُرف النَّـاس كان له الأثر الكبير.

ولأنَّ الخطابـة عند أهل الجاهلية دارت في نطاق البيئة الصحراويَّة التي نشـأت فيها، فإنَّهـا تناولـت أنواعاً مختلفة مـن الموضوعات البيئيَّـة والثقافيَّة والاجتماعيَّة والسياسـيَّة، فكانت تجسِّـد تعصُّب العربيّ لقبيلته وفخره بنفسِه وقبيلتِه وقومِه، وكانت وسيلةً للتعبيرِ عن البطولةِ والفروسـيَّة، فبـاتَ الخطباء يلقونها للتحريضِ على القتـالِ أو للأخذِ بالثأر، والحـضِّ على الدفـاع والذَّود عن مصالح القبيلـة، وكانت أحياناً خطابـة من الدعوة إلى الصُّلح وإرسـاء السلام، ومدح القبيلة، كما اسـتخدمها بعض الخطباء للتفاخر والتباهي والحسـب والنسـب والجاه والمال، أو التهنئة والتعزية، أو إصلاح ذات البَيْن ولَمِّ الشَّمل، أو تعداد مناقب الأموات .. إلخ.

الخطابةُ في فجرِ الإسلام

على غِرَارِ العصرِ الجاهليّ، شَهِدَ عصر فجر الإسلام ازدهارَ الخطابةِ ونموها وتطورها، وينبع ذلك مِن كونِها الأداةَ الفعَّالة التي استخدمها الأنبياءُ والرُّسل في تبليغِ دعواتهم ونشر رسـالاتهم، بالإضافـة إلى كونِها ارتبطت بالدعوة إلى الدِّينِ الإسـلاميِّ الحنيف، واعتمادها أساليب البلاغة والحُجَّة والبرهان المقتبسة مِنَ القرآن الكريم والسَّنَّة النبويَّة الشريفة.

ونظراً لأهمية هذا الفنّ وأثره البالغ في الاستمالة والتأثير والإقناع، احتلت الخطابة مرتبةً

متقدمةً بين الفنون النثرية الأخرى، ويرجع هذا الازدهار إلى أنَّ المسلمين استخدموها وسيلةً للتبليغ وإعلان تعاليم الإسلام وقيَمه ومُثُله وآدابه، وبالنظر إلى أنواع الخطابة في عصر فجر الإسلام فإنَّنا نجد أنَّ الأنواع السائدة آنذاك هي الخطب الدينية، والسياسية، والحربية.

الخطابة في العصر الأموي

لقد نالت الخطابة في العصر الأموي حظًّا وافراً من الازدهار والنضج إلى درجة أنَّ عدداً من الباحثين يقولون إنَّ فنَّ الخطابة لم يبلغ في أيِّ عصرٍ من العصور ما بلغه في العصر الأموي من النماء والرقي، ولم تكن الخطابة الأموية تختلفُ كثيراً عن نظيراتها اللاتي سبقتها في صدر الإسلام من حيث الشكل والمضمون؛ فاقتبست سمات الخطابة التي سادت في فجر الإسلام، ومن ذلك ارتباطها بالدعوة إلى الإسلام، والاستدلال بالقرآن الكريم والسنة النبوية، واعتماد أساليب البلاغة والحُجَّة والدليل، ونجد أنَّ أنواع الخطابة التي سادت خلال هذا العصر هي ذاتها التي كانت سائدةً من قبل في عصر صدر الإسلام.

وحين امتدت الفتوحات الإسلامية واختلطَ المسلمون بغيرهم ممن اعتنقوا الديانات الأخرى وما تحمله من عقائد وثقافات؛ اصطدمَ الدين الإسلامي بتلك الديانات، مما أدَّى إلى نشوء جدلٍ واسعٍ بين الإسلام وبين تلك الديانات. فقد ظهر علمُ الكلام كمحاولةٍ لمواجهة التحديات التي فرَضها البَون الشاسع بين العقيدة الإسلامية والفلسفة اليونانية، وكذلك الاحتكاك بالديانات القديمة التي كانت موجودة في بلاد الرافدين على وجه التحديد، فكانَ ردُّ فعلِ الفِرَق الكلامية السَّعْيُ إلى تطهير المجتمع الإسلامي من جميع صور الجدل حول العقيدة وما اعتبره المسلمون بدعاً من قِبَلِ بعض معاصريهم. وعموماً كان الهدف الرئيس هو الدفاع عن العقائد الدينية بإقامة الأدلة العقلية والحجج المنطقية.

ومِن العوامل التي ساعدت على تطور الخطابة في العصر الأموي: ظهور أوائل الفِرَق الدينية والكلامية؛ فقد شهد العصر الأموي بروز فرق كلامية اتخذت البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلةً في محاججة خصومها، ومن هذه الفِرَق: المرجئة والمعتزلة والأشعرية

والجبرية والماتريدية والصوفية والقدرية والإمامية والزيدية والإسماعيلية، وغيرها.

ويُعتبر ما اصطُلح على تسميته بعلمِ الكلام من قِبَل بعض العلماء والباحثين البدايات الأولى لنشأة «الفلسفة الإسلامية»، ومِن أشهر الخطباء الأمويين: معاوية بن أبي سفيان، وعبدالملك بن مروان، والحَجَّاج بن يوسف الثَّقفي.

ومع ظهور علم الكلام – الذي أسَّس لتطورِ الفكر العربي والإسلامي – تجلَّتِ الحاجةُ إلى تعليم أتباع كل فرقة أصول الخطابة ووسائل الإقناع، وتدريبهم على محاجَّة خصومهم بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية، وقد أفرزَ علم الكلام عديداً من الاتجاهات والمدارس الفكريَّة التي تعاملت مع الجدل الدائر بين العقل والنَّقل على أسسٍ ومناهج متباينة ومتعارضة أحياناً، وبلغت هذه المناهج أوجَها في مواقف أبرز الفرق الكلامية في ذلك العهد: أي المعتزلة والأشاعرة الذين طالما اختلفوا حول إشكالية أولوية العقل والنَّقل.

بهذا يكون علم الكلام قد أسَّس لقيام منهج جديد هو فن المناظرة الذي يُعتبر بحق أرقى أساليب الخطابة التي تستندُ إلى أصول المنطق، وقوة الجدل، والمحاجَّة بالأدلة العقلية والحجج المنطقية، ومِن ثَمَّ ارتقى هذا الفن الذي لم يكن مألوفاً من قبل عند العرب.

وفي مقدمة الألوان الخطابية التي ازدهرت آنذاك الخطابة الدينية؛ فقد ظهرت في ذلك العصر حركة الزهد التي انصَبَّت على الوعظ والنصح، ويُضاف إليها أنواعٌ أخرى من الخطابة الدينية من خطب المساجد والأعياد وغيرها. وازدهرت كذلك الخطابة السياسية إذ ساعدت جملة من العوامل على شيوعها، ومن ذلك الصراع على الحكم والنزاع بين الأحزاب السياسية المختلفة، بالإضافة إلى الفتوحات الإسلامية التي بلغت أوجَها في عصر بني أميَّة حيث ظهرت الخُطب الحربية. أمَّا النمط الثالث من الخطابة الذي راجَ آنذاك فهو الخطابة المحفليَّة التي كانت تُلازم المحافل والمناسبات الاجتماعية كمجالس المفاخرة والتهنئة والتعزية والتكريم وغيرها.

الخطابة في العصر العباسي

بعد الاحتكاك بحضاراتٍ أجنبيةٍ والاتصالِ بثقافاتِ أممٍ أخرى كالفارسية والهندية واليونانية، كان لِفَنِّ النثرِ شأنٌ كبيرٌ في العصر العباسي، وازدهرَ ازدهاراً كبيراً ونافس الشعر، حيث كثرت الكتابة والتأليف، وتطوَّرت الفلسفة والفكر الإسلامي، وازدهرت العلوم اللغوية أيضاً، ومن مظاهر تطوُّر النثر أن اتَّسعت موضوعاته وتعدَّدت ألوانه، وظهرت تيَّارات متعددة للنثر، فظهر النثر العلمي، والنثر الفلسفي، والنثر الأدبي، والنثر التاريخي.

ومن الألوان النثرية التي بلغت أوجَ ازدهارها في العصر العباسي: فنُّ الخطابة الذي بلغ ذروة نموه وازدهاره، وكان لظهور الفِرَق الكلامية – خصوصاً المعتزلة – أثرٌ بالغٌ في رُقِي فن الخطابة، كما قام العرب بترجمة مؤلَّفات غيرهم من كتب الفلسفة والمنطق والخطابة إلى اللغة العربية، ومن الكتب التي تُرجمت في هذا العصر: كتاب الخطابة لـ «أرسطو».

شَهِدَ هذا العصر بدوره ألوان الخطابة التي كانت رائجةً في صدر الإسلام والعصر الأموي بعده، خصوصاً في عهد الخليفة هارون الرشيد. وأدى ازدهار مجالات الحياة الفكرية والعلمية والسياسية والاجتماعية والدينية إلى تطوُّر فن الخطابة وفنون نثرية أخرى، ومن أنماط الخطابة التي كانت شائعةً في ذلك العصر: الخطابة السياسية، والخطابة القضائية، والخطابة الحربية، والخطابة المحفلية، والخطابة الدينية، بالإضافة إلى خطب التأبين، وخطب المدح والشكر، وخطب التحريض، وخطب الإصلاح، هذا ومن أهم العوامل التي ساهمت في نُمو فنِّ الخطابة ورُقيه ما يلي:

- اتساع رقعة الدولة العباسية وكثرة الفتن والثورات الداخلية والحروب والغزوات.
- احتكاك العرب بالثقافات اليونانية والفارسية والهندية.
- الاهتمام بعلوم تفسير القرآن الكريم وجمع الحديث الشريف وتوثيق رواياته.
- الاهتمام بعلوم اللغة.
- قيام المذاهب الفقهية.

• ازدهار حركة الترجمة والتأليف والتدوين حيث شملت مختلف العلوم والفنون.
• ظهور الزنادقة وما تطلَّبه ذلك من وجود الخطب الدينية للردِّ عليهم.

غير أنَّ الخطابة قد ضعُفت في مرحلةٍ لاحقةٍ من العصر العباسي؛ وذلك بسبب تفتُّتِ الدولـة وقلَّـة اهتمامها بهذا النوع من النثر – على غِرَار الألوان الأدبية الأخرى – إثر تولِّي الفرس والأتراك أمور الحكم بالدولة العباسية.

الجديـر بالذكـر أنَّ ازدهار فن الخطابة في العصر العباسي، قـد أدى بدوره إلى ازدهار فـن المناظرة الـذي أصبحَ من أهمِّ الفنون النثرية التي كانت محـلَّ إعجابٍ، ونالت تقديرَ الكثيرين على اختلاف طبقاتهم، إذ احتدمت المجادلات الكلامية الواقعة بين الفلاسـفة والمفكرين والعلماء والفقهاء على اختلاف توجُّهاتهم في مختلف القضايا العلمية والمذهبية، وكانـت هذه المناظرات تتمُّ في إطارِ حلقاتٍ علميةٍ مختلفة، تنوَّعت مع تنوُّع فروعِ المعرفةِ المختلفة، كما كانت تتَّخذ صبغة المناقشـات والحوارات المستفيضة؛ فكانت هناك حلقات للفقهاء والفلاسفة والمفسرين والشعراء والقصَّاص وأهل اللغة، وغيرهم[1].

أركان المناظرة

يرى جمهور أهل البحث والمناظرة بأنَّ للمُناظرةِ رُكنينِ أساسيَّينِ، هُما:

١. الموضوع أو المسألة التي تجري حولها المناظرة.

٢. الشـخصان أو الفريقـان المتناظران، أو المتحاوران حول موضـوع المناظرة، وهما: مُدَّع أو نَاقِل خَبَر، والآخر: مُعتَرِض.

ويسمَّى الشخص الذي يتولَّى وظيفة الجواب والدِّفاع بـ «**المُعَلِّل**»، أمَّا الشخص الذي يتولَّى وظيفة الاعتراض والهجوم، فيُسمَّى بـ «**السَّائِل**»، وأضافَ بعضُهم رُكنَين آخرين:

٣. الحَكَم، أو الحُكَّام مِن أهلِ العِلمِ والخبرة في موضوع المُناظرة.

٤. جمهور المستمعين، أو المشاهدين، أو القُرَّاء.

---

١ ـ المدخل إلى فن المناظرة لعبداللطيف سلامي: ٤٦.

آداب البحث والمناظرة

بعد الحديث عن التسلسل التاريخي المؤدِّي إلى ظهور المناظرة في السياق الإسلامي، نأتي إلى التطرُّق لخصوصية المناظرة في الإسلام؛ والتي هي وسيلةٌ للوصول إلى الحقِّ وتثبيته في حدود ما اصطلحَ عليه العلماء باسم «**آداب البحث والمناظرة**»، وهو العلم الذي يَقدِر به مَن تعلَّمه على بيانِ مواضعِ الغلط في حُجَّة خصمه، وعلى تصحيح مذهبه بإقامة الدليل المقنع على صحته، أو صحة ملزومه، أو بطلان نقيضه، ونحو ذلك[1].

يُعتبر عِلم المناظرة أحد علوم الوسائل التي يُتوصَّل بها إلى علوم المقاصد والغايات، ويرى د. رجب شنتورك[2] أنَّ هذا العِلم قد مرَّ بعدَّة مراحل تاريخيَّة، وكان لكلِّ مرحلةٍ منها بعض الكُتُب والمُتُون التي تمثِّلها أحسنَ تمثيل، وهذه المراحل هي:

عِلم الخِلاف ← عِلم الجَدَل ← عِلم المناظرة

وقد ظلَّت مرحلة علم المناظرة قائمةً لفترةٍ طويلةٍ مِن الزمن؛ وذلك نظراً لاعتمادِ هذا العِلم على الأخلاق الإسلاميَّة المستمدة مِنَ الآياتِ القرآنيَّة والأحاديثِ النبويَّة، ولاعتماده أيضاً على عِلمِ المنطق الذي يربط أدلَّة أطراف المناظرة بالأصول المنطقيَّة، فلم يكن غريباً أنْ يبتدئ العلماءُ بتدريسِ بعض المقدِّمات المنطقيَّة قبل الدخول إلى عِلمِ المناظرة وآدابها، وبذلك أصبحت السلامة المنطقيَّة والنَّزاهَة الأخلاقيَّة مِن أهمِّ متطلبات المناظرة.

كانت آداب البحث والمناظرة ضمن المقرَّرات الدراسيَّة التي يُلزم بها الطلبة حتى عهدٍ قريب، وفي هذا السياق يُشير د. شنتورك إلى أحد أهمِّ الكُتُب المعتمَدة في أواخر الدولة العثمانيَّة، وهو كتاب «**جامع المتون الدراسية**» لأحد أواخر العلماء العثمانيين وهو

١ـ آداب البحث والمناظرة للشنقيطي: ٤.

٢ـ عميد كلية الدراسات الإسلامية، جامعة حمد بن خليفة، قطر.

الشيخ **محمَّد أمين آر المِيرَاني** (١٩٠٩ – ٢٠١٣م)، وقد ألَّفه نُزُولاً على رغبة طلبته في جمع تلك المتون العلميَّة التي كان يُدرِّسُهُم إياها في كتابٍ واحد ليسهُل الاستفادةَ منها، فكان هذا الكتاب الذي جمعَ فيه مؤلِّفه اثنتي عشر مَتناً علمياً، منهم متنٌ لآداب المناظرة وآخر للمنطق، ويُستفادُ مِن ذلك أنَّ آداب البحث المناظرة كانت أحد المقرَّرات الدراسيَّة الإلزاميَّة على الطلبة في هذه الفترة.

بعد ذلك تأتي مرحلة التخلِّي عن المناظرة واستبدالها حديثاً بثقافة الجَدَل المستمدة مِن الغرب في عصر «**ما بعد الحداثَة**»، والمرجو أن تكون المرحلة الخامسة هي إعادة إحياء المناظرة المنضبطة بالأخلاق الإسلاميَّة، مع الأخذ بالآليَّات الحديثة للمناظرةِ في السِّياق المعاصر[1].

بين عِلم المناظرة وعِلم الخِلاف والجَدَل

عند الحديث عن المناظرةِ كعِلمٍ في التراثِ الإسلاميّ، لابدَّ مِنَ التفريق بينها وبين عِلمَي الخِلاف والجَدَل القائمَين على تحقيقِ الغَلَبَة؛ وفي هذا السياق يُشير د. مُعتز الخطيب إلى أنَّ ثَمَّةَ مَن ميَّز بين هذين العِلْمِين سواءٌ لجهة موضوع كلِّ عِلمٍ والغرض منه، أم لجهةِ طبيعة المصنَّفات فيهما؛ لإثبات الفرق بينهما.

فمِن الجهة الأولى – وهي موضوع العِلم – ثَمَّة مَن ميَّز بين العِلمينِ بالنظر إلى الواجِبَيْن المعرفيّ والأخلاقيّ، ويمكن التعبير عن ذلك الفرق بأنَّ المناظرة "**عِلمٌ**»، بينما الخلاف والجدل «**فَنٌّ**»، فموضوع المناظرة أحوالُ المتناظرين؛ ليكون ترتيب البحث بينهما على وجه الصَّواب، بحيث يحقَّق الإنصاف لكليهما، ويقودُ إلى طلبِ الحقِّ عبر منهجٍ متَّسق؛ لأنَّ مقصود المناظرة إظهار الصَّواب على لسان أحد المتناظرين.

في المقابل، عُرِّف عِلم الخِلاف والجَدَل بأنَّه «**علمٌ يُقتدرُ به عَلَى حِفظِ أَيِّ وَضعٍ كَان،**

1_ Keynote Speech from Dr. Recep Şentürk on the Debate In Islamic Tradition Theme, Session Title: "Munazara: Why Recover the forgotten Islamic Discipline of Debate?", 29 May 2023, ICDD (Doha, Qatar).

وَهَـدمِ أَيِّ وَضعٍ كَان»، أي أنَّه فـنٌّ يتصلُ بتقنيات النقد وكيفية تحقيق النصر والغَلَبَة على الخصم، بغضِّ النظر عن حقيقة الموقف المعرفيّ أو الأخلاقيّ. والجدلُ – في الأصل – مِن مباحـثِ عِلـمِ المنطق، ثـمَّ خُصَّ بالعلوم الدينيَّة بعد أن اشـتغلَ بـه المتشرِّعة وأدخلوه في علومهـم، فمقصودُ عِلمِ الخِلاف والجَدَل إلـزامُ الخصم بالحُجَّة، وصيانة المذهب عن أنْ يتطـرَّق إليه نقـدٌ أو خَلَل؛ للمحافظةِ على صلابة حُجَجِه وتماسُـك موقفه، وهدم حُجَج الخصـوم أيضاً، ومثل هذا كان يُستعمل في الخلافيَّات بين المذاهـب الكلاميَّة والفقهيَّة، حتَّـى إنَّ أبـا القاسـم البَلْخِـي المعتزلي صنَّف كتابـاً في نَقدِ الأخبـار ليكونَ عَونـاً لصِغارِ المعتزلة على ردِّ انتقاداتِ خُصُومهم مِن أهلِ الحديث.

وقـد ذهـبَ فريقٌ مِنَ العلماء إلى القول بأنَّ ثَمَّة تداخلاً بين المناظرة من جهة، والجدل والخـلاف من جهـةٍ أخرى؛ لأنَّ المآلَ منهـما واحد، وإنْ كان الجَدَلُ أخـصُّ مِنَ المناظرة، ويبـدو أنَّ المـؤرخ ابن خلـدون (ت: ٨٠٨هـ) يذهب إلى القـول بالتداخُـل؛ لأنَّه قال: الجـدال: معرفةُ آداب المناظرة التي تجري بين أهـل المذاهب الفقهيَّة وغيرهم»، و«لَمَّا كان باب المناظرة في الردِّ والقَبول متَّسِـعاً وكلُّ واحدٍ مِنَ المتناظرين في الاسـتدلال والجواب يرسـلُ عنانـه في الاحتجاج، ومنه ما يكونُ صَواباً ومنه ما يكـونُ خطأً، احتاجَ الأئمة إلى أنْ يضعـوا آداباً وأحكاماً يقـف المتناظران عند حدودها في الـردِّ والقَبول، وكيف يكون حال المستدلِّ والمجيب حيث يسوغ له أن يكونَ مستدلاً، وكيف يكون مخصوماً منقطعاً، ومحلُّ اعتراضه أو معارضته، وأين يجبُ عليه السُّكوت ولخصمه الكلام والاستدلال».

ويـرى د. الخطيـب أنَّ الجدلَ والحِجَاج عنوانٌ عامٌّ يدخـلُ تحته فنونٌ مِنَ الجَدَل، وممَّا يؤكد ذلك أنَّ بعض مَنْ صنَّفوا في هذا جمعوا بين ألفاظ الحِجَاج والمناظرة والجدل في سياقٍ واحد، كما نجد لدى أبي الوليد الباجيّ المالكيّ (ت: ٤٧٤هـ)، وابنُ حَزْم الظَّاهِريّ الأندلسيّ وغيرهما[١].

وقـد عقَـدَ ابنُ حزم فصلاً في «التقريب» عنوَنَه بـ «**باب الكلام في رُتبة الجِدَال وكيفية**

١ـ المناظرة وفنون الجدل الفقهي، د. معتز الخطيب، موقع الجزيرة نت، ٩/ ٦/ ٢٠٢٣م.

المناظرة الموجبين إلى معرفةِ الحقائق»، وفيه أتَى بعددٍ وافرٍ من آداب البحث التي بفضلها تصبح المناظرة «فاضلةً حميدةَ العاقبة، يوشك أنْ تنحلَّ عن خَيرِ مضمون أو آخر موفور، وهي التي أَمَرَ اللهُ بها إذ يقول: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾، وإذ يقولُ تعالَى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾[1]»[2].

بين المناظرة والجَدَل والمكابَرَة

نظراً للتَّشابه الحاصل بين هذه العِبارات، فإنَّه قد يقع بعض اللَّبس في التفريق بينها، وهذا ما دَعا الشيخ مُحَمَّد أبو زُهرة إلى القولِ بأنَّ هذه العبارات الثلاثة تدورُ كثيراً على الألسنة، وأحياناً تُطلق إحداها في موضعِ الأخرى، وفي الحقِّ أنَّ بينها اختلافاً واضحاً في الاصطلاح:

- فالمناظرةُ يكونَ الغرضُ منها الوصولُ إلى الصَّوابِ في الموضوعِ الذي اختلفتْ فيه الأنظار.
- والجَدَلُ يكونُ الغرضُ منه إلزام الخصم، والتغلُّب عليه في مقامِ الاستدلال.
- والمكابرةُ لا يكونُ الغرضُ منها إلزام الخصم، ولا الوصول للحقِّ، بل اجتياز المجلس، والشهرة أو مطلق اللَّجاجَة، أو غير ذلك مِنَ الأغراضِ التي لا تُغنِي في الحقِّ فَتيلاً.

ثمَّ بيَّن أنَّ المناقشةَ الواحدة قد تشتملُ على كلِّ هذه الأنواع الثلاثة؛ فقد يبتدئ المناقِشانِ متناظِرَين طالبينِ للحقِّ، فينقدِحُ في ذِهنِ أحدهما رأيٌ يثبُتُ عليه، ويأخذُ في جَذْبِ خَصمِه إليه، وإلزامِه به، وحينئذٍ تنقلبُ المناظرةُ جَدَلاً، وقد تدفعه اللَّجاجَةُ إلى التعصُّب لرأيه، ويُبدهه خصمه بالدليلِ تلوَ الدليل، فلا يحير جواباً، ومع ذلك يستمرُ في لَجاجَتِه، فينتقلُ الجَدَل إلى مُكابَرَة[3].

١_ سورة النحل: ١٢٥.

٢_ التقريب لابن حزم: ١٨٦.

٣_ تاريخ الجدل: ٥.

المناظرة الفقهيَّة

عند التأمُّل والنظر في جُذُور المناظرة الفقهيَّة التي أذكَى الإمام الشافعيّ جَذوَتَها؛ نجد أنَّ لها تأثُّراً بالمناظرةِ الكلاميَّة التي بدأها المعتزلة مطلع القرن الهجريّ الثاني، معَ الأخذِ في الاعتبار بطبيعة الاختلاف الحادث بين مادَّة النظر في كلتا الحالتين، وهنا يُشير عبدالمجيد تركي إلى أنَّ المناظرات الفقهيَّة قد استفادت مِنَ المناظراتِ الكَلامِيَّة، وذلك على الأقل في مستوى صياغة العرض وإحكام البيان وإقامة الاحتجاج، وكذلك في تبنِّي مواد المنطق اليونانيّ لهذا الغرض، وهذه الاستفادة التي تنبَّه لها المؤرِّخون تبدو جدُّ محتملة، خاصةً إذا اعتبرنا أنَّ ظهور عِلمِ الكَلام قد سبقَ بعقودٍ عديدة ظهور عِلمِ أُصُول الفِقه؛ ذلك أنَّ الرَّعيلَ الأول مِنَ المعتزلة واضعي علم الكلام يرجع عهدهم إلى مطلع القرن الثاني للهجرة، بينما ينبغي لنا انتظار الشافعيّ المتوفي في ٢٠٤هـ لكي نشهدَ الصياغة النهائيَّة لأصول الفقه، وبالتالي لظهور عِلمِ الخِلاف التشريعيّ[١].

مادَّة المناظرة الفقهيَّة

عند إنعام النظر في الجَدَل الفقهيّ الذي هو مادَّة المناظرة الفقهيَّة؛ نجد أنَّه قد تأسَّس على مسائل خِلافِيَّة اصطلحوا عليها في هذا المقام بـ «**الخِلافِيَّات**»، وهو ما يُعرف اليوم بعِلمِ (الفِقهِ المُقَارَن).

وقد يبدو ببادئ الرأي أنَّ هذه الخلافيَّات مجرَّد مسائل فرعيَّة لا تستوجبُ نقاشاً ولا يتأسَّس عليها شيء، والحقيقة أنَّها في مجال الجَدَل مطالبُ يُستدلُّ عليها ويُجادل فيها عن مذاهِبِها الفقهيَّة، فكانت مسائلُها بذلك المنطلَق وأحكامُها المنتهَى[٢].

فبذلك أصبحت هذه الخلافيَّات بمثابة الوقود الذي أشعلَ فَتيل المناظرة الفقهيَّة، وفي هذا السياق يقولُ العلامة ابن خلدون: «وأمَّا الخلافيَّات، فاعْلم أنَّ هذا الفِقهَ المستنبط

١ـ مقدمة عبدالمجيد تركي لتحقيق «كتاب المنهاج في ترتيب الحِجَاج» لأبي الوليد الباجي، صفحة: ٥.
٢ـ المناظرة الفقهية: ٤٧.

مِنَ الأدلَّةِ الشرعيَّة كَثُرَ فيه الخِلاف بين المجتهدين باختلافِ مدارِكِهم وأنظارهم، واتَّسعَ ذلك في المِلَّةِ اتِّساعاً عظيماً، وكان للمقلِّدين أنْ يقلِّدوا مَنْ شاؤوا منهم، ثمَّ لَمَّا انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة مِن علماء الأمصَار، وكانوا بمكانٍ من حُسْنِ الظَّنِّ بهم، اقتصرَ النَّاسُ على تقليدهم ومنعوا مِن تقليدِ سواهم لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعُّب العلوم التي هي مواده باتصالِ الزَّمان وافتقاد مَن يقومُ على سوى هذه المذاهب الأربعة، فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصولَ المِلَّة وأُجرِيَ الخلاف بين المتمسِّكين بها والآخذينَ بأحكامها مجرَى الخلاف في النصوصِ الشرعيَّة والأصول الفقهيَّة»[1].

ويُؤكِّد عبدالمجيد تركي على أنَّه إذا ما وصلنا إلى الجَدَل ألفينا أنَّ كلَّ ما قيل في الخلافيات يصحُّ فيه مع فارق بينهما في مادتهما؛ إذ الخلافيَّات تتعلَّق بفروع الفقه، بينما يمسُّ الجَدَلُ أصوله[2].

كما يُشير الباحث خالد ترغي[3] إلى أنَّ التأسيس للجَدَل الفقهيّ ليس بِدعاً مِن لدن الفقهاء أنْ تجادلوا، وليس وقوعاً منهم في المنهيِّ عنه، وليس تقليداً منهم لغيرهم من الجدليين؛ لأنَّ الجَدَل قبل أنْ يكونَ قديماً أو مستحدثاً، إسلامياً أو يونانياً هو مسألةٌ فطريَّة جِبِلِّيَّة، قالَ الحقُّ سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[4]، يقول نَجْم الدِّين الطُّوفي (ت: ٧١٦هـ): «هذا مع أنَّ الجدلَ صناعة تكاد تكون فطريَّة إنْ لم تكن كذلك حقيقةً، فإنَّا نرى العامة بل الصبيان تقعُ بينهم المناظرات على القانونِ الصناعيّ .. لأنَّ

١_ مقدمة ابن خلدون: ٤٥٦ – ٤٥٧.

٢_ مقدمة عبدالمجيد تركي لتحقيق «كتاب المنهاج في ترتيب الحِجَاج» لأبي الوليد الباجي، صفحة: ٨.

٣_ باحث مغربي متخصّص في فقه النوازل، حاصل على إجازة في الاقتصاد والتسيير من جامعة الحسن الثاني سنة ٢٠٠٦م، وعلى إجازة في العلوم الدينية من مؤسسة دار الحديث الحسينية سنة ٢٠١٣م، وعلى ماجستير الدراسات الإسلامية من مؤسسة دار الحديث الحسينية سنة ٢٠١٥م.

٤_ سورة الكهف: ٥٤.

البديهي مِن ذلك مشترك، وزاد العلماء بالنظريَّات التي لا سبيلَ لغيرهم إليها»[1]، فضلًا عن أنَّه قد قامَ الأمرُ القرآنيّ بذلك؛ فقد قالَ سبحانه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[2]، والمقصودُ هنا الوقوف على مشروعيَّة ومعقوليَّة الجَدَل الفقهيّ في تأسُّسِه[3].

وهنا يجب الإشارة إلى أنَّ مادَّة الفقيه المُجادِل تغزُر بحسب اطلاعه على أقوال العلماء والفقهاء من كلِّ المذاهب، أي إنَّ الغَرَضَ مِنَ الاطلاعِ ليس مجرَّد الحفظ أو التقليد؛ ولكنَّ المقصود الكشف عن تعاليل هذه الأقوال وأصولها ووجوه العلماء في التمذهب بِها، ومِن ثَمَّ الوقوفُ على أرجحِها والذبِّ عن أصْوَبِها.

وعند النظر إلى طبيعة الخلاف المؤسِّس للجدلِ الفقهيّ؛ نجد أنَّ الإمام أبي إسحاق الشَّاطِبي (ت: ٧٩٠هـ) كان قد ذَكَرَ في توجيه المعنى المأثور «**اِخْتِلاف الصَّحَابَة والعُلَمَاء رَحْمَة وَسَعَة**»، يقول: «فلـمَّا جَاءَتْهُم [الصَّحَابَة] مواضع الاشتباه؛ وَكَلُوا ما لَم يتعلَّق به عمل إلى عالِمِه على مقتضَى قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[4]، ولمَ يكن لهم بُدٌّ من النظرِ في متعلَّقاتِ الأعمال؛ لأنَّ الشريعة قد كَمُلَتْ، فلا يمكن خُلُو الوقائع عن أحكام الشريعة؛ فتَحَرَّوا أقرب الوجوه عندهم إلى أنَّه المقصودُ الشرعيّ، والفِطَر والأنظار تختلف؛ فوقعَ الاختلافُ مِن هنا لا مِن جهةِ أنَّه مِن مقصودِ الشَّارِع، فلو فرض أنَّ الصَّحَابَة لَم ينظروا في هذه المشتبهات الفرعيَّة، ولم يتكلَّموا فيها .. لم يكُن لِمَنْ بعدهم أنْ يفتحَ ذلك الباب، للأدلَّةِ الدَّالَّة على ذَمِّ الاختلاف»[5].

وهنا يظهر مِن كلامِه ﷺ أنَّ مِعيار نوع الخلافيَّات المؤسِّسة للجَدَل الفقهيّ هو ما كانَ مِنَ الأمور العمليَّة الجزئيَّة التي يتردَّد حُكمها الاجتهاديّ بين طرفين متعارضَين كلاهما مستندٌ إلى

١_ علم الجذل في علم الجدل: ٢٠٩ – ٢١٠.

٢_ سورة النحل: ١٢٥.

٣_ المناظرة الفقهية: ٤٨.

٤_ سورة آل عمران: ٧.

٥_ الموافقات للشاطبي: ٢/ ٤٦٥.

دليلٍ شرعيّ؛ يُسلِّم المخالف بِحُجِّيَّةِ الاستدلال به تأصيلاً، ويُخالف في طريقةِ النظرِ فيه تفريعاً[1].

آفاتُ المناظرة

إذا كانت المناظرةُ هي «المباحَثَةُ والمُبَارَاةُ في النَّظَر، واستحضارُ كلِّ ما يَراهُ بِبَصِيرتِهِ»[2]، فهي تحتملُ أنْ يَعتَريها بعضُ الآفاتِ النفسيَّة التي تَحيدُ بِها عن الطريقِ القَويم، وقد أرجعَ الغزاليّ أخلاق المناظرة المذمومة إلى عشرةِ خِصالٍ يتشعَّب مِن كلِّ واحدةٍ منها خِصالٌ أخرى في نَظرِه.

ويمكن إجمال هذه الخصائص المذمومة كالتالي: الحَسَد، والتَّكَبُّر، والتَّرَفُّع على النَّاس، والنفاق، الاستكبار عن الحق، وكراهته، والحرص على المُمَارَاةِ فيه؛ حتى إنَّ «أبغَضَ شيءٍ إلى المُنَاظِر أنْ يَظهر الحقُّ على لسانِ خصمه، ومهما ظَهَرَ تَشَمَّر لجَحْدِه وإنكاره بأقصَى جهده، وبَذَلَ غايةَ إمكانِه في المخادعة والمَكْر والحِيلَة لِدَفْعِه؛ حتى تصيرَ المُمَارَاة فيه عادةً طبيعيةً؛ فلا يسمعُ كلاماً إلا وينبعثُ من طبعِه داعيةُ الاعتراضِ عليه حتى يغلب ذلك على قلبِه في أدلَّةِ القرآنِ وألفاظِ الشرع، فيضربُ البعضَ منها بالبعض»، ومن أصول الفواحش الباطنة في المناظرة أيضاً: الرياء؛ فالمُنَاظِر لِعِلَّةٍ غير الحق لا يقصد إلا الظهور عند الخلقِ وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه، وقد أرجع د. معتز الخطيب هذه الآفات الخُلُقِيَّة إلى مسألتينِ مركزيَّتَين[3]:

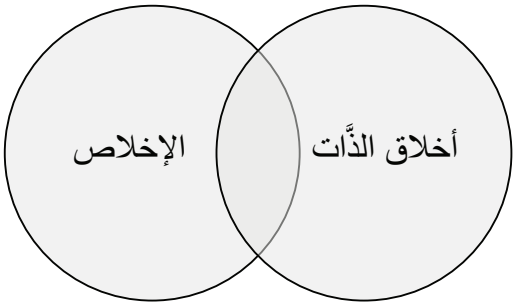

١_ المناظرة الفقهية: ٥١.

٢_ مفردات ألفاظ القرآن: ٦٤٣.

٣_ أخلاقيات المناظرة والحِجَاج (٢)، د. معتز الخطيب، موقع الجزيرة نت، ١٦/ ٦/ ٢٠٢٣م.

أضرار المِراء والجِدال المذمومَين

بعد الحديثِ عن آفات المناظرة التي قد تعتري أحد المتناظِرَين، فيكونُ مِن جَرَّاءِ ذلك أنْ تتحوَّل المناظرة إلى ساحةٍ للمِرَاء والجِدَال المذمومَيْن، يحسُن بنا الحديث عن أبرز الأضرار النَّاتِجَة عن هذا التحوُّل[1]:

حِرمانُ الخَيرِ العظيم

قال الأوزاعيّ رحمه الله: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ شَرًّا أَلْزَمَهُمْ الجَدَل، وَمَنَعَهُمْ العَمَل**»[2]، وقالَ معاويةُ بن قُرَّة رحمه الله: «**إِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الخُصُومَات، فَإِنَّهَا تُحْبِطُ الأَعْمَال**»[3].

حِرمَانُ العِلْم

كان المراءُ والجدال هما السبب في رفع العِلْم بليلةِ القَدْر؛ فَعَن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ يُخْبِرُ بلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلَاحَى رَجُلَانِ مِنَ المُسْلِمِينَ فَقالَ: «**إِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بلَيْلَةِ القَدْرِ، وإنَّه تَلَاحَى فُلَانٌ وفُلَانٌ، فَرُفِعَتْ، وعَسَى أنْ يَكونَ خَيْرًا لَكُمْ، التَمِسُوهَا في السَّبْعِ والتِّسْعِ والخَمْسِ**»[4].

فالحديثُ دليلٌ على أنَّ المخاصمة مذمومة، وأنَّها سببٌ في العقوبة، والحرمان من الخير، وقد كانت هذه الخصومة وهذه المُلاحَاة ورفع الصوتِ في المسجد، وبحضرةِ النبيِّ ﷺ.

١ـ للمزيد من التعرُّف على هذه الأضرار، انظر: محمّد صالِح المنجّد: مفسدات القلوب، الرياض، مجموعة زاد للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م، ص: ٣٣٥ – ٣٣٩.

٢ـ اعتقاد أهل السنة للالكائي: ٢٩٦.

٣ـ نفس المصدر السابق: ٢٢١.

٤ـ صحيح البخاري (٤٩).

هلاكُ الأُمَم

فَعَن أبي هُريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «**دَعُونِي ما تَرَكْتُكُمْ، إنَّما هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ علَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عن شيءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وإذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنهُ ما اسْتَطَعْتُمْ**»[١].

وقال عمر ﷺ لزياد بن حدير: «**هل تعرف ما يهدم الإسلام؟**» قال: لا، قال: «**يهدمُهُ زَلَّةُ العَالِمِ، وجِدَالُ المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلِّين**»[٢].

وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «**إنما هَلَكَ مَنْ كَانَ قبلكم بالمراء، والخصومات في الدين**»[٣].

يورثُ الضَّغائِن وقسوة القلب

قال الشافعيّ: «**المِرَاءُ في العِلمِ يُقَسِّي القَلْب، ويُورِثُ الضَّغَائِن**»[٤].

وقال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «**كَفَى بِكَ ظُلْماً أَنْ لا تَزَال مُخَاصِماً، وَكَفَى بِكَ إِثْماً أَنْ لا تَزَال مُمَارِياً**»[٥].

وقالَ مُحَمَّد بن عَلِي بن الحُسَين ﷺ: «**الخُصُومَةُ تَمْحَق الدِّين، وتُنبِتُ الشَّحْنَاء في صُدُورِ الرِّجَال**»[٦].

١ـ صحيح البخاري (٧٢٨٨).
٢ـ سنن الدارمي (٢١٤)، وصححه الألباني في تخريج المشكاة: ١/ ٨٩.
٣ـ تفسير الطبري: ٩/ ٣٢٢.
٤ـ شعب الإيمان (٨٤٨٨).
٥ـ تاريخ دمشق: ١٠/ ٨٠.
٦ـ بهجة المجالس: ٩٣.

وقال عبدالله بن الحَسَن ﷺ: «المِرَاء يُفْسِدُ الصَّدَاقَة القَدِيمَة، ويحلُّ العُقْدَةَ ﷺ الوَثِيقَة، وأَقَلُّ مَا فِيهِ أنْ تَكُونَ المُغَالَبَة، والمغالبةُ أمتنُ أسبابِ القَطِيعَة»[1].

وقالَ إبراهيم النَّخْعِي ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[2]، قال: «الخصومات، والجدال في الدين»[3].

حِرمَان التَّوفِيق

لأنَّ اللهَ لا يوفِّق أصحابَ المجالسِ التي تقعُ فيها هذه المجادلات، التي لا يُرادُ بِها وجه الله.

انشغال القلبِ عن الله

فأقلُّ ما في هذه الخصومات التي ليستْ لوجه الله، أنَّها تشغلُ الإنسانَ حتَّى في صلاتِه، ويبقى خاطِرُهُ مُعَلَّقاً بها، قال بعض السلف: «ما رأيتُ شيئاً أذهبَ للدِّينِ، ولا أنقصَ للمُروءة، ولا أضيعَ للذَّة، ولا أشغلَ للقلبِ؛ مِنَ الخصومة»[4].

مَدعَاةٌ للزَّلَل

قالَ مُسلِم بن يَسَار ﷺ: «إيَّاكُم والمِرَاء، فإنَّه سَاعة جَهلِ العَالِم، وبِها يَبتَغِي الشَّيطانُ زَلَّتَه»[5].

ذِهابُ الكَرامَة

قالَ بعضُ الأعرَاب: «مَن لاحَى الرجال ومَارَاهُمْ قَلَّتْ كَرَامَتُه، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ»[6].

١_ تاريخ دمشق: ٢٧/ ٣٨٠.
٢_ سورة المائدة: ٦٤.
٣_ تفسير ابن كثير: ٢/ ١٠٤.
٤_ تاريخ دمشق: ١٠/ ٢٩٧.
٥_ سنن الدارمي (٣٩٦)، حلية الأولياء: ٢/ ٢٩٤.
٦_ الآداب الشرعية: ١/ ١٨.

ظهورُ البدع واتِّباعُ الهَوَى

قـالَ عمـر بن عبدالعزيز ﷺ: «من جعـلَ دينَهُ غرضاً للخصومات، أكثـرَ التَّنَقُّل»[1]، يعني مِن بدعةٍ إلى بدعة، ومِن مزلَقٍ إلى مزلَق، وهكذا.

وقيلَ للحَكَم بن عُتيبَة الكوفي ﷺ: ما اضطَر الناسَ إلى هذه الأهواءِ أنْ يدخلوا فيها؟ قال: «الخصومات»[2].

وسُـئِلَ سَـهْل بن عبدالله ﷺ: مَتَـى يَعلَمُ الرَّجُلُ أَنَّهُ عَلَى السُّـنَّةِ وَالجَمَاعَـةِ؟ قالَ: «إِذَا عَرَفَ مِن نَفسِـهِ عَشرَ خِصَالٍ: لا يَترُكُ الجَمَاعَةَ، وَلا يَسُبُّ أَصحابَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلا يَخرُجُ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ بِالسَّـيفِ، وَلا يُكَذِّبُ بِالقَدَرِ، وَلا يَشُـكُّ فِي الإِيمانِ، وَلا يُمارِي فِي الدِّينِ، وَلا يَترُكُ الصَّلاةَ عَلَى مَن يَمُوتُ مِن أَهلِ القِبلَةِ بِالذَّنبِ، وَلا يَترُكُ المَسحَ عَلَى الخُفَّينِ، وَلا يَترُكُ الجَمَاعَةَ خَلفَ كُلِّ وَالٍ، جَارَ أَو عَدَلَ»[3].

الأخلاق في حِجَاج الداعية إلى الله تعالى

تُعتـبر العـدَّة الأخلاقيَّة مِن أهمِّ الأدوات التي يجب أن يتحلَّى بها الداعية إلى الله تعالى في مناظرتـه وحِجَاجِـه؛ فإذا كان الإيمانُ بالله هو أول هذه الأدوات التي بدونِها يبطُل كلّ سـلاحٍ وتفشـلُ كلّ ذخيرةٍ، فإنَّ الأخلاق هي ثاني تلك الأدوات؛ فهي مِن لوازم الإيمان الحقِّ وثماره، وأكملُ المؤمنينَ إيماناً أحسنُهُم خُلُقاً[4].

فمِـن أهمِّ خصائـص الداعية أنْ يبلـغ درجة القدوة السـلوكيَّة والأخلاقيَّـة العمليَّة المتميـزة؛ لأنَّ «الداعـي هـو الذي يُصلح حياتـه لصالح هذه الدعوة قبـل كلّ شيء، فإنَّه مـا إنْ يـشرَع في دعوته إلا وترتفعُ إليه العيون الناقدة والأنوار الكاشـفة مِن كلِّ صَوب،

١ـ سنن الدارمي (٣٠٤).

٢ـ شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ٢١٥.

٣ـ اعتقاد أهل السنة: ٣٢٤.

٤ـ ثقافة الداعية: ٦ – ٧.

فإذا كان في حياته أتفه شيءٍ يتنافى مع دعوته وعقيدته، فإنَّ هؤلاء المحاسبين والمتطوعين يُثيرونَ عليه الضَّجَّة، ولا يزالون به حتى يجبروه على الإقلاعِ عنها»[1].

وهنا يجبُ أن تكون هذه الأخلاق حاضرةً في حِجَاجِ الدّاعية بجانبها العمليّ والتطبيقيّ؛ عملاً بالمبدأ الإسلاميّ: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآن**»[2]، ويأتي على سُلَّم الأخلاق التي يجب أنْ يتحلَّى بِها الدّاعية[3]:

• **خُلُق الصَّبر والعَزيمة**: عملاً بالمبدأ القرآنيّ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾[4].

• **خُلُق التفاؤل والأمل**: عملاً بالمبدأ القرآنيّ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[5].

• **خُلُق الأمانَة**: عملاً بالمبدأ القرآنيّ: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[6].

• **خُلُق التقوى والإخلاص**: عملاً بالمبدأ القرآنيّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[7].

• **مخالطة الناس والصبر على أذاهم**: عملاً بالمبدأ القرآنيّ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[8].

• **التواضع الحقيقيّ لهم**: عملاً بالمبدأ القرآنيّ العظيم: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ

١ـ تذكرة دعاة الإسلام: ٣٦.
٢ـ مسند أحمد، رقم الحديث: ٢٤٦٠١، حديثٌ صحيح.
٣ـ حاجة الدعاة لعلمي المقاصد وفقه الواقع: ١١٨ – ١١٩.
٤ـ سورة الأحقاف: ٣٥.
٥ـ سورة يوسف: ٨٧.
٦ـ سورة القصص: ٢٦.
٧ـ سورة البينة: ٥.
٨ـ سورة الفرقان: ٦٣.

لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

• **الرّفق والرّحمة بهم**: عملاً بالمبدأ القرآنيّ العظيم: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[2].

• **الحِلْم والأَنَاة معهم**: عملاً بالمبدأ القرآنيّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[3].

• **التربية بالقدوة الحسنة**: لأنَّ «الخُلُق الحَسَن، والسلوك الخيِّر هو الذي يُغري الناسَ بالإسلام، وليس السوط والأَثَرَة وحظوظ النفس، فهل نعيد قراءة سلوكنا في العمل الإسلامي وطرائقنا في الدعوة إلى الله، فيكون شعارنا: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] [5].

كما يجب على الدّاعية إلى الله تعالى، أن يراعي أصناف المدعوِّين وحقوقهم؛ وقد أشارَ د. أحمد محمود عيساوي إلى أنَّ هؤلاء المدعوِّين ثلاثة أنواع رئيسة، تأسيساً على منهج القرآن الكريم في تقسيم أنواع البشر: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[6]، وهذه الأنواع هي:

• **أصحاب الفِطَر السَّوِيَّة.**

• **أصحاب الفِطَر المدخونة.**

• **قوى المناوأة والاستكبار الكيديَّة الداخليَّة، والتآمُريَّة الخارجيَّة.**

١ـ سورة القصص: ٨٣.

٢ـ سورة آل عمران: ١٥٩.

٣ـ سورة النحل: ١٢٨.

٤ـ سورة الحجر: ٨٨.

٥ـ نظرات في مسيرة العمل الإسلامي: ٣٧.

٦ـ سورة فاطر: ٣٢.

ومِـن أبـرزِ حقوق هـؤلاء المدعوِّين على الداعيـة إلى الله تعالى في حِجَاجِـه إيَّاهم؛ أنْ يدعوهم إلى رسـالةِ الإسـلام بأسـاليبِ العرض المنهجـيّ والمرحليّ، بمختلف أسـاليب الحِجَاج العقليّ، وبمختلف أدوات التجييش الوجدانيّ، بالترغيب والترهيب[1].

الحِجَاج الأخلاقيّ في دعوة مؤمن آل فرعون

ومِنَ الأمثلة السّاطعة على مراعاة حقوق المدعوِّين في تنويع أساليب الحِجَاج العقليّ؛ ما أشارَ إليه الشيخ أبو الحسن الندْوي من حِجَاج مؤمن آل فرعون لقومه بني إسرائيل في أمر نبيِّ الله موسى عليه السلام؛ فقد بدأ معهم بـ «**كلمةٍ رقيقةٍ رفيقةٍ تثيرُ الشرارةَ الأخيرة من العدلِ وقوة المقارنة**».

فهذا الرجلُ قد ثارَ فيه الإيمان، وثارَ فيه الشعور بالكرامة الإنسانية، والشعور باحترام حسـن المرامـي والمقاصـد؛ وقـال: ﴿أَنَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[2]، فهـذه كلمـة اسـتعطاف تدعـو إلى التأمُّل؛ ما ذنب هـذا الرجـل؟ ﴿أَنَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ ليـس له ذنـبٌ إلا أنَّه يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، فـإذا قال أحدٌ: «رَبِّي فرعـون» لا تقتلونه! وإذا قال فرعون بنفسـه «أنا ربكم الأعلى» لا يسـتحق القتل؟ أين العدلُ يا جماعة؟ ألا تعقلون، رجـلٌ ينسـبُ الربوبية إلى مَن أخرجه من العدم إلى الوجود، نقلـه من طَوْرٍ إلى طَوْر، خَلَقَهُ ورَبَّاه، وأنشـأهُ وغَذَّاه، وأطعمهُ وسَـقَاه، وحَفِظَهُ وَوَقَاه، فإذا عزا هذا الرجل هذه الربوبية المطلقـة المحيطـة إلى صاحبهـا، وإلى مصدرها، فأنتـم تريدونَ أن تقتلوه؟ أمَّا الذي ينسـبُ الربوبية إلى غير محلها، إلى مَن لا يستحقها، إلى مَن هو مربوبٌ منذ نشأته؛ منذ كان روحاً في صُلْـبِ أبيه، وجنيناً في بطن أمه، فكان موضع العنايـة الكريمة والربوبية الرحيمة، فما هذا الجَـوْر، ما هذا الظلم؟ فهـذه كلمةٌ رقيقةٌ تثيرُ البقية الباقيـة، والشرارة الأخيرة من العدل، ومـن قـوة المقارنة التي فُطِرَ عليها الإنسـان، المقارنـة بين الفاضل والمفضـول، المقارنة بين

١ـ حاجة الدعاة لعلمي المقاصد وفقه الواقع: ١٤٧ – ١٥٩.

٢ـ سورة غافر: ٢٨.

الخالـص والزائف، المقارنـة بين المالك والمغتصب، إنَّه أراد أنْ يحـرِّك هذه القوة الكامنة في نفوس كل هؤلاء الذين يشهدون هذا المشهد وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.

وبعد ذلك استعمل هذا المؤمن في حِجَاجِهِ لقومه: «**الاحتجاج بالمشهود المعهود على الهدف المطلوب المنشـود**»، فقـال الله على لسـانه: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[1]، وذلك لأنَّ موسـى عليه السلام قد جاءهم بالمعجزات الباهرة: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[2]. وهنـا لجـأ هذا الرجـل إلى طريقةٍ نفسـيةٍ يسـتطيع كل إنسـانٍ أن يفهمها، ويسـتطيع أن ينصف لها ويتخـيَّر الطريق الأقوم الأسلم، وقد خاطبهم باللغة التي يفهمونها، فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[3]، فهـو يقـولُ لهـم: يا قوم لا تورِّطوا أنفسـكم في مشـكلةٍ لا مخـرج منها، تأمَّلـوا في هذا الرجل الذي يدَّعي أنَّه نبيٌّ مُرسَلٌ مِنَ الله، وأنَّه قد جاءَ من السماء؛ لكم طريقان: إمَّا أنْ تبطشُوا وتنكِّلوا به وتنتقموا منه، وفيه خطر. وإذا كان صادقاً يصبكم بعض الذي يَعِدُكُم، أمَّا – أعـاذه الله تبارك وتعالى من ذلـك – إذا كان كاذباً، فلا حاجةَ لكم فيه، إنَّ كذبه هو كفيلٌ بهلاكه، وبانطفاءِ سِرَاجِه[4].

ثـمَّ إنَّه اسـتعانَ بشيءٍ ثالث؛ وهو **الاحتجاج بسُـنَّةِ الله التي لا تتغـيَّر ولا تُحابي أحداً**، فيقـول: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾[5]، فهـو يقـولُ لهـم: إخواني! لا يغرَّكـم هذا المُلك العريض، وهذا الجاه الكبير، وهذه المملكة الواسـعة الأطراف، وهذه الوسـائل الوفيرة، وهـذه الثروة الطائلـة، يا قَومِ لَكُمُ المُلـكُ اليَومَ ظاهِريـنَ فِي الأَرضِ،

١ـ سورة غافر: ٢٨.

٢ـ سورة الأعراف: ١٠٧ – ١٠٨.

٣ـ سورة غافر: ٢٨.

٤ـ روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة: ٨٤ – ٨٥.

٥ـ سورة غافر: ٢٩.

لاشكَّ أنَّكم ظاهرون، لاشكَّ أنَّ لكم السلطة النهائية، السلطة العليا، لاشكَّ أنَّكم أصحاب حَوْلٍ وطَوْل، فَمَن ينصرنا من بأس الله إنْ جاءنا، هنالك لَفَتَ هذا الداعي الكبير نظرهم إلى سُنَّةِ الله التي لا تتغير، فيقول: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾[1]، إنَّكم تعتقدون، أنتم الأعلون، ولا شيء أعلى منكم، ولا شيء فوق رؤسكم، فأنتم المنتهى في كل شيء، المنتهى في القوة، المنتهى في السلطة، في الأمر والنهي، ولكنَّ هناك قوة أخرى تؤمنون بها كحقيقة، لكنكم تشركون في بعض صفاتها، ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[2].

وهكذا نرى أنَّ مؤمن آل فرعون قد نوَّع في حواره مع قومه، من استخدام أساليب الحِجَاج العقلي الأخلاقي، وقد خلَّد الله لنا هذا الحوار البديع في كتابه العزيز إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

النهي عن الجَدَل والمِرَاء في الإسلام

إنَّ الجَدَلَ شيءٌ مركبٌ في الإنسان، فهو كثيرُ الجَدَل، كثيرُ المِرَاء، قالَ الله تعالَى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾[3]، وفي تفسير هذه الآية يقول الطَّبريّ ﷺ: «الجَدَل: الخُصُومَة، خُصُومَة القَوم لأنبيائهم، وردِّهم عليهم ما جاءوا به»، وقالَ تعالَى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ﴾[4]، أي يخُاصمون الرُّسل بالباطل؛ كقولهم في الرسول ﷺ: ساحر، شاعر، كاهن. والباطل: ضدُّ الحق، وكلُّ شيءٍ زائل مضمحل تسمِّيه العرب: باطلاً، ومنهُ قول لَبِيد[5]:

١_ سورة غافر: ٢٩.

٢_ أبو الحسن الندوي، روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة: ٨٣ – ٨٦.

٣_ سورة الكهف: ٥٤.

٤_ سورة الكهف: ٥٦.

٥_ د. أحمد بن برَّاك الهَيْفي، ١٠٠٠ فائدة من تفسير أضواء البيان للعلامة محمد الأمين الشنقيطي: ١٢٣ – ١٢٤.

ألا كلُّ شيءٍ مَا خَلا الله بَاطِل

وبذلك يمكن تعريف **الجدال** بأنَّه: الخصومة، ومراجعة الكلام، وهو دفع المرء خصمه؛ تصحيحاً لكلامه، وهو منازعةٌ للخصم، قال الزَّجَّاج رحمه الله: «الجدال: **هو المبالغةُ في الخصومةِ والمناظرة**».

وقال القرطبي رحمه الله: «المُجَادَلَةُ» دَفعُ القَولِ عَلَى طَرِيقِ الحُجَّةِ بِالقُوَّةِ، مَأخُوذٌ مِنَ الأَجْدَلِ، طَائِرٌ قَوِيٌّ. وَقِيلَ: هُوَ مَأخُوذٌ مِنَ الجَدَالَةِ، وَهِيَ الأَرضُ، فَكَأَنَّهُ يَغلِبُهُ بالحُجَّة يقهرُه حَتَّى يَصِيرَ كالمَجْدُولِ بِالأَرضِ. وَقِيلَ: هُوَ مَأخُوذٌ مِنَ الجَدْل، وَهُوَ شِدَّة الفَتْل، فَكَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُما حُجَّةَ صَاحِبِهِ حَتَّى يَقطَعَهَا، وَتَكُونُ حَقًّا فِي نُصرَةِ الحَقِّ، وَبَاطِلاً فِي نُصرَةِ البَاطِلِ».

أمَّا المِرَاء: فقيل: هو الجِدَال، قالَ الطَّبريّ رحمه الله: «مَارَيْتُ فلاناً: إذا جادلته وخاصمته»، وقيل: هو طعنٌ في كلام الغير؛ لإظهار خَلَلٍ فيه، مِن غير أن يرتبط به غرضٌ، سوى تحقيرُ الغير، وقيل: إنَّ المِرَاء لإثباتِ قولٍ باطل، والجدال لإثباتِ قولٍ قد يكونُ باطلاً، وقد لا يكون[1].

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**المِرَاءُ فِي القُرآنِ كُفْرٌ**»[2]، ولهذا قرَّر الفقهاءُ في قواعدِهم أنَّه «**لا اجتهادَ فِي مَعرِضِ النَّصِّ**» أي: إذا وُجد النصُّ الشرعيّ وهو قول الله ورسوله القطعيِّ الثُّبوت والدلالة، فلا رأي ولا قول لأحدٍ في موضوع هذا النصِّ من

١ـ محمد صالح المنجد، مفسدات القلوب: ٣٠٨.

٢ـ سنن أبي دواد، رقم الحديث: ٤٦٠٣، وصححه الألباني، وقد أشارَ د. محمد صالح المنجد إلى أنَّ المراد بالمِرَاء في القرآن: الشك فيه، وهذا كفرٌ، فإذا شكَّ أنَّه كلام الله، أو قال: إنَّه مخلوق، أو جعل يتتبع الأشياء لكي يصل إلى جحدِ شيءٍ مما أنزله الله، ونحو ذلك: فالمجادلة والمماراة هنا على مذهب الشكِّ والريبة، وليس من الجدال في القرآن الممنوع أن يناقش في التفسير بعلم، فيقول: هل المرادُ كذا؟ أو المرادُ كذا؟ وترجيح أحد الوجوه. فهذا نقاشٌ بعلمٍ لمعرفة مراد الله، فالمقصود بوصف المِرَاء في القرآن بأنَّه كفرٌ؛ أي: الذي يكونُ على سبيل الشكِّ والارتياب والتكذيب. انظر: مفسدات القلوب: ٣٠٩.

جهة جواز التعقيب عليه، أو المجادلة فيه، أو التوقف في تنفيذه، أو تعليق هذا التنفيذ على شيءٍ آخر، كموافقته لهوى النفس أو رِضَا النَّاس، أو الاجتهاد في تعطيله، أو عدم الخضوع له بالحيلة أو الاستثناء، وإنما الواجب على المسلم إزاء هذا النص قبوله فوراً بكامل الرضا، والعزم على تنفيذه، والمبادرة إلى هذا التنفيذ دون تردُّدٍ ولا ضيقٍ ولا حرجٍ ولا كراهية، وبهذا يتحقَّق في المسلم إسلامه، ويصدُق عليه قول الله في المؤمنين: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[1].

ومردُّ هذه القاعدة هو أنَّ دين الله الواحد الذي أرسل به جميع رسله هو الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[2]، ومعنى الإسلام هو الاستسلام لله ربِّ العالَمين عن رضا واختيار، لا عن كُرهٍ واضطرار، وبدون قَيدٍ ولا شَرط، ولا ضيقٍ ولا حرج، ومظهر هذا الاستسلام لله ربِّ العالَمين: تلقي أوامر الله بهذه الكيفيَّة وإنَّ أي رفضٍ أو تردُّدٍ لهذا التلقي بهذه الكيفية هو الكفرُ الصريح الذي لا يحتملُ التأويل، وإنْ ادعى صاحبه أنَّه مجتهد في موقفه هذا الرافض، أو المتردد، إذ لا اجتهاد في معرض النص[3].

وعن جندب بن عبدالله ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**اقْرَؤُوا القُرْآنَ ما ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ، فإذا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عنْه**»[4]، أي: إذا اختلفتم في فهمِ معانيه، فقوموا عنه؛ لئلا يؤدي بكم الاختلاف إلى الشر، ويحتمل أنَّ المعنى: اقرؤا والزموا الائتلاف على ما دلَّ عليه، وقادَ إليه، فإذا وقعَ الاختلاف أو عرضت شبهة تقتضي المنازعةَ الداعية إلى الافتراق: فاتركوا ذلك، وتمسَّكوا بالمحكم، واتركوا المتشابه الذي سبَّب الاختلاف.[5]

١_ سورة البقرة: ٢٨٥.

٢_ سورة آل عمران: ١٩.

٣_ المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة لعبدالكريم زيدان: ٢٥ – ٢٦.

٤_ صحيح البخاري، رقم الحديث: ٥٠٦٠.

٥_ مفسدات القلوب لمحمد صالح المنجِّد: ٣٠٩ – ٣١٠.

التحذير مِنَ الجَدَلِ العَقيم

يحـرص كثـيرٌ مـن الدعاة في عصرنا عـلى التحذير مِـن مغبَّة الخـوض في ذلك الجدل العقيم الذي لا طائلَ مِن وراءِه، وفي هذا السـياق يُشـير د. البشير عصام المراكشي إلى أنَّ التفقُّـه في الدِّيـن لا يُؤتِي أُكُله، إلا إنْ توفَّرت فيه صفات معيَّنة في محورَي الجَلْب والدَّرْء؛ أي صفات يجب أنْ توجد فيه، وأخرى يجب أنْ يجانبها ويتفاداها.

ومِـن أبرز تلك الصفات التي يجب أنْ يجانبهـا طالبُ العلم في محور الدَّرْء: أنْ يكونَ العِلمُ بعيداً عن الجدل العقيم؛ فإنَّ المِرَاء والجَدَل ما دخل على طالبِ علمٍ إلا أهدرَ عمره وأهلكـه في خاصَّةِ نفسِـه، ولا فَشَـا في طائفةٍ إلا شـتَّتها شَـذَرَ مَذَر، وقَلَـبَ حبَّها عداء، وولاءَها براء!

والجـدلُ العَقيـم، هو الذي لا يتبيَّن فيه الحرصُ على الحـقِّ، ولا إرادته؛ بل يكون همُّ الداخل فيه: الانتصارَ للنَّفسِ وحظوظها، فلا ينتهي برجوع أحد الطرفين عمَّا أخطأ فيه، ولا باعترافه بغلطه في الاستدلال أو التوثيق.

ومِنَ الجَدَلِ العَقيم: صراعات التصنيف التي يخوضُ فيها بعض المعاصرين، فلا تأتي بنفعٍ، غير تضييع الأوقات، وإثارة أحقاد النفوس، ومنه تتبُّع نزاعات الشـيوخ، وما قاله فـلانٌ في علان، ونَصْبِ المحاكمات بينهم لتصويبِ هذا وتخطئةِ ذاك، دون أن يترتَّب على ذلك فائدة علميَّة معتبرة[1].

الحِجَاج والتفكير النقديّ

من خلال الاستقراء، يظهر لنا الترابطيَّة بين منطقِ الحِجَاج وبين التفكيرِ النقديّ، وفي هذا السـياق يُشـير د. معتز الخطيب إلى أنَّه لا يمكن لأيّ تفكيرٍ نقديّ أو نقاشٍ فكريّ أن يزهدَ في بناء أو اسـتخدام حُجَجٍ تقودُ أو تؤسِّس لخُلاصاتٍ محدَّدة، فالحُجَج هي ما يميِّز

١ـ د. البشير عصام المراكشي، ثمار الأنظار (أبحاث في العقائد والفقه والفكر): ١٢٢ – ١٢٣.

التفكير المرسَل أو غير النقديّ عن التفكير النقديّ، وهي أداة مهمة لاكتشاف الحقيقة من أجل النفسِ أولاً، ولمشاركة الأفكار والخُلاصات أو لإقناع الطرف الآخر بصواب فكرةٍ ما أو خطئها ثانياً.

ثمَّ يُشدِّد على أنَّ الحِجَاجَ ضروريٌّ لأيِّ بحثٍ عن حقيقةِ ما يجري أو يُقال، كما أنَّه ضروريّ للعقل النقديّ الذي لا يُسلِّم بما يُلقى إليه لمجرد ثقته بالقائل أو لمجرَّد أنَّ المقول وافقَ رغبةً لديه، كما أنَّ الحِجَاج هو ما يميِّز عملية التفكير النقديّ عن الدعوة والوعظ؛ فإذا كان التفكير النقديّ يقومُ على حِجَاجٍ وبرهنة، فإنَّ الدَّعوة والوعظ يقومانِ على التَّبشيرِ والتَّرغيب والتَّرهيب، أو إثارة الانفعال والعاطفة، ولا يُؤسِّسان لمقولات، بقدرِ ما ينطلقان ما إيمانياتٍ أو مسلَّماتٍ أو مُطلقات.

ويُضيف بأنَّ الحُجَج هي عبارة عن إيراد مجموعة من الأسباب التي تنهض مسوِّغاً لتشكيلِ قناعةٍ معيَّنة، أو لإقناع شخصٍ ما بها، وعادةً ما يتمُّ التفريق بين الحُجَج، وبين التفسير؛ فالحُجَج مهمة لإثباتِ أنَّ شيئاً ما صحيح، في حين أنَّ التفسير مهمٌ لفهم لماذا هذا الشيء صحيح، أي إنَّ الحُجَج تقومُ بدورِ الإثبات، بينما يقوم التَّفسير بدَورِ البَيانِ والإفهَام[1].

ضوابط المناظرة الأخلاقيّة في الإسلام

• **أنْ يتحلَّى أطرافُها بخُلُقِ الصَّبر**: يقولُ النَّبيُّ ﷺ: **«المُسْلِمُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ المُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»**[2].

• **أنْ تقومَ على أمانة المشورة**: يقولُ الله تعالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[3]، ويقولُ ﷺ: **«المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»**[4].

١ـ د. معتز الخطيب، في التفكير النقدي وبناء الحجج، موقع الجزيرة نت، ٢/ ٦/ ٢٠٢١م.

٢ـ حديثٌ صحيح، سنن الترمذي (٢٥٠٧)، سنن ابن ماجه (٤٠٣٢). انظر: معالم السنة النبوية: ٣/ ٢٢٣.

٣ـ سورة الشورى: ٣٨.

٤ـ حديثٌ صحيح، انظر: سنن أبي داود (٥١٢٨)، سنن الترمذي (٢٣٦٩)، سنن ابن ماجه (٣٧٤٥).

• **أنْ يكونَ بِلِينِ الكَلام**: وهو شرطٌ لقَبولِ الحقِّ والإذعانِ إليه، وفي هذا الصَّدد؛ يُروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالبٍ ﷺ، أنَّه قال: «**مَنْ لانَتْ كَلِمَتُه، وَجَبَتْ مَحَبَّتُه**»[1]، وإنَّ أحقَّ مَن ينبغي عليهم مراعاةُ هذا المعنى والسعي إليه: الدعاة إلى الله تعالى في حِجَاجِهم؛ ذلك أنَّ الرفق في الخطاب، واجتناب الكلمات الجافية، له أثرهُ القويّ في تأليفِ القلوب، وإصغاءِ الأسماع لما يريد المتكلِّم قولَه؛ ولهذا أمرَ اللهُ تعالى موسى وأخاه هارون عليهما السلام – حين بعثهما إلى أشدِّ طغاة الأرض – بلينِ الكلام، وعلَّل ذلك لهما؛ فقال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[2]، ويقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[3].

• **تجنُّب إسقاط الطرف الآخر**: إذا كان دافع المناظر في مناظرته إظهار الحقِّ والذَّبِّ عنه؛ دفعه ذلك لتجنُّبِ إسقاط خصمه والاكتفاء ببيان الحقّ دون الإساءة إليه، ويُروى في هذا المقام أنَّ ياقوت الحَمَوِيّ (ت: ٦٢٦هـ) قد زارَ في عنفوانِ شبابِه بلدةً مِنَ البلادِ سنةَ ٥٩٣هـ، ليَلقى فيها أحدَ المنتسبين للعلم، فَبِمَ وصفه ياقوت؟

يقول ﷺ: «كان من العلمِ بمكانٍ مَكين، واعْتَلَقَ من حِباله بِرُكْنٍ رَكِين، إلا أنَّه كان لا يُقيمُ لأحَدٍ من أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزناً، ولا يعتقدُ لأحدٍ فضيلة، ولا يُقِرُّ لأحَدٍ بإحسانٍ في شيءٍ مِنَ العُلوم ولا حسن، فحضرتُ عنده، وسمعتُ مِن لفظِه إزراءَه على أولي الفضل، وتَنديدَه بالمعيب عليهم بالقول والفعل، فلمَّا أبرمني وأضْجَر، وامتدَّ في غَيِّهِ وأصْحَر؛ قلتُ له: **أما كان في مَنْ تقدَّم – على كثرتهم وشغف الناس بهم – عندك قطُّ مُجيد؟** فقال: لا أعلم إلا أن يكون ثلاثة رجال، فَذَكَرَهُم»[4].

١_ العقد الفريد: ٢/ ١٣٨.

٢_ سورة طه: ٤٤.

٣_ سورة آل عمران: ١٥٩.

٤_ معجم الأدباء: ٦/ ١٩٩ – ٢٠٠.

ومازال أمثالُ هذا الرجل الذي زارَه ياقوت يعيشون بيننا في هذا الزمان، ويتوسَّطونَ مجالسنا، يعتدلُ أحدُهم في جلسته، ويغضب وتنتفخُ أوداجُه، ويتورَّم أنفُه كلما قرعَ سمعَه صوتُ مادحٍ على أحد، ولسانُه منطلِق في مهمَّته لا يَقف عن مطاردة منجزات الآخرين بالعَيب والانتقاص، فهل تجد أوضح من هذا مثالاً على حرمان بركة العلم والأدب؟!»[1].

• **التأهُّل قبل الخوضِ في الحِجَاج**: وهذه من أبرز الأخلاقيات التي يجب أن يتحلَّى بها صاحب الحُجَّة؛ فمعرفته وإحاطته بموضوع المناظرة، شرطٌ له قبل الخوضِ فيها، حتى لا يفسد من حيث أرادَ الإصلاح، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «**المُتَشَبِّعُ بما لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[2]، وقد أشارَ العلامة الطاهر بن عاشور إلى أنَّه إنَّما شبَّهه بلابسِ ثوبين، ولم يشبِّهه بلابسِ ثوبٍ واحدٍ زوراً؛ أنَّه جرى على الغالبِ في عُرْفِ الناس، أنَّ لباس الزُّور هو لباس المرء ثياباً مستعارةً يُوهم الناس أنَّها ثيابه، والشأنُ أنَّ الثياب إنَّما تُستعار إذا كانت متماثلةً صنفاً ولوناً، وهي المسماة الحُلَّة؛ وهي ثوبان: رداء وإزار، فلو استعارَ المرءُ أحد ثوبين فَلَبِسَهُ مع ثوبه القديم، لظهرَ الاختلاف بين الثوبين، فعلم أنَّ أحدهما مُستعار[3].

وفي هذا المعني؛ تقول العرب في أمثالها: «**تَزَبَّبَ قبلَ أنْ يَتَحَصْرَم**»، وهو مِن الأمثال التي تُضرب لِمَن ادَّعَى حالةً أو صفةً قبلَ أنْ يتهيَّأَ لَهَا[4]

• **التأنِّي في بِناءِ الحُجَّة**: وهي إحدى أهمِّ خصائص الحِجَاج الأخلاقيّ في ديننا الحنيف، حيث نجد في أدبيَّاتنا: «**مَن استعجلَ شَيئاً قَبلَ أَوانِه، عُوقِبَ بِحرمانِه**»، وهي قاعدةٌ تطَّردُ في شتَّى المجالات؛ فالاستعجال أمارة الجهل، ومظنَّة الزَّلَل، كما قال الأوَّل:

١ـ انظر: عمر بن عبدالله المُقبل: مجالس التذكير: فصولٌ إيمانيَّة تربويَّة، الرياض، دار رسالة البيان، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ص: ٢٢٤.

٢ـ صحيح البخاري، رقم الحديث: ٥٢١٩.

٣ـ النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح٥: ٢٠١

٤ـ المعجم الوسيط: ٣٨٧.

قد يُدرك المتأني بعضَ حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

بل الزَّلل متحقَّقٌ في معظم دروب الاستعجال، وإنْ قُدِّر وأصاب الهدف من الحِجَاج؛ فما كانت حُجَّتُهُ نابعةٌ عن عِلمٍ ومعرفةٍ وثِقة، وما هي إلا رميةٌ مِن رامٍ وقَذْفةٌ من قاذف.

• **أن يقومَ على التَّواصي بالحقّ**: لا يكون الحِجَاج أخلاقياً ومثمراً إلا إذا قام على التواصي بالحقّ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾، والتواصي بالحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يُوصِي بعضهم بعضاً بذلك، ويحثُّه عليه ويرغِّبه فيه[1].

الخِلاف الفقهيّ والحِجَاج

صدَر قرار المجمع الفقهيّ الإسلاميّ في دورته العاشرة[2] في موضوع الخلاف الفقهيّ بين المذاهب المتَّبعة، على أنَّ هناك أسباباً علميَّة قد اقتضت اختلاف المذاهب الفقهيَّة في بعض المسائل، ولله سبحانه في ذلك حِكمَةٌ بالغة، ومنها الرحمة بعبادِه، وتوسيع مجال استنباط الأحكام مِنَ النصوص، ثمَّ هي بعد ذلك نعمة، وثروة فقهيَّة تشريعيَّة، تجعل الأُمَّة الإسلاميَّة في سَعَةٍ مِن أمرِ دينها وشريعتها، فلا تنحصر في تطبيقٍ شرعيٍّ واحد، حصراً لا مناصَ لها منه إلى غيره، بل إذا ضاق بالأُمَّة مذهبُ أحد الأئمة الفقهاء في وقتٍ ما، أو في أمرٍ ما، وجدت في المذهب الآخر سَعَةً ورِفْقاً ويُسراً، سواء أكان ذلك في شؤون العبادات، أم في المعاملات، وشؤون الأسرة، والقضاء والجنايات، وعلى ضوء الأدلة الشرعيَّة.

فهذا النوعُ الثاني من اختلاف المذاهب، وهو الاختلاف الفقهيّ، ليس نقيصَة، ولا تناقضاً في ديننا، ولا يمكن أن لا يكون، فلا يوجد أُمَّة فيها نظام تشريعيّ كامل بفقهه واجتهاده ليس فيها هذا الاختلاف الفقهيّ الاجتهاديّ.

١ـ تفسير السعدي: ١١٠٣.

٢ـ انعقدت هذه الدورة في الفترة: (٢٤ – ٢٨) صفر ١٤٢٣هـ، الموافق (١٧ – ٢٠) أكتوبر ١٩٨٧م.

فالواقع أنَّ هذا الاختلاف، لا يمكن أن لا يكون، لأنَّ النصوص الأصليَّة، كثيراً ما تحتمل أكثر من معنًى واحد، كما أنَّ النصَّ لا يمكن أن يستوعب جميع الوقائع المحتملة؛ لأنَّ النصوص محدودة، والوقائع غير محدودة، كما قال جماعةٌ مِنَ العلماء – رحمهم الله تعالَى – فلابدَّ مِنَ اللجوءِ إلى القياس، والنظر إلى عِلَلِ الأحكام، وغرضِ الشَّارِع، والمقاصد العامَّة للشريعة، وتحكيمها في الوقائع، والنوازل المستجدة، وفي هذا تختلف فُهُوم العلماء وترجيحاتهم بين الاحتمالات، فتختلف أحكامهم في الموضوع الواحد، وكلٌّ منهم يقصد الحقّ، ويبحث عنه، فَمَن أصاب فله أجران، ومَن أخطأ فله أجرٌ واحد، ومِن هنا تنشأ السّعة ويزولُ الحَرَج.

فأينَ النقيصة في وجود هذا الاختلاف المذهبيّ، الذي أوضحنا ما فيه من الخيرِ والرحمة، وأنَّه في الواقع نعمة ورحمة من الله بعباده المؤمنين وهو في الوقت ذاته، ثروة تشريعيَّة عظمى، ومَزِيَّة جديرة بأنْ تتباهى بها الأُمَّة الإسلاميَّة[1].

جوامع الأخلاق الإسلاميَّة في المناظرة

سبقتْ الإشارة في الفصل الأوَّل إلى أنَّ الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ) كان قد أرجَعَ جميعَ الأخلاقِ إلى أربعة، وهي: الصَّبر، والعِفَّة، والشَّجَاعَة، والعَدْل. فهل تنسحبُ هذه الأخلاق الجامعة على المناظرةِ بما أنَّها معاونةٌ على طَلَبِ الحقّ؟

عند التأمُّل وإنعام النَّظر في أغوارِ كلِّ خُلُقٍ مِن هذه الأخلاق الأربعة التي أشارَ إليها الفيروزآبادي؛ نجد أنَّه على صلةٍ وثيقةٍ بآدابِ البحثِ والمناظرة، وذلك كما يلي:

الخُلُق الأوَّل: الصَّبرُ في المناظرةِ والحِجَاج

لَمَّا كانت المناظرةُ هي معاونةٌ على النظرِ وطلبِ الحق، فهي مِن هذه الحيثيَّة إحدى أشكال التّواصي بالحقِّ الذي فيه معنَى قيامهم بالوصية، وقبولها إذا وُجِّهَت إليهم، فهم

١ _ نحن والآخر (دراسة فقهية تأصيلية) لعلي محيي الدين القره داغي: ٣٥ – ٣٦.

جمعوا بين المنقبتين، ولأجل هذه المعاني العظيمة كان الشافعيّ يقول: «**لو فكَّرَ النَّاسُ كُلُّهُم في سُورَةِ العَصْرِ لَكَفَتْهُم**»[1].

ولَمَّا قالَ النبيُّ ﷺ: «**والصَّبْرُ ضِياءٌ**»[2]، فهنا نجد أنَّ الضِّياءَ معناه «النور القوي ومستعمله يرى طريق الرشد، وتاركه تدركه ظلمات الجَزَع»، وهذه المعاونة على طَلَبِ الحقِّ في المناظرة محتاجةٌ إلى هذا الضِّياء الذي ذكره النبيُّ ﷺ؛ ليرَى صاحبَ الحقِّ طريقَ الرُّشدِ ويُبصره.

الخُلُق الثاني: العِفَّةُ في المناظرةِ والحِجَاج

تبرُز أهمية هذا الخُلُق في المناظرة من استعفافِ صاحبِ الحقِّ عن قولِ ما يسوءُ خصمه؛ فقد كان الإمامُ أحمد رحمه الله يستحسنُ ما حُكِيَ عن حَاتِم الأَصَم، أنَّه قيلَ له: أنتَ رجلٌ أعجميٌّ لا تُفصِح، وما نَاظَرَكَ أحدٌ إلا قَطَعتَه، فَبِأيِّ شَيءٍ تغلبُ خصمك؟ فقال: بثلاث:

١. أفرحُ إذا أَصَابَ خصمي.

٢. وأحزنُ إذا أخطأ.

٣. وأحفظُ لِسانِي عن أنْ أقولَ له ما يَسُوءُه.

فقالَ أحمد: «ما أعقَلَه مِن رجل»[3]، وهنا تظهر عِفَّة حَاتِم الأَصَم في حِفظِ لِسانِه عن الخَوضِ فيما يسوءُ خصمه في المناظرة.

كما تبرُز أهمية هذا الخُلُق في استعفافِ صاحبِ الحقِّ عن الظهورِ أمامَ وُجَهَاءِ القَوم؛ فَمِن بين المعايير الثمانية التي وضعها الغزاليُّ للمناظرةِ عن الحقِّ:

١ـ الاستقامة لابن تيمية: ٢/ ٢٥٩.

٢ـ صحيح مسلم (٢٢٣).

٣ـ الفرق بين النصيحة والتعيير، ضمن مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي: ٢/ ٤٠٥.

«أنْ تكـونَ المناظـرةُ في الخُلْـوَة أحـبُّ إلى المناظـرِ وأهـمُّ مِـن المَحَافِـلِ، وبين أظهُـرِ الأكابر والسـلاطين؛ فإنَّ الخُلْوَة أجمعُ للفهمِ، وأحرَى بِصَفَاءِ الذِّهـن والفِكْر ودرك الحقِّ، وفي حضورِ الجمع ما يحرِّكُ دواعي الرِّياء ويوجبُ الحرصَ على نُصرةِ كلِّ واحدٍ نفسَه، مُحِقًّا كانَ أو مُبطِلاً»[1].

ويقولُ أيضا: «فَمَن غَلَبَ عليه حُبُّ الإفحامِ والغَلَبَةِ في المناظرة وطلبِ الجاهِ والمباهاة؛ دعاهُ ذلك إلى إضمارِ الخبائثِ كلِّها في النفس، وهيَّج فيه جميعَ الأخلاقِ المذمومة»[2].

الخُلُق الثالث: الشَّجاعَة في المناظرةِ والحِجَاج

تـبرُز أهميـة هذا الخُلُق في المناظرة من كونِ صاحبِ الحـقِّ محتاجٌ في إظهارِه لهذا الحق، أن يتَّصفَ بالشجاعة في الجهرِ بالحقِّ الذي معه، فإذا اتَّصف بالخَوَرِ في ذلك؛ ظهرَ لِمُناظِرِهِ ضعـفُ الحـقِّ الذي معه، المتأتِّي مِن ضعفِ صاحبِه، فصاحـبُ الحقِّ محتاجٌ في كلِّ أحوالِهِ أنْ يكـونَ شُـجاعاً في مناظرتِه وحِجَاجِه، وإذا كانت المناظرةُ بالحـقِّ من الجهادِ بالكلمة، فإنَّ صاحب الحقِّ فيها هو مجاهدٌ بلسانه.

قالَ النبيُّ ﷺ: «**جَاهِدُوا المُشرِكِينَ بِأَموالِكُم، وَأَنفُسِـكُم، وَأَلسِـنَتِكُم**»[3]، وقد عقَّب الصنعانيّ رحمه الله بأنَّ «في الحديثِ دليلٌ على وجوبِ الجهادِ بالنفس، وهو بالخروجِ والمباشرةِ للكفَّـار، وبالمـال، وهو بَذْلُهُ لما يقوم به من النفقة في الجهاد والسـلاح ونحوه، .. والجهاد باللِّسان؛ بإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ودُعائهم إلى الله تعالى»[4].

وكـما أنَّ خُلُو العـدل مِن القوة يجعله ضعيفاً مهضوماً، لا يملـك نُصرةَ مَن يلجأ إليه ولا حمايتـه ولا ردِّ حقِّـه، ولا منع الظلم المسـتقوي على الضعفـاء[5]، فكذلك خُلُو الحقِّ

١ـ أخلاقيات المناظرة والحِجَاج (٢)، د. معتز الخطيب، موقع الجزيرة نت، ١٦/ ٦/ ٢٠٢٣م.

٢ـ نفس المصدر السابق.

٣ـ سنن أبي داود (٢٥٠٤)، وصحَّحه الألباني.

٤ـ سبل السلام للصنعاني: ١/ ١٩٩.

٥ـ من مقال: «نشر العدل من مقاصد الشريعة». موقع «إسلام أون لاين».

مِن الشجاعةِ في إظهارِه، يجعله مُنزَوِياً أمامَ سطوةِ الباطلِ وخُيَلاءِه، ولذا فإنَّ الجرأة بيان الحقِّ وإنكارِ المنكر مِن أبرزِ صُور الشَّجاعَة، قال ﷺ: «**أفضَلُ الجِهادِ كلمةُ عَدلٍ عندَ سُلطانٍ جائرٍ**»[1]، وقالَ أيضاً: «**لا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ**»[2]، وهنا تظهر الحاجة إلى خُلُقِ الشَّجَاعَة في الجهرِ بالحقِّ.

ولابنِ رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ) رسالةٌ بعنوان: «الفَرْق بين النَّصِيحَة والتَّعيير»، يقول فيها: «فردُّ المقالات الضعيفة، وتبيين الحق في خلافها بالأدلة الشرعية ليس هو مما يكره العلماء، بل مما يحبونه ويمدحون فاعله، ويُثنون عليه. فلا يكون داخلاً في باب الغَيبة بالكلية، فلو فُرض أنَّ أحداً يكرهُ إظهار خطئه المخالفِ للحق، فلا عبرةَ بكراهته لذلك، فإنَّ كراهةَ إظهارِ الحقِّ إذا كان مخالفاً لقول الرجل ليس مِنَ الخِصَال المحمودَة، بل الواجب على المسلم أن يُحبَّ ظهورَ الحقِّ ومعرفة المسلمين به، سواء كان ذلك في موافقته أو مخالفته. وهذا من النصيحة لله ولكتابه ورسولِهِ ودينِهِ وأئمَّة المسلمين وعامتهم، وذلك هو الدِّينُ كما أخبَرَ به النبيُّ ﷺ»[3].

وقد قالَ الرَّاغِب الأصفَهَاني: «ومِن الشَّجاعةِ المحمودة مجاهدةُ الإنسان نفسه أو غيره، وكلُّ واحدٍ منهما ضربان:

- **مجاهدة النفسِ بالقول**: وذلك بالتعلُّم، وبالفعل: وذلك بقمعِ الشهوةِ وتهذيب الحمية.
- **مجاهدة الغير بالقول**: وذلك تزيين الحقِّ وتعليمه، وبالفعل وذلك مدافعة الباطل ومتعاطيه بالحرب»[4].

١ـ سنن أبي داود (٤٣٤٤).

٢ـ سنن الترمذي (٢١٩١)، سنن ابن ماجه (٣٩٩٧)، وصحَّحه الألباني.

٣ـ الفرق بين النصيحة والتعيير، ضمن مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي: ٢/ ٤٠٥ – ٤٠٦.

٤ـ الذريعة إلى مكارم الشريعة: ٢٣٣.

وهنا نجد أنَّ الأصفهانيّ قد اعتبرَ أنَّ تزيينَ الحقِّ وتعليمه دَاخِلٌ في بابِ مجاهدةِ الغير بالقـول، فإذا نَوَى صاحبُ الحـقِّ في مناظرتِه هذه النِيَّةَ الشريفـة، فهو مجاهدٌ بالحقِّ الذي يُناظِرُ عنه.

ومِن بينِ صورِ الشَّـجَاعَة المحمودَة: **الشَّـجَاعَة الأدبية**؛ وهي أنْ يُبدِيَ الإنسانُ رأيه، ومـا يعتقدُ أنَّه الحق، مهما ظنَّ النَّاسُ بـه، أو تقوَّلوا عليه، فيقولُ الحقَّ بأدبٍ، وإنْ تألَّم منه النَّاس، ويعترف بالخطأ، وإنْ نالَته عقوبة، ويرفضُ العمل بما لا يراه صواباً[1].

الخُلُق الرابع: العَدلُ في المناظرةِ والحِجَاج

تـبرُز أهمية هـذا الخُلُق في المناظرة من احتياجِ طرفيها إليه عند ظهور الحُجَّة وسُـطُوع الدليل، فَمِن بين المعايير الثمانية التي وضعها الغزاليُّ للمناظرةِ عن الحقِّ؛ أنْ يكونَ المناظرُ في طلبِ الحقِّ كَنَاشِـدِ ضَالَّة، لا يفرِّق بين أنْ تظهر الضَّالَّة على يدِه أو على يدِ مَن يُعاوِنُه، ويرى رفيقه مُعيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرَّفه الخطأ وأظهرَ له الحق[2]، وهنا تتجلىَّ قيمةُ العَدلِ في أنصَعِ صُوَرِه.

وقد أشارَ ابنُ حَزْم إلى أنَّ الفَلَجَ[3] في المناظرةِ هو ظهورُ البرهانِ الحقيقيّ فقط، وليس انقطـاع الخصـم فَلَجاً، فقـد ينقطعُ جهلاً أو خوفاً أو لشـغلِ بالٍ طَرَقَـهُ، وكلُّ ذلك ليس قطعـاً للحقِّ إنْ كان بيدِه[4]، فالعَـدلُ يقتضي أنْ يكونَ الظَّفَرُ في المناظرةِ عن قناعةٍ بظُهورِ الحقِّ على يَدِ أَحَدِ طَرَفَيْها.

فَماهِيَّـةُ العَـدلِ أنَّه تمكينُ صاحبِ الحقِّ بِحَقِّه بيـدِه أو يدِ نائبه، وتعيينُه له قولاً وفعلاً؛ فهـو يظهرُ في القضاءِ بين النَّـاس في منازعاتهم، وفي فرضِ الواجباتِ والتكاليفِ عليهم،

١ـ موسوعة الأخلاق (الدرر السنية): ٦/ ٩١.

٢ـ أخلاقيات المناظرة والحِجَاج (٢)، د. معتز الخطيب، موقع الجزيرة نت، ١٦/ ٦/ ٢٠٢٣م.

٣ـ الفَلَجُ: الظَّفَرُ والفوزُ.

٤ـ التقريب لابن حزم: ٥٨٩.

وفي التشريعِ لهم والإفتاء وهو الفقه، وفي الشهادةِ بينهم، قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ﴾[1].

وقد جَمَعَ الشافعيُّ هذه الأخلاق التي يجبُ توافرها في المناظرةِ عندما كَتَبَ أبياتاً إلى أبي يعقوب البويطي حَاثًّا له على الاتِّصافِ بأدبِ المناظرة، يقول فيها[2]:

إذا ما كُنْتَ ذا عِلْمٍ وفَضْلٍ ... بِما اختلَفَ الأوائِلُ والأواخِرْ
فَناظِرْ مَنْ تُناظِرُ في سُكونٍ ... حَليماً لا تَلجُّ ولا تُكابِرْ
يُفيدُك ما استفادَ بلا امتنانٍ ... مَن النُّكَتِ اللطيفةِ والنوادِرْ
وإيَّاكَ اللجوجَ ومَن يُرائِي ... بأنِّي قَد غَلبْتُ ومَن يُفاخِرْ
فإنَّ الشَّرَّ في جَنَباتِ هذا ... فَميِّز بالتقاطُعِ والتَّدَابُرْ

بين الجَدَل الإسلاميّ والسَّفْسَطَة

بعد الوقوف على هذه الأخلاق الجامعة لأدبِ المناظرة في الإسلام، نجد أنَّها تدورُ حول قيمتي: أخلاق الذات والإخلاص[3]، وبهذه الأخلاق ينفصلُ الجدل الإسلاميّ عن السَّفْسَطَة[4].

وتجدُر الإشارة إلى أنَّ السَّفْسَطَة تضربُ بجذورها في التاريخ اليونانيّ؛ وهي تعني عندهم: الحِكمَة والحَذَق، وقد اشتُقَّت منها السُّوفسطائِيَّة[5] التي أطلقها الفلاسفة

١_ سورة المائدة: ٨، انظر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: ١٧٥.

٢_ محمد مصطفى الشاذليّ: الجوهر النّفيس في تاريخ حياة الإمام محمّد بن إدريس، القاهرة، المطبعة الحسينية بمصر، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، ص: ٣٥. انظر أيضاً: أبي عبدالله محمد بن إدريس: ديوان الشافعيّ، جمع وتحقيق ودراسة: د. مجاهد مصطفى بهجت، دمشق، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م، ص: ٨٤.

٣_ راجع مقال: أخلاقيات المناظرة والحِجَاج (٢)، د. معتز الخطيب، موقع الجزيرة نت، ١٦/ ٦/ ٢٠٢٣م.

٤_ السفسطة: قياسٌ مركبٌ مِن الوهميَّات، والغرضُ منه تغليظ الخصم وإسكاته. التعريفات للجرجاني: ١٢٤.

5_ Sophism.

اليونانيين على الحِكمَةِ والحَذَق في الخطابة أو الفلسفة؛ وهي حركة فلسفيَّة ظهرتْ في القرن الخامس قبل الميلاد بأثينا، حيث نشأت على يدِ طائفةٍ من المعلِّمين الذين احترفوا مِهْنَةَ تعليم الناس فنَّ الكلام والبيان، وأساليب الخطابة المؤثِّرة والإلقاء والمناظرة والإقناع، وكانوا يتاجرونَ بالعلم ويتنقَّلونَ من مكانٍ إلى آخرَ يتقاضونَ أُجُوراً وفيرة على ما يقدِّمونه من تعليم، وهذه الحركة الفلسفيَّة تقومُ على الركائز التالية:

- **الإقناع بدل البرهان العلميّ أو المنطقيّ.**
- **استخدام قوة الخطابة والبيان والبلاغة والحوار.**
- **الإدراك الحِسِّيّ والظَّن.**

وهكذا بَرَعَ الفلاسفة السُّوفسطائيون في الجدلِ والخطابة واعتمدوا على الحجج والأدلة والبراهين. فكانت اللغة سلاحهم في الإثباتِ والتعليلِ والإقناع، غيرَ أنَّ السُّوفسطائيَّة ظلَّت شعاراً للجدلِ العقيم واللعبِ بالألفاظ وإخفاء الحقيقة، ومِن أشهرِ السُّوفسطائيين: الفيلسوف «بروتاغوراس» (٤٩٠ – ٤٢٠ ق.م.)[١].

غيرَ أنَّ الجَدَلَ الإسلاميّ كان قد انفصَلَ عن تلك السَّفْسَطَة اليونانيَّة في تنبِّيه لإظهارِ الحقّ، وفي تقديمه لبيانِ الحقيقة على قوة الخطابة والإقناع الجاف، ومِن هنا يأتي التفريق بين المناظرة كـ «**عِلْم**» والمناظرة كـ «**فَن**».

يُشير د. معتز الخطيب[٢] إلى أنَّ المناظرةَ بوصفِها عِلْمًا موضوعةٌ مِن أجلِ المباحثة لطلبِ الحقّ؛ فهي وسيلةٌ منهجيَّةٌ لِدَركِه، والمناظرة بوصفها فنًّا هدفها المباحثة بقصدِ الغَلَبَة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدُّق عند النَّاس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس. وهذه كلها أمور محورها هو المناظرُ نفسه وأخلاقه الباطنة، وفي كلتا الحالين ثَمَّة ترابطٌ بين المناظرة وسلوك المناظِر؛ إذ في الأولى المرجو أنْ يدرك الحقَّ

١ــ المدخل إلى فن المناظرة: ٢٥ – ٢٦.

٢ــ أستاذ فلسفة الأخلاق، كلية الدراسات الإسلامية، جامعة حمد بن خليفة، قطر.

ويعملَ به، وفي الثانية المرجو أن يستثمر المناظرة لتنمية رذائل نفسه وتحقيق مآربه، ومِن ثَمَّ كانت المناظرة على المعنى الثاني منبع جميع الأخلاق المذمومة[1].

وعلى ذلك، فالجدلُ الإسلاميّ على علاقةٍ بـ«علم المناظرة» الذي هو معاونةٌ على الوصولِ إلى الحقيقة، في حين أنَّ السَّفْسَطَة اليونانيَّة على علاقة بـ«فنّ المناظرة» الذي هو مباحثةٌ بقصدِ الغَلَبَةِ وإظهارِ الفَضل.

كما يصرِّح ابنُ حَزْم بمفارقة المتقدِّمين (اليونان) في التقصُّد بالمناظرة، إذ يقول: «فالمتقدِّمون يقولون: ليسَ على السائلِ بيانُ الحقيقةِ، وأمَّا نحنُ فنقول: إنَّ ذلك عليه، ومَن أبطلَ حُكْماً ما فعليه أنْ يبيِّن قوله، فإمَّا أنْ يدخل في مثلِ ما أبطل، وإمَّا أنْ يُجَلِّي الحيرة، وبيانُ الحقائقِ فرضٌ، وقد أخذَ الله تعالى ميثاق العلماء أنْ يبيِّنوا ما عَلِمُوا ولا يَكتُمُونَه[2]»[3].

الجَدَلُ المحمود والجَدَلُ المذموم

إذا ما تجاوزنا السَّفْسَطَةَ اليونانية التي تقومُ على قَصدِ المباهاةِ والمماراةِ واستمالةِ وجوه الناس؛ فإنَّنا بصددِ الحديث عن الجدل المحمود والجدل المذموم، وإنْ كانَ هذا الأخيرُ شبيهاً بتلك السَّفْسَطَةِ المذكورةِ آنفاً، فالجدلُ قد يكونُ حواراً ومحاجَّةً ومناظرة؛ فيكونُ محموداً، وقد يكونُ مُلاحاة ومُماراة ومُماحَلَة؛ فيكونُ مذموماً.

وقد أشارَ إمامُ الحرمين أبو المَعَالِي الجُوَينِي (ت: ٤١٥هـ) إلى التفريق بين هذين الجَدَلَين بقوله: «ثُمَّ مِنَ الجَدَلِ ما يكونُ مَحمُوداً مَرضِياً، ومنه مَا يكونُ مذمُوماً مُحَرَّماً؛ فالمذمومُ منه ما يكونُ لدَفعِ الحقّ، أو تحقيق العِنَاد، أو ليُلبس الحقَّ بالباطل، أو لما لا يُطلب به تعرف ولا تقرب، أو للمماراة وطلب الجاه والتقدُّم إلى غير ذلك مِنَ الوجُوه

١ـ أخلاقيات المناظرة والحِجَاج (٢)، د. معتز الخطيب، موقع الجزيرة نت، ١٦/ ٦/ ٢٠٢٣م.

٢ـ قالَ تعالى: ﴿وَإِذ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الَّذينَ أوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَلا تَكتُمونَهُ فَنَبَذوهُ وَراءَ ظُهورِهِم وَاشتَرَوا بِهِ ثَمَنًا قَليلًا فَبِئسَ ما يَشتَرونَ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٧).

٣ـ التقريب لابن حزم: ٥٩١، المناظرة الفقهية: ٦٩.

المنهـيِّ عنهـا، وهي التي نصَّ الله سـبحانه في كتابه على تحريمها .. وأمَّـا الجدالُ المحمُود المدعو إليه فهو الذي يحقِّق الحقّ ويكشف عن الباطل، ويهدف إلى الرُّشد، مع مَن يُرجَى رجوعُهُ عَنِ البَاطِلِ إلى الحقّ»[1].

وقالَ الفخرُ الرَّازِي في التفريقِ بين الجَدَلِ المحمُود والجَدَلِ المذمُوم: «لابدَّ مِنَ التوفيقِ بـين هـذه النصوص، فنحمل الجَـدَل المذموم على الجـدل في تقريرِ الباطـل، وطلبِ المالِ والجـاه، والجَـدَل الممدوح على الجَدَلِ في تقريرِ الحقِّ ودعوةِ الخلقِ إلى سـبيل الله، والذبِّ عن دينِ الله تعالى»[2].

الجِدَال المحمود

مـا كان بِنِيَّـةٍ خالصة، وأدَّى إلى خير، وهذا مِنَ الواجباتِ التي على المسـلم أنْ يفعلها لأجلِ دينه، قال شـيخُ الإسـلام ابـنُ تيمية ﷺ: «فكلُّ مَـنْ لَمْ يُناظر أهلَ الإلحـادِ والبِدَع مناظرةً تقطعُ دابرهم لَم يكن أعطى الإسـلامَ حقَّه، ولا وَفَّى بموجَبِ العِلْمِ والإيمان، ولا حَصَلَ بكلامِه شفاءُ الصُّدور وطمأنينةُ النفوس، ولا أفادَ كلامه العِلْمَ واليقين»[3].

والمجادلـةُ بالحـقِّ عبـادةٌ عظيمة؛ فعندما قـالَ قوم نوحٍ عليه السـلام لنبيِّهم: ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[4]، جادَلُهُـم لأجلِ تعريفهم بالحقّ، وإقناعهم به، ولذلكَ ردَّ عليهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[5].

١ـ الكافية في الجدل: ٢٢ – ٢٣.

٢ـ مفاتيح الغيب للرازي: ٥/ ١٨١.

٣ـ مجموع الفتاوى: ٢٠/ ١٦٤.

٤ـ سورة هود: ٣٢.

٥ـ سورة هود: ٣٣ – ٣٤.

وقد حفلتْ الآيات الكريمة في القرآن الكريم بقَصَصٍ مِنَ المناظرات بين مُوسَى وفرعون، وبين نوح وقومه، وبين إبراهيم والنمرود، وبين إبراهيم وأبيه، وبين إبراهيم وقومه، وبين النبيِّ ﷺ وقُريش، وبين الصحابةِ والمشركين، وهكذا.

فهذا جدالٌ مِن أهلِ الحقَّ لأهلِ الباطل؛ لإقناعهم، فهو جدالٌ محمود.

الجِدَال المذموم

هو كُلُّ جِدالٍ ظَاهَرَ البَاطِلَ أو أفضَى إليه، كما قالَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾[1]، يعني: ليدفعوه ويُبطلوه.

وقالَ تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[2]، يعني أنَّهم: مَاحَلُوا، وجادَلوا، وخاصَمُوا؛ ليُذهبوا الحقّ.

وقالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾[3]، فهذا وعيدٌ مِنَ الله للذين يُحاجُّون ويُجادِلُون في الله بعد ما استجابَ له المؤمنون، ويحاولون أنْ يصدُّوا المؤمنين عِنَ الله تعالى وعن سبيله، فتوعَّدَهُم اللهُ عزَّ وجلَّ.

وقالَ تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾[4].

وقالَ تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ

١ـ سورة الكهف: ٥٦.

٢ـ سورة غافر: ٥.

٣ـ سورة الشورى: ١٦.

٤ـ سورة غافر: ٤.

ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1]، أي: أخذته عن الأوائل، ونقلته مِن كُتُبهم وأفواههم.

وقالَ تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾[2]، فهم مجادلونَ بالباطل، كثيرُو الخُصُومة.

ويُبيِّن الشيخ محمَّد صَالِح المنجِّد أنَّ هذا الجِدالَ المذموم ينقسمُ إلى قسمين:

جِدالٌ بغيرِ عِلْم: وهو كما قالَ الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾[3].

وقالَ تعالى يخاطبُ أهلَ الكتاب: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[4].

والجدالُ في الله من المجادلةِ بغيرِ عِلْم، قالَ سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴾[5]، أي: شديدُ القوة، سبحانه وتعالى.

وقالَ تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[6]، فيزعُم أنَّ اللهَ لا يقدرُ على إحياءِ الموتى، ويأتي الكافرُ إلى النبيِّ ﷺ بعَظْمٍ قد بَلِيَ فَيَفُتُّه أمامه ويقول: أتزعُم أنَّ ربَّكَ يقدر على أنْ يُحيي هذا؟ وهكذا كانوا يجادلونَ النبيَّ ﷺ، ويُنكرونَ البعثَ بعد الموت.

١ـ سورة الأنعام: ٢٥.

٢ـ سورة الزخرف: ٥٨.

٣ـ سورة الحج: ٣.

٤ـ سورة آل عمران: ٦٦.

٥ـ سورة الرعد: ١٣.

٦ـ سورة الحج: ٣ – ٤.

وقالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾[1]، أي: متكبر، ويريد إضلالَ النَّاس عن سبيل الله.

ومما يُجادل فيه هؤلاء أيضاً: الساعة: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾[2]، وذلك مع أنَّ قيامَ الساعةِ من علمِ الغيب الذي لا يعرفه أحد.

والنوعُ الثاني من الجدالِ بالباطل: الجدال لنُصرةِ الباطل، والشَّغب على الحقِّ بعدما تبيَّن، كما قالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾[3].

قالَ ابنُ بطة ﷺ في الجدالِ المذموم: «إِنَّما هُوَ لَهوٌ يُتَعَلَّمُ، وَدِرايَةٌ يُتَفَكَّهُ بِها، وَلَذَّةٌ يُستَراحُ إِلَيها، وَمُهارَشَةُ العُقُولِ، وَتَذرِيبُ اللِّسانِ بِمَحقِ الأَديانِ، وَضَراوَةٌ عَلَى التَّغالُبِ، واستِمتاعٌ بِظُهُورِ حُجَّةِ المُخاصِمِ، وَقَصدٌ إِلى قَهرِ المُناظِرِ، والمُغالَطَةِ في القِياسِ، وَبَهتٌ في المُقاوَلَةِ، وَتَكذِيبُ الآثارِ، وَتَسفيهُ الأحلامِ الأَبرارِ، وَمُكابَرَةٌ لِنَصِّ التَّنزِيلِ، وَتَهاوُنٌ بِما قالَهُ الرَّسُولُ، وَنَقضٌ لِعُقدَةِ الإِجماعِ، وَتَشتِيتُ الأُلفَةِ، وَتَفرِيقٌ لِأَهلِ المِلَّةِ، وَشُكُوكٌ تَدخُلُ عَلَى الأُمَّةِ، وَضَراوَةُ السَّلاطَةِ، وَتَوغِيرٌ لِلقُلُوبِ، وَتَولِيدٌ لِلشَّحناءِ في النُّفُوسِ. عَصَمَنا اللهُ وَإِيَّاكُم مِن ذَلِكَ، وَأَعاذَنا مِن مُجالَسَةِ أَهلِهِ»[4].

١ـ سورة الحج: ٨ – ٩.

٢ـ سورة الشورى: ١٨.

٣ـ سورة غافر: ٥.

٤ـ الإبانة: ٢/ ٥٣١.

أخلاقيات المناظرة عند الشافعي

بدايةُ الشافعيّ

قبل الحديث عن آداب المناظرة عند الشافعيّ؛ يحسُن بنا إلقاءَ نظرةٍ على بداياته الأولَى وخريطة تنقُّلاتِهِ في الأمصار، وهي على صِلةٍ بهذه المناظرات والمجادلات الحَسَنَة التي أصبحت فيما بعد سبباً في نشوءِ مذهبه وطريقته في النظر إلى مسائلِ الفِقه.

وُلِدَ الشافعيُّ سنة ١٥٠ هـ في "غَزَّة" بفلسطين، وقيل بـ "عَسْقَلان"، وقد نَحَى بعضُ العلماء إلى الجمعِ بينهما؛ بأنَّ عسقلان هي الأصل في قديمِ الزمان، وهي وغزَّة متقاربتان، وعسقلان هي المدينة، فحيثُ قال الشافعيُّ "غَزَّة" أرادَ القرية، وحيثُ قالَ "عَسْقَلان" أرادَ المدينة[١]، أو أنَّه وُلِدَ في قريةٍ صغيرةٍ بينهما، فساغَ أن يُضاف إلى إحداهما[٢].

وقد ذُكِرَ أنَّ هذه السَّنَّة التي وُلِدَ فيها الشافعيّ، هي تلك التي تُوفِّي فيها الإمام أبو حَنِيفَة، كما زادَ بعضهم فقال: إنَّه وُلِدَ في الليلةِ التي تُوفِّي فيها أبو حَنِيفَة، وما كانت هذه الزيادة إلا ليقول الناس: ماتَ إمامٌ، فجاءَ في ليلةِ موته إمامٌ آخر[٣]، ومِنَ المرجَّح أن يكون لهذا الربطِ المذكورِ بين الإمامين الجليلين علاقةٌ بالمقدرةِ الحِجَاجِيَّة لأبي حَنِيفَة، والتي كان للشافعيِّ منها نصيبٌ وافِر؛ فقد ذُكِرَ أنَّه قيلَ للإمام مَالِكٍ: هل رأيتَ أبا حَنِيفَة؟، قال: نعم، رأيتُ رَجُلاً لَو كَلَّمَكَ في هذه السَّارِيَةِ أنْ يجعلَها ذَهَباً لَقَامَ بِحُجَّتِه[٤]!.

١ـ عبقرية الإمام الشافعي: ٣٧.

٢ـ التنكيل للمعلمي: ١/ ٦٦٨.

٣ـ الشافعي (حياته وعصره .. آراؤه وفقهه): ١٧.

٤ـ نزهة الفضلاء: ٢/ ٦٧٢.

هذا وينتهي نسب الشافعيّ إلى قبيلة قريش، ويلتقي مع النبيِّ ﷺ في عبدِ مَناف؛ فهو **مُحَمَّد بن إدريس بن العبَّاس بن عُثمان بن شَافِع بن السَّائِب بن عُبَيد بن عبد يَزِيد ابن هَاشِم بن المطَّلِب بن عبد مَنَاف**، فهو قُرَشِيّ مُطَّلِبِيّ.

والأخبارُ تتَّفق على أنَّ الشافعيّ عاشَ عيشةَ اليتامَى الفقراء، فهو قد وُلِدَ ذا نَسبٍ رَفيعٍ شَريف، وهو أشرف الأنساب في زمانه، ولا يزال أشرف الأنساب على مرِّ الدُّهور، ولكنه عاشَ عيشة الفقراء إلى أنْ استقامَ عُودُه، ويُشير الشيخ مُحَمَّد أبو زُهرة إلى أنَّ النشأةَ الفقيرة مع النسبِ الرفيع تجعلُ الناشئَ ينشأُ على خُلُقٍ قَويم، ومسلَكٍ كريم، إنْ انتفَت الموانع، ولم يكن ثَمَّة شُذُوذ؛ ذلك بأنَّ عُلُوَ النَّسبِ وشرفه يجعلُ الناشئ منذ نعومة أظفاره يتَّجه إلى معالي الأمور، ويتجافَى عن سَفسافِها، ويرتفع عن الدَّنايا، فلا يرضَى بالدَّنِيَّة، ويسعى إلى المجدِ بِهِمَّةٍ وجَلَد، ليرفعَ خسيسةَ الفقر، وذُل الحاجَة، ثمَّ إنَّ نشأته فقيراً مع ذلك الطموح بِنَسَبِه، تجعله يحسُّ بإحساسِ النَّاس، ويندمجُ في أوساطِهِم، ويتعرَّف خبيئةَ نفوسهم، ودخائلَ مجتمعهم، ويستشعرَ بمشاعرهم، وذلك أمرٌ ضروريٌّ لكلِّ مَن يتصدَّى لعملٍ يتعلَّق بالمجتمع، وما يتَّصل به في معاملاتِه وتنظيمِ أحوالِه، وتوثيقِ علائقِه، وإنَّ تفسيرَ الشريعة، واستخراجَ حقائقها، والكشف عن موازينها ومقاييسها، يتقاضى الباحث ذلك[1].

ولَمَّا بلغَ الشافعيُّ سنتين مات أبوه، فحملته أُمُّه إلى دارِهم بالحِجاز في أجياد، فنشأ بمكَّة، وترعرعَ بها، وجالسَ أهلَ العِلمِ وفُتِحَ عليه فيه ما حُرِمَ غيره مثلُه، ثمَّ إنَّه لَمَّا بلغَ الثالثة عشرة مِن عُمرِه، رحلَ إلى المدينة ولقي بها الإمام مَالِكاً، وذلك سنة ١٦٣هـ، وأقامَ بها إلى أن تُوفِّي مَالِك سنة ١٧٩هـ، وفي أثناءِ ذلك كان يتردَّد إلى مكَّة بين الفَينةِ والأخرى[2].

١_ الشافعي (حياته وعصره .. آراؤه وفقهه): ١٩ – ٢٠.

٢_ عبقرية الإمام الشافعي: ٣٨.

وقد ظهرتْ أماراتُ النُّبوغ على الشافعيّ في مرحلةٍ مبكِّرةٍ مِن حياته، وسجَّل له ذلك مشايخُه الأوائل في مكَّة، فَمِن ذلك أنَّ شيخه مُسلِم بن خَالِد الزنجي (ت: ١٧٩ هـ) – فقيه مكَّة – أَذِنَ له في الإفتاءِ وسنُّ الشافعيّ دونَ العشرين، فقال له: «**افتِ يا أبا عبدالله، فقد آنَ لَكَ أنْ تُفْتِي**»[١].

وكان يصحُّ أنْ يقفَ الشافعيُّ عند هذا القَدْر، وقد بلغَ منزلةَ الإفتاء، ولكنَّ همَّته في طلبِ العِلم لا تقفُ به عند حدّ، فقد وصلَ إليه خبرُ إمام المدينة مَالِك ﷺ، وكان ذلك في وقتٍ انتشرَ فيه اسمُ مَالِكٍ في الآفاق وتناقلته الرُّكبان، وبلغَ شأواً مِنَ العِلمِ والحديث بعيداً، فَسَمَتْ هِمَّةُ الشافعيّ إلى الهجرة إلى المدينة في طَلَبِ العِلم، ولكنَّه لم يُرِد أنْ يذهبَ إلى المدينة خالِيَ الوِفَاض مِن عِلمِ مَالِك، فقد استعارَ الموطأ من رجلٍ بمكَّة، وقرأه، والروايات تقول أنَّه حَفِظَه، ولعلَّ حفظه الموطأ، وقراءته، كانت مضاعفةً لباعثِ الذهاب لإمام دار الهجرة، فقد استطاع أنْ يستأنسَ منه بِفِقهِ مَالِك، مع ما رواه من أحاديثِ النبيِّ ﷺ[٢].

إشراق الحُجَّة الأخلاقيَّة بين عِلمَي الحديث والفِقه

توجَّهت عناية الشافعيِّ في مقتبلِ عمرِه نحو دراسة علم الحديث النبوي، الذي أصبح فيما بعد سبباً في إشراق حُجَّتِه الأخلاقيَّة؛ بما يحمله هذا العلم من مسئوليَّةٍ دينيَّةٍ يستشعرُها كلٌّ مِنَ العالِمِ والمتعلِّم في العناية بكلام النبيِّ ﷺ وتحييدِ الزَّيفِ عنه؛ فالتوجُّه الأخلاقيّ كان – ولا يزال – حاضِراً بقوةٍ في بِنيَةِ علمِ الحديث، القائم بالأساس على **الإسناد** الذي هو «مِن أهمِّ خصائص الأُمَّة المحمَّديَّة في تبليغ الشريعة المطهَّرة وعلومِها من السلفِ إلى الخلف، فقد كان الإسنادُ الشرطَ الأولَ في كلِّ علمٍ منقولٍ فيها، حتى في

١_ مناقب الإمام الشافعي للرازي: ٣٧، معرفة السنن والآثار للبيهقي: ١/ ١٩٩.
٢_ الشافعي (حياته وعصره .. آراؤه وفقهه): ٢١ – ٢٢.

الكلمةِ الواحدة، يتلقَّاها الخالفُ عَنِ السَّالِف، واللاحق عن السابقِ بالإسناد»[1]، حتى قال عبدالله بن المبارك: «مَثَلُ الذي يَطْلُبُ أمرَ دينِه بلا إسناد، كَمَثَلِ الذي يرتقي السطح بلا سُلَّمٍ»، وقال أيضاً: «بيننا وبينَ القومِ القوائم» يعني بالقوائم: الإسناد، وبالقوم: أهل البِدَع ومَن شاكَلَهُم[2].

وقد عبَّر الشافعيُّ يوماً عن هذا المعنَى بقولِه[3]:

كلُّ العُلومِ سِوى القُرآنِ مَشْغَلَةٌ إلا الحديثَ وإلا الفقهَ في الدِّينِ

العلمُ ما كانَ فيه قال: (حدَّثنا) وما سوى ذاكَ وسواسُ الشَّياطينِ

أثمرتْ عنايةُ الشافعيّ المبكِّرة في طلب الحديث والفقه، في أنْ يرحلَ إلى إمامِ دارِ الهجرة مالك بن أنس، الذي رأى فيه أمارات النبوغ؛ فبادرهُ بالوصيةِ قائلاً: «**يا مُحَمَّد، اتَّقِ الله واجتنب المعاصي، فإنَّه سيكونُ لَكَ شأنٌ مِنَ الشَّأن**»[4]، وهذه عادة أهل العلم في العناية بأصحابِ الحذقِ والتجويد.

ويُلاحظ أنَّ المدينة كانت أيامَ الشافعيِّ، هي القلبُ لمدرسةِ أهل الحديث «الذين يعتمدونَ في استنباط الأحكام على النصوص، ولا يرجعونَ إلى القياس ما وجدوا خَبَراً أو أثراً»[5]، وتقابلها مدرسةُ أهلِ الرأي بالعراق «الذين يعتنونَ بتحصيلِ وجهٍ مِنَ القياس، وبناءِ الحوادثِ على ذلك»[6]، وقد ذكر الفخرُ الرازي أنَّ الشافعي قد استفادَ العلمَ مِن جمعٍ كثيرٍ من العلماء؛ إلا أنَّ أجلهم وأفضلهم هو مالك بن أنس، عن نافع، عن

١ـ عبدالفتاح أبو غدة، الإسناد من الدين: ١١.

٢ـ نفس المصدر السابق.

٣ـ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٥٤، ديوان الشافعي: ١٤٣.

٤ـ ترتيب المدارك للقاضي عياض: ٢/ ١٣٧.

٥ـ وهم أصحاب مالك بن أنس، وأصحاب محمد بن إدريس الشافعي، وأصحاب سفيان الثوري، وأصحاب أحمد بن حنبل، وأصحاب داود بن علي الأصفهاني. انظر: الملل والنحل للشهرستاني: ٣/ ٦.

٦ـ نفس المصدر السابق.

ابنِ عمر[1]، فكان الشافعيُّ يقول: «**مَن أرادَ الحديثَ الصحيحَ فعليه بمالك**»[2].

وتظهر دلائل عناية الشافعيّ بعِلمي الحديثِ والفقه في حِفظِه لـ «مُوَطَّأ» مَالِك وهو في العاشرة في عُمرِه، وعندما ارتحلَ إليه بالمدينة وعُمره ثلاثَ عشرةَ سنةً، استأذنه الشافعيّ في أنْ يقرأَ عليه «الموطَّأ»، ولكنَّ مَالِكاً استصغاراً لِسِنِّهِ قالَ له: «اطلبْ مَن يقرأ لك»، فقال له الشافعيّ: «**لا عليك أن تسمعَ قراءَتِي، فإنْ أعجبتكَ قراءَتِي، وإلا طلبتُ مَن يقرأ لي**»، فسمعها مالكٌ وأُعجِبَ بِها، حتى إنَّ الشافعيّ كلَّما توقَّف، طلب منه مالكٌ أنْ يواصل، وقال له: يا فَتَى، زِدْ، فأتمَّ الشافعيُّ بذلك «الموطَّأ» في أيامٍ يسيرة[3].

فكانت هذه العناية بعِلمي الحديثِ والفقه سَبَباً مِن أهمِّ أسبابِ قوَّة حُجَّتِه؛ فقد ذكر الإمام البيهقيّ (ت: ٤٥٨ هـ) أنَّ المُزَنِي نقلَ عن الشافعيِّ قوله: «**مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ عَظُمَتْ قِيمَتُه، وَمَنْ تَفَقَّه نَبُلَ قَدْرُه، ومَن كَتَبَ الحديثَ قَوِيَتْ حجَّتُه**، ..»[4]، فكان الشافعيُّ مُحيطاً بسائرِ هذه العلوم، مناظراً ومجادلاً عنها بالحقّ، وما كان له ذلك إلا ببركةِ أخذِه للقرآن في سِنٍّ مبكِّرة.

ولا عجبَ – إذن – أن يكثُرَ الربط عند كثيرٍ من العلماءِ؛ بين الشافعيّ، وبين الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، الذي كان من أكابرِ فقهاء الإسلام، ومِنَ المكثرِينَ في الفُتيا، فقد كان مِمَّن يُفتونَ على عهدِ النَّبِيِّ ﷺ[5]، فنجد أنَّ الرّبيع بن سُليمان كان يقول: «**لقد فَشَا**

١_ مناقب الإمام الشافعي للرازي: ٤٦.

٢_ مناقب الشافعي للبيهقي: ١/ ٥٢٣.

٣_ عبقرية الإمام الشافعي: ٤٨.

٤_ أدب الدين والدنيا: ٧٧، ذيل مناقب الشافعي: ٢٧، مواعظ الإمام الشافعي: ٥٠.

٥_ فعن القاسم بن محمد، قال: «**كان أبو بكر وعُمر وعُثمان وعلي يُفتونَ على عهدِ رسولِ الله** ﷺ». انظر: طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٣٥، ومن طريقٍ آخر: ٢/ ٣٥٠، وانظر: علي بن أبي طالب ﷺ أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين: ١٢٦.

ذكرُ الشـافعيّ بالعِلْمِ كما فَشَـا ذِكْرُ عليِّ بن أبي طالبٍ ﷺ وأرضاهُ بالفَضْل»[1]، وكان أبو عبدالله الزَّبَيْريِّ يحكي عن بعض العلماء قولهم بأنَّ «**منزلةَ الشافعيِّ في العلماءِ كمنزلةِ عليٍّ في الصحابـة**، فإنَّه كان أعلمَهم وأقضاهم، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَقْضَاكُم عَلِيٌّ**»[2]، كذلك الشافعيُّ كان أعلَمَ العلماء بالفِقهِ والقضايا»[3].

ولمَّا كان الفِقهُ لَصِيق الصِّلَةِ بالأخلاقِ الإسلاميَّة، استطاعَ الإمامُ الشاطبيُّ أنْ يهتدي إلى عِلـمِ المقاصد؛ من خلال النظر والتأمَّل في هذه الصِّلَة الوثيقة؛ وهنا يُشـير د. إدريس غازي إلى أنَّ «السـؤالَ الخفي الذي يوجِّه الشـاطبيَّ في أبحاثِه وتنظيراتِه يتمثَّل في السبيل الأقـوم الذي يحقِّق الصلة بين الفقهِ والأخلاق باعتبار هذه الأخيرة أمُّ القِيَمِ والمقاصد .. فكانَ الشـاطبيُّ موفَّقاً كلَّ التوفيق حينما اهتَدَى إلى المقاصد باعتبارها جملةَ القِيَم والمعاني الأخلاقيَّة التي اسـتهدفَ الشـارعُ تحقيقها»، وبعبارةٍ أخرى: فإنَّ منطق الخطاب الفقهيّ موثوق الصِّلَة بالعملِ الأخلاقيّ؛ أي إنَّه ليس منطقاً نظرياً مجرَّداً[4].

الشافعيُّ مناظراً في العراق

لإنْ كانـت المدينـة هي أولى محطات الشـافعيّ في إشراقِ الحُجَّة الأخلاقيَّـة، فَلِلْعِرَاقِ فضلٌ لا يُنكر في تثبيت دعائم هذه الحُجَّة في مناظراتِهِ الفقهيَّة، فقد كانت له عدة قَدَماتٍ إلى العـراق، وكان أخـصُّ مَـن لقيه الشـافعيُّ مِنَ العراقيـين وأفادَ منه: **مُحَمَّدُ بن الحَسَـن الشَّيْبَاني** – لسانُ مذهبِ أبي حَنِيفَة –، فجالسهُ الشافعيُّ لَمَّا قَدِمَ إلى العراق القَدْمَةَ الأولى سنة ١٨٤هـ، على أنَّه كان يعرفُ لمحمَّد بن الحَسَن منزلتَه لَمَّا كان في الحِجَاز قبلَ أن يرحلَ إلى العراق[5].

١ـ ذيل مناقب الشافعي: ٣٢.

٢ـ أخرجه ابن ماجه (١٥٤)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

٣ـ نفس المصدر السابق.

٤ـ المناظرة الفقهية: ١٣٩، نقلاً عن كتاب: القول الأصولي المالكي ومناهج الحِجَاج لإدريس غازي: ١٣٧.

٥ـ عبقرية الإمام الشافعي: ١٨٤.

وهنا ينبِّه الشيخ أبو زُهرة إلى أنَّ الشافعيّ كان يلزم حلقةَ مُحَمَّد بن الحَسَن، ولكنَّه مع ذلك يعتبرُ نفسَه مِن أصحابِ مَالِك، ومِن فقهاءِ مذهبِه، وحَمَلَةِ «مُوَطَّئِهِ»؛ يُحامِي عليه ويدافعُ عنه وعن فِقهِ أهلِ المدينة، ولذلك كان إذا قام مُحَمَّد مِن مجلسِه، ناظرَ أصحابه ودافعَ عن فِقهِ الحِجازيين وطريقتهم، ولعله كان لا يناظر مُحَمَّداً نفسه إعظاماً لمكانِ الأستاذ، ولكنَّ مُحَمَّد بَلَغَه أنَّه يناظر أصحابه، فطلبَ إليه أنْ يناظره، فاستحيا الشافعيُّ وامتنع، وأصرَّ مُحَمَّد، فناظره مستكرهاً في مسألةٍ كَثُرَ استنكارُ أهلِ العراق فيها لرأيِ أهلِ الحِجاز[1]، فناقشَ الشافعيُّ مُحَمَّداً فيها، ويقولُ الرواةُ مِنَ الشافعيةِ أنَّ الفَلَجَ[2] كان للشافعيّ[3].

وقد سَبَقَ وأنْ فعلَ الشافعيُّ هذا الفعلَ في المدينةِ حين ظهرتْ له بعض الآراء التي خالفَ فيها أستاذه مَالِك، إلا أنَّه لم يصرِّح له بذلك، فهذا الامتناعُ منه دليلٌ على أخلاقيَّته وحكمتِه في تجنُّب إظهارِ الخِلاف في حالاتٍ بِعَيْنِها؛ فليس كلُّ ما يُعرف يُقال، وليس كلُّ ما يُقال حانَ وقتُه!.

فهذا مظهرٌ مِن مظاهرِ الأخلاق الذي أظهره الشافعيُّ في خلافه مع بعض آراء أصحابِ الفضل عليه، وقد جنَّبه هذا النهج الأخلاقيّ كثيراً مِنَ الزَّلَلِ الذي وقعَ فيه طائفةٌ مِن علماءِ هذا العصر الموصوف بأنَّه «عصر المناظرات الفقهية المثمرَة».

أقامَ الشافعيُّ في بغداد تلميذاً لابن الحَسَن، ومناظراً له ولأصحابِه، على أنَّه فقيهٌ مدنيّ مِن أصحابِ مَالِك، ثمَّ انتقلَ بعد ذلك إلى مكَّة، ومعه مِن كُتُبِ العراقيين حِمْلُ بعير، ولم يذكر أكثر الرواة مدةَّ إقامته في بغداد في هذه القَدْمَة، ولابد أنَّه أقامَ مُدَّةً معقولةً تكفي للتخرُّج على أهلِ الرأي ومُدَارَسَتُهُمْ، ولعلها كنت نحو سنتين[4].

١ـ وهي مسألة الشاهد واليمين.

٢ـ فَلَجَ بِحُجَّتِه: أحسنَ الإدلاءَ بِها فغلبَ خصمَه. انظر: المعجم الوسيط: ٦٩٩.

٣ـ الشافعي (حياته وعصره .. آراؤه وفقهه): ٢٦.

٤ـ نفس المصدر السابق: ٢٧.

وخلالَ هذه الفترة الوجيزة التي قضاها الشافعيُّ في بغداد؛ رأى مِن عظيمِ عِلْمِ مُحَمَّد بـن الحَسَـن وفقهِه وجدلِه، ما جعله يسـجِّل شـهادةً عزيزةً تدلُّ على أنَّه لم يَـرَ عِدْلاً له في العِلمِ، فيقول[1]:

«مَا رَأَيْتُ مِثْلَ مُحَمَّـد بن الحَسَن»

وقـد اسـتكثَرَ الآبـريُّ ذلك عـلى مُحَمَّد بـن الحَسَـن، فعلَّق عـلى كلامِ الشـافعيِّ بقوله: «الشـافعيُّ ﷺ رأى مَالِك بن أنس وسُـفيان بن عُيَيْنَة ومُسلِم بن خَالِد الزنجيّ وغيرهم مِن أَجِلَّةِ العلماء، وإنَّما عَنِيَ بقوله «مَا رَأَيْتُ مِثْلَ مُحَمَّد بن الحَسَن» يعني: في أهل الرأي.

وهنا يلفت د. مشـاري الشَّـثْري النَظَرَ إلى أنَّه على الرغم مِن أنَّ مَن سـمَّاهم الآبريُّ مِن ساداتِ أهل العِلمِ وكبرائهم، إلا أنَّ لمُحمَّد بن الحَسَن عليهم فضلَ الصَّنعة الفقهيَّة المتَّصلـة بالحِجَاجِ والجَدَل، وكذا التمهُّر في دقائقِ المسـائل، وتلك الصَّنعة وهذا التمهُّر يخلبـانِ لُـبَّ مَـن كان مثـل الشـافعيّ، فحـينَ يصرِّح بأنَّـه لم يَـرَ مثله؛ فهـو يقصد ذلك ويدركـه، وليـس مرادُه ما قد يُظَنُّ مِـن أنَّه تفضيلٌ لمنهج ابن الحَسَـن، فهذا بابٌ آخر لم يُرِده الشـافعيّ، بل أراد هذا الذي ذكرتُه مِن ملـكاتِ هذا الإمام وقدرته على التصرُّف في الفقه والرأي والحِجَاج[2].

وبذلك يظهر فضلُ مدرسـةِ أهل الرأي بالعراق – وبخاصَّة مُحَمَّد ابن الحَسَـن – على الشـافعيّ؛ في تقويـةِ وتثبيتِ مَلَكَاتِـه الحِجَاجِيَّة في مسـائل الفقه، فقد أُثِـرَ عنه قوله: «ما كلَّمتُ أسـودَ الـرأس أعقلَ مِن مُحَمَّد بن الحَسَـن»، وقوله: «لو أنَّ مُحَمَّد بن الحسـن كان يكلِّمنا على قَدرِ عقله ما فهمنا عنه، لكنَّه كان يُكَلِّمنا على قدرِ عقولنا فنفهمه»[3].

وعلى الرغم مِن هذه المكانة العالية التي أنزلها الشافعيُّ لابنِ الحَسَن؛ إلا أنَّه قد دارتْ بينهما

١ـ عبقرية الإمام الشافعي: ١٨٥، عن مناقب الشافعي للآبري: ٧٨.
٢ـ عبقرية الإمام الشافعي: ١٨٦.
٣ـ حلية الأولياء لأبي نعيم: ٩/ ١٣٥، عبقرية الإمام الشافعي: ١٨٦.

مجادلاتٌ ومناظراتٌ علميَّة اتَّسمتْ بالإنصافِ الأخلاقيّ؛ فـ«مَن تدبَّر مناظرات الشافعيِّ لمُحمَّد؛ وَجَدَها مناظرة الأكِفَّاء، وعَلِمَ منها أنَّ الشافعيّ كان حينئذٍ مُجتهِداً كاملاً، وأنَّ مُحمَّداً – مع مكانته مِنَ الفِقهِ والسنِّ والمنزلة مِنَ الدَّولةِ وكثرةِ الأتباع – على غايةٍ من الإنصافِ في البحث والنَّظر. والإنصاف أنَّه كان لتلك المناظرات أثرٌ في الرَّجلينِ فاتَّفقا على مسائل رجعَ فيها الشافعيُّ عمَّا كان يتابع فيه مَالِكاً، أو رَجَعَ مُحمَّد عَمَّا كان يُتابع فيه أبا حَنِيفَة»[1].

حِكمَةٌ شافعيَّة أمام الرَّشيد

اعتمدَ الشافعيُّ البرهانَ بالحُجَّةِ الأخلاقيَّة سِلاحاً في وجه التقليد الذي سادَ كثيراً مِن جوانب عصره؛ ومِن بينِ أظهر المواقف التي استدعت منه استخدام هذه الحُجَّة: يوم أنْ لَقِيَ هارون الرَّشيد حينما استُدعِيَ الشافعيُّ إلى بغداد سنة ١٨٤ هـ بناءاً على وِشايةٍ وصلت إلى الرَّشيد عنه وعن جماعةٍ مِنَ العلويين.

كان الشافعيُّ على دِرَايةٍ بالبُعد التاريخيّ لهذه القضية التي أرَّقت مضاجعَ العباسيين؛ فحينما ارتقى الرَّشيد منصب الخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠ هـ، كان أمامه مجموعة مِنَ التحديات الداخليَّة الكبيرة وعلى رأسها المعارضة العلويَّة الطالبيَّة التي لم ترضَ في أغلبها بصعود بني أعمامهم العباسيين إلى عَرشِ الخلافة، وقد رأوا على الدوام أنَّهم الأحقّ بهذا المنصب منذ خروج الحُسين بن علي ﷺ، واستشهاده في موقعة كربلاء زمن يزيد بن معاوية. وهذه التحديات التي واجهتْ الرَّشيد في مقتبلِ خلافته، وبخاصة مواجهته لهؤلاء العلويين، حملته على الأخذ على أيديهم بالشدة كي لا يكون على أيديهم سقوط خلافة بني العبَّاس.

أُحضِرَ الشافعيُّ مَعَ مَن أُحضِروا إلى الرَّشيد الذي كان حازماً تجاه مَن تثبُت إدانته في هذه القضية، فكان متَّهماً بالتآمر على الدولة العباسيَّة، والطعن على الرَّشيد وأنَّه لا يصلح

١ـ التنكيل للمعلمي: ١/ ٧٠٩.

للخلافة، فضُربت بين يديه تسعُ رقاب، فلمَّا جاءَ دَورُ الشافعيّ، قال له: «يا أميرَ المؤمنين، أنا لستُ بطالبيّ، ولا علويّ، وإنَّما أُدخلتُ في القومِ بغياً عليَّ، وإنَّما أنا رجلٌ مِن بني المُطَّلِب بن عبد مناف بن قُصَيٍّ، ولي مع ذلك حظٌّ مِنَ العِلمِ والفِقه، والقاضي يعرفُ ذلك، أنا مُحَمَّدُ بنُ إدريس بن العبَّاس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المُطَّلِب بن عبد مناف. فقال لي: أنت مُحَمَّدُ بنُ إدريس؟ فقلتُ: نعم يا أميرَ المؤمنينَ. قال: ما ذكرك لي مُحمد بن الحَسَن – وكان القاضي محمد بن الحسن الشَّيْباني قاعداً بين يدي الرشيد – ثم عَطَفَ على مُحَمَّد بن الحَسَن، فقال: يا مُحَمَّدُ، ما يقولُ هذا، هو كما يقوله؟ قال: بَلَى، وله مِنَ العِلمِ مَحَلٌّ كبيرٌ، وليس الذي رُفِعَ عليه مِن شأنِه، فقالَ الرَّشيد: فخذه إليك حتى أنظر في أمرِه. فأخذني مُحَمَّدٌ، وكان سبب خَلاصِي لما أرادَ الله عزَّ وجلَّ منه»[1].

في هذا الموقف الحَرِج الذي تعرَّض إليه الشافعيّ جرَّاء هذه الفتنة التي لا ناقةَ له فيها ولا جمل؛ نجده قد تحلَّى في حديثه أمام الرَّشيد، بأقصى درجات ضبط النفس؛ فقد استخدمَ حُجَّتَه الأخلاقيَّة في إقناع الرَّشيد بعدم صلته بهذه الطائفة مِنَ العلويين، وأنَّه مِن بَنِي المُطَّلِب، ثم استشفعَ بفقيه أهل الكوفة الذي كان حينئذٍ في حضرةِ الرَّشيد، وهو مُحَمَّد بن الحَسَن الشَّيْباني صاحب أبي حَنِيفَة.

وهنا يُشير الشيخ سلمان العودة إلى أنَّه على الرغم من حاجةِ الشافعيِّ في هذا الموضعِ للخَلاص؛ إلا أنَّه اكتفى بقوله: «**عَلَى حظٍّ مِنَ العِلْمِ والفِقْه**»، تعبيراً عن تميُّزه واختلافِه عمَّن حُشِرَ معهم، ولم يشأ أنْ يستطردَ أكثرَ مِن ذلك؛ تواضعاً ومعرفةً بما يحسُن أنْ يُقال في هذا المقام[2]، وهذا مِنَ الحِكمَةِ في استخدامِ الحُجَّةِ الأخلاقيَّة؛ فليسَ كلُّ ما يُعْرَف يُقال، وليس كلُّ ما يُقال حَضَرَ أهله!.

١_ مناقب الشافعي للبيهقي: ١/ ١١١ – ١١٤.

٢_ سلمان العودة: مع الأئمة: الجوامع والفروق والسِّيَر، الرياض، مؤسسة الإسلام اليوم، الطبعة الثالثة، رمضان ١٤٣٤هـ، ص: ١٣١.

صَلاةُ الشافعيِّ وأخلاقه

أدركَ الشـافعيُّ ببصيرتِـهِ تلـك العلاقـة بين صلاة المـرء وأخلاقه، فكان مِن أحسـنِ النَّـاسِ صـلاةً، أورَدَ البيهقيُّ أنَّه قـرأَ في كتابِ أبي نُعيم الأصبهـانيّ، أنَّ إبراهيمَ بن مُحَمَّد كان يقـول: «**ما رأيتُ أحْسَـنَ صلاةً مِن مُحَمَّد بن إدرِيس الشَّـافِعِيّ**؛ وذلـك أنَّه أخذ مِن مُسـلِم بن خَالِد الزنجيّ، أظنُّه قال: وأصحابُ ابنِ جُرَيجٍ أخذوا عن ابنِ جُرَيج، وأخذَ ابـنُ جُرَيـجٍ مِن عَطَاءٍ، وأخـذَ عطاءٌ مِن عبدالله بـن الزبير، وأخذَ ابنُ الزبـيرِ من أبي بكر الصِّدِّيق، وأخذَ أبو بكر مِنَ النبيِّ ﷺ، وأخذَ النبيُّ ﷺ مِن جبريل عليه السَّلام»[1].

ويُلاحَـظ أنَّ أهلَ العلم قـد توقَّفوا كثيراً عند صلاة ابن الزبير؛ فقد أوردَ الإمام أحمد في مسـنده: «حدَّثنـا عبدالرَّزَّاق قال: أهل مكَّـة يقولون: «أخذَ ابن جريـج الصلاةَ عن عطاء، وأخذهـا عطـاء من ابن الزبير، وأخذها ابـنُ الزبير من أبي بكر، وأخذهـا أبو بكر من النبي ﷺ»[2]، وحـين حـاصَرَ الحَجَّاج بن يوسـف مكَّة ونَصَبَ المنجنيق على جَبَـلِ أبي قُبَيْس عام ٧٢هـ، وأخذَ يرمي ابن الزبير وكتيبته بالحِجَارَة والنفاطات، فكسرَ وأحرقَ، ومع ذلك كله فقـد كان ابـن الزبير يَصُفُّ قدميـه خلفَ المقامِ يصلِّي، فإذا دخلَ في صلاتـه ذُهِلَ عمَّا حولَه، وقـد كان هذا مشـهداً لَفَـتَ التابعينَ الآخذينَ عن ابـن الزبير، ومِن ذلك مـا ذكره التابعي العابد الذي كان يسمَّى سيد القرَّاء وهو مُحَمَّد بن المنكدر، حيث يقول: «لو رأيت ابن الزبير وهو يصلِّي لقُلت غُصن شجرة يصفقها الريح، وإنَّ المنجنيق لَيَقَع ههنا وههنا ما يُبالي»[3].

خصائص المنهج الأخلاقيّ عند الشافعيّ

ارتسـمتْ ملامـح شـخصيَّة الشـافعيّ في حِجَاجِـهِ الأخلاقيّ؛ مِن خـلال اختلاطه بمدرستَي أهل الحديث بالمدينة، وأهل الرأي بالعراق، اللَّذَين كان لهما تأثيرٌ عظيم في بناءِ

١_ ذيل مناقب الشافعي: ١٠٧.

٢_ مسند الإمام أحمد (٧٣).

٣_ حلية الأولياء لأبي نُعيم: ١/ ٤٠٦، انظر: مسلكيات لإبراهيم السكران: ١١٦.

وصَقْلِ شخصيَّتِهِ الفكريَّة، فلم يكن اختلاطه بأحدِ هاتينِ المدرستَين لَيُسَمَّى ذَوَباناً، وإنَّما كان عن تأثُّرٍ وتأثيرٍ متبادلين.

وهنا يُشير الباحث خالد ترغي إلى أنَّ تأخُّر زمن الشافعيّ قد مكَّن له الاطلاع على المادة الخلافيَّة؛ سواء المختارة في مُجملِها (مادة المالكيَّة)، أم المعقولَة في آرائِها (مادة الأحناف)، مع مَيلٍ منه لمتفقِّهَةِ أهلِ الحديث، واستعمال مُكنته اللغويَّة = كلُّ ذلك مكَّن له مِن أنْ يرفعَ عن أصحابِه أهلِ الحديث الاكتفاءَ بروايةِ آثار ذَمِّ الرأي والتقليد، لِيُؤَسِّسَ لهم مذهباً جدلياً بامتياز، وليسَ أدلَّ على ذلك مِن كتابِه "**الأُم**» الذي يَزخرُ بفصولِ الاختلافِ والرُّدودِ والمَحَاجَّة[1].

إضافةً إلى ذلك، فقد تميَّز الشافعيُّ في مذهبِه الفقهيّ بالفاعليَّة الأخلاقيَّة؛ فتعليم الأخلاق عنده لا يعني مجرَّد توصيل المعلومات الأخلاقيَّة إلى الأذهانِ فحسب، بل يعني الإشعار بالمسئوليَّة الأخلاقيةَّ، وبتطهير النفوس وتزكيتها مِنَ الرذائل والشُّرور، وتحليتها بالفضائلِ ومكارمِ الأخلاق.

يقولُ الشافعيُّ معبِّراً عن هذه الفاعلية[2]:

إِنَّ الفَقِيهَ هُوَ الفَقِيهُ بِفِعلِهِ ... لَيسَ الفَقِيهُ بِنُطقِهِ وَمَقالِهِ

وَكَذا الرَّئيسُ هَوَ الرَّئيسُ بِخُلُقِهِ ... لَيسَ الرَّئيسُ بِقَومِهِ وَرِجالِهِ

وَكَذا الغَنِيُّ هُوَ الغَنِيُّ بِحالِهِ ... لَيسَ الغَنِيُّ بِمُلكِهِ وَبِمالِهِ

ولَمَّا كان مظهر مكارم الأخلاق ومَحَامِد الخِلال هو تصرُّف المرء في أفعالِه وسلوكِه ومعاملتِه النَّاس، وفي حُسْنِ أقوالِهِ ومجادلاتِهِ[3]، كان الشافعيُّ بذلك إماماً في الأخلاق

١_ المناظرة الفقهية: ٥٤.

٢_ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٤٥، ديوان الشافعي: ١٧٥.

٣_ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: ١٢٢.

والفضائل كما كانَ إماماً في الفِقهِ والحديث، وله في ذلك مِن الأقوالِ والأفعال ما تقومُ به هذه الإمامة:

فكانَ يقول: «**لا يَكمُل الرجلُ إلا بأربعٍ: بالدِّيانَة، والأمانَة، والصِّيانَة، والرَّزانَة**»[1].

وكانَ يَزِنُ النَّاسَ بآدابِهم:

يَا نَاظِرِي بِالكِسْوَةِ البَالِيَهْ تحتَ ثِيَابِي هِمَمٌ عَالِيَهْ

وَإِنَّمَا النَّاسُ بِآدَابِهِمْ والمَالُ فِي كَفِّهِمْ عَارِيَهْ

وكان يُرْجِعُ أصولَ الخيرِ إلى أربعٍ مِن كَلامِ النبيِّ ﷺ في سُنَّتِه[2]:

عُمْدَةُ الخَيرِ عندنا كلماتٌ أربعٌ قالَهُنَّ خَيرُ البَرِيَّهْ:

«اتَّقِ الشبهاتِ، وازْهَدْ، ودَعْ مَا لَيسَ يُعْنِيكَ، واعمَلَنَّ بِنِيَّهْ»

فهذه الأصول النبوية هي:

- «**مَن اتقى الشُّبُهَاتِ فَقَد اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِه**»[3].
- «**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاس**»[4].
- «**مِن حُسنِ إسلامِ المرءِ تَرْكُه ما لا يَعْنِيه**»[5].

١ـ سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٩٨.

٢ـ اختُلِفَ في نسبة هذين البيتينِ إلى الإمام الشافعي؛ فقد أوردهما ابن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ) منسوبَيْنِ إلى أَبِي الحَسَن طاهر بن مُفَوِّز الأندلسي (ت: ٤٨٤هـ) (انظر: جامع العلوم والحكم: ١/ ٦٠)، في حين رجَّح د. مجاهد مصطفى بهجت أنْ يكون النصُّ للشافعيِّ لأنَّه مِن جِنسِ شِعرِه في لُغتِه ومعانِيه. انظر: ديوان الشافعي: ١٥٤.

٣ـ صحيح البخاري (٥٢).

٤ـ سنن ابن ماجه (٤١٠٢).

٥ـ سنن ابن ماجه (٣٩٧٦).

* **«إنَّما الأعْمالُ بالنِّيّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى»**[1].

والمتأمِّل لهذه الأصول الأخلاقيَّة يجد أنَّها نابِعَة مِن حِرصِهِ على تأدية المسلم لما فرضه الله عليه من واجبات تجاه نفسه والآخرين، وكان بعض الباحثين المعاصرين سمَّوا الأخلاق بأنَّها عِلم الوَاجِب[2]، وقد سبقهم الشافعيُّ بذلك في أصوله الأخلاقيَّة، ومِن بينِ هذه الواجبات أنْ يكونَ المسلمُ مُنشَغِلاً بعَيبِ نفسِه عن عَيبِ غيرِه، فممَّا يُنسب للشافعيّ[3]:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبكِي عَلَى عَيبِ غَيرِهِ ... دُمُوعاً، وَلا يَبكِي عَلَى عَيبِهِ دَمَا

وَأَعجَبُ مِنْ هَذَا يَرَى عَيبَ غَيرِهِ ... صَغِيراً، وَفِي عَينَيهِ مِنْ عَيبِهِ عَمَى

وقد جعلَ الشافعيُّ هذه الأصولَ الأربعة منطلقاً في حِجَاجِه ومناظرتِه حتى ظهرتْ بعد ذلك في كلام شيوخ مذهبه؛ فقد عقَدَ الخطيبُ البغداديُّ فَصلاً في كتاب «الفَقِيه والمُتَفَقِّه»، أسماهُ «**ذِكر ما لابُدَّ للمتجادلينِ مِنْ معرفتِهِ**»، وأشارَ فيه إلى قول شيخ الشافعيَّة أبو العبَّاس الطَبَري، المعروف بابنِ القَاص (ت: ٣٣٥هـ): «الأصولُ سَبْعَةٌ: الحسُّ، والعقلُ، ومَعْرفةُ الكتابِ والسُّنَّة، والإجماع، واللغة، والعِبْرَة، فلابُدَّ للمتناظرينَ مِنْ معرفةِ جُمَلِ ذَلِك»[4].

وقد عقَّبَ الخطيبُ البغدادي بأنَّ الكتابَ والسُّنَّة هما الأصلانِ اللَّذانِ يُقدَّمُ الاحتجاجُ بِهِما في أحكامِ الشَّرعِ على ما سِواهما، ويتلوهُمَا الإجماع، وليس يَعرِفُه إلا مَنْ عَرِفَ الاختلاف[5].

١_ صحيح البخاري (١).

٢_ علم الأخلاق الإسلامية: ٤٩.

٣_ المعيد في أدب المفيد والمستفيد للعَلْمَوي: ١٤٣، ديوان الشافعي: ١٧٥.

٤_ الفقيه والمتفقه: ٢/ ٣٦ – ٣٧.

٥_ نفس المصدر السابق.: ٢/ ٤٠.

وفي سبيلِ بناءِ منهجيَّته الأخلاقيَّة في الحِجَاجِ والمناظرة، كان الشافعيُّ على ذُكْرٍ بهذه الأصول التي لابدَّ للمتناظرينَ مِن معرفتِها، والعملِ بها. ولذا، فقد انطلق في منهجيَّتِه مِن عِدَّةِ منطلقاتٍ أخلاقيَّة تدورُ في مُجْمَلِهَا حول قيمتينِ مركزيَّتين؛ هما: **أخلاقُ الذَّات والإخْلاص**، اللَّذَينِ بسلوكِ سبيلِهما تُدفَعُ جميعُ آفاتِ المناظرةِ المذمومة[1].

وقد انطلقَ الشافعيُّ في منهجِه الأخلاقيّ مِن منطلقاتٍ سلوكيةٍّ بعيدةٍ عن التنظير الفلسفيّ الذي أخذَ يُطِلُّ بِرَأسِهِ على الحضارة الإسلاميَّة مع صُعودِ العبَّاسيين إلى سُدَّةِ الخلافة، وتبنِّيهم سياسة نقل علوم الأوائل إلى العربية، متأثرينَ في ذلك بغَلَبة المكوِّن الفارسيّ في صُفوفِهِم، ومِن ثمَّ نجد أنَّ هذا السلوكَ الشافعيّ قد ظهرَ مِن خلالِ البُعد عن الدخول في سِجَالات المتكلِّمين المعتزلة ومَن شَايَعَهُم مِن أهلِ الكَلام؛ فنجده يقول: «لَو أَرَدتُ أَنْ أَضَعَ عَلَى كُلِّ مُخَالِفٍ لِي كِتَاباً كَبِيراً لَفَعَلتُ، **وَلَكِن لَيْسَ الكَلامُ مِنْ شَأني**، وَلا أُحِبُّ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ»[2].

وهنا يُشير د. عبدالرحمن حللي[3] إلى أنَّ استحضار السِّياق التاريخي الذي عاشَ فيه الشافعيُّ يُمَكِّن مِن فَهمِ دَورِه، وفَهمِ أفكارِه، ونصوصه على نحوٍ أفضل وأكثرَ انسجاماً بعيداً عن المناقب أو المحاكمات؛ ذلك أنَّ الحيثيَّات التاريخيَّة اقتضتْ أنْ تبرُز شخصيَّة تمتلك المؤهِّلات التي يتميَّز بها الشافعيّ؛ فعلى المستوى العلميّ كان ثَمَّةَ تطلُّع إلى **معايير عِلميَّة للجَدَل** تُمَكِّن مِن تجاوُز الفوضَى في الرأي الدينيّ والعبث به أحياناً، ولَم يكن ذلك يخصُّ قواعد فهم النصوص فقط، بل ضبط ما يُعتمد مِنَ النصوصِ نفسها. لذا، لَم يكن الشافعيُّ الوحيد الذي ناقَشَ هذه المسائل، فقد خاضَ فيها المتكلِّمون كالمعتزلة وغيرهم، لكنَّ الشافعيّ تمكَّن مِنْ نَسجِ رُؤيةٍ متكاملة تركتْ بصمتها، وحقَّقت الغايةَ المنتظرة في

١ـ راجع مقال: أخلاقيات المناظرة والحِجَاج (٢)، د. معتز الخطيب، موقع الجزيرة نت، ١٦/ ٦/ ٢٠٢٣م.

٢ـ ذيل مناقب الشافعي: ٨٩.

٣ـ أستاذ مشارك بقسم القرآن والسنَّة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر.

ضَبطِ الأدلَّة والتقعيد؛ اللَّذين يمكن أنْ يدورَ الخلافُ في فَلكِهما[1].

وقد عدَّد الذَّهبيُّ بعضَ خصائص المنهج الأخلاقيّ للشافعيّ، فيقول: «ولا ريبَ أنَّ الإمام لَمَّا سَكَنَ مصر، وخَالَفَ أقرانَه مِنَ المالكيَّة، ووَهَّى بعضَ فُروعهم بدلائلِ السُّنَّة وخَالَفَ شيخه في مسائل، تألَّموا منه، ونالُوا منه، وَجَرَتْ بينهم وَحشَةٌ، غفرَ اللهُ لِلكلِّ، وقد اعترفَ الإمام سُحنُون، وقال: لَم يكُن في الشافعيِّ بدعةٌ، فَصَدَقَ والله، فرحمَ اللهُ الشافعيَّ، وأينَ مثلُ الشافعيِّ والله! في صدقِه، وشَرَفِه، ونُبْلِه، وسَعَة علمِه، وفَرْطِ ذكائِه، ونَصرِه للحقِّ، وكثرَةِ مناقِبه، رحمه الله تعالَى»[2].

ومِن بينِ أبرز تلك الخصائص الأخلاقيَّة:

الخصيصة الأولى: تركُ الجَدَلِ والمِرَاء

المتأمِّل لسِيرةِ الشافعيّ يلحظُ أنَّه كان دائمَ النَّأيِ بنفسِه وبأصحابِه عن الخَوضِ في الجَدَلِ والمِرَاء؛ فكان يقول: «**المِرَاءُ فِي الدِّين يُقَسِّي القَلْب، ويُورِثُ الضَّغَائِن**»[3]، وقد أخبرَ عبدالله بن أحمد بن حنبل أنَّه سَمِعَ مِن أبيه قوله: «كانَ الشافعيُّ إذا ثَبَتَ عنده الخبرُ قلَّدَه، وخيرُ خصلةٍ كانت فيه أنَّه لم يكن يَشْتَهِي الكلامَ، إنَّما هِمَّتُه الفِقْهُ»[4]، وقد حدَّثَ الربيعُ بن سليمان، قال: أنشدنا الشافعيُّ في ذمِّ الجدل[5]:

لَمْ يَبْرِحِ النَّاسُ حتَّى أحدَثوا بِدعاً ... في الدِّينِ بالرأيِ لَم تُبْعَثْ بِها الرُّسُلُ

حتَّى استخَفَّ بدينِ الله أكثرُهُمْ ... وفي الذي حُمِّلُوا مِن حَقِّه شُغُلُ

١ــ قراءة الشافعي في سياقه: نحو مقاربة جديدة، عبدالرحمن حللي، مجلة «تبيُّن»، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، المجلد: ٩، العدد: ٣٤، خريف ٢٠٢٠م، الصفحة: ٢٢٧.

٢ــ نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٨٧٣.

٣ــ سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٢٨، مواعظ الإمام الشافعيّ: ٥١.

٤ــ ذيل مناقب الشافعيّ: ٩٠.

٥ــ ديوان الشافعيّ: ١٢٠.

عاشَ الشـافعيُّ في عصرِ صدرِ الدولة العباسـيَّة، وهو ما يُطلق عليـه تاريخياً: الدولة العباسـيَّة الأولى، وهـو العـصر الذي انتـشرَت فيه المناظرات بشـكلٍ كبـير، وكانت هي ميـدان البيان ومظهَر الفصاحة واللسـان، وقـد كان المعتزلَة فرسـان الحَلَبَة في المناظرات في العقائد، وقد كثُرت مجالس مناظراتهم؛ فقد تناظروا بين أيدي الأمراء، وفي المسـاجد، وفي كلِّ مكانٍ يصلُح للجدلِ والمناظرة، ولكنَّ المأثور من المناظرات قليلٌ بالنسبةِ لما كان، ولعلَّ اضطهاد المعتزلة في عصر المتوكِّل العبَّاسي، وما والاه، وكراهية الجماهير الإسلامية لهم، كان سبباً في ضياعِ كثيرٍ مِن آثارهم، واندثارِ أكثر مناظراتهم، وما بقيَ على قِلَّتِه يعطينا صورةً من قوةِ جدلهم، ويُبيِّن لنا أنَّهم قومٌ خَصِمُون[1].

ويُشـير الشـيخ مُحَمَّد أبو زُهرة إلى أنَّ الشـافعيّ قد بُغِّضَ إليه عِلمُ الكَلام، كما بُغِّضَ إلى الفقهاء والمحدِّثين في عصره، والشافعيُّ كان فَقِيهاً مُحَدِّثاً، وإنَّما بُغِّضَ إليه ذلك العِلم؛ لأنَّ الذيـن شَـادوا بُنيانـه وأقامـوا دعائمه هم المعتزلـة، وطريقتهم كانـت تُخالف طريقة السَّلف الصالِح في فهم العقائد من الدِّينِ الكريم، والشافعيُّ ككُلِّ فقيهٍ محدِّث كان يؤثر الاتباع على الابتداع ولو في الاستدلال ما دامَ الأمرُ يتَّصل بالعقيدة، ولأنَّ المعتزلة اتَّجهوا بدراسـة العقيدة اتِّجاهاً فلسـفياً، وذلك لا يَّتفق مع نزعة الشـافعيّ، ككُلِّ فقيهٍ محدِّث، ثمَّ المعتزلة أثاروا مسائل معقَّدة شائكة لا يسهُل على العقل البشريّ الجزم في قضيَّتها.

وكان الشـافعيُّ حريصاً في أنْ يبتعدَ بأصحابه عن الخوض في شيءٍ مِن الكلام؛ ففقد أوردَ البيهقيّ أنَّ الشافعيّ قال لمحمَّد بن عبدالله بن عبدالحَكَم[2]:

١ـ مِن قولِه تعالى في سورة الزخرف (٥٨): ﴿بَل هُم قَومٌ خَصِمونَ﴾، أي: شَدِيدُو الخُصُومَةِ بِالبَاطِل. انظر: السراج في بيان غريب القرآن: ٢٩٩، وانظر في كلام الشيخ أبو زُهرة، كتابه: الشافعيّ (حياته وعصره .. آراؤه وفقهه): ١١٩.

٢ـ ذيل مناقب الشافعي: ٨٩.

«يا محمد، إنْ سألَكَ رجلٌ عن شيءٍ مِن الكلامِ فلا تُجِبْه، فإنَّه إنْ سألكَ عن ديةٍ فقلت: درهمٌ أو دانقٌ = قالَ لكَ: أخطأتَ، وإنْ سألَكَ عن شيءٍ مِن الكلامِ فَزَلَلْتَ قالَ لكَ: كفرتَ»

وكانَ حريصاً على التفريق بين مناظرةِ أهلِ الحديث ومناظرة أهلِ الكلام؛ فقد حَكَى الربيعُ بن سُليمان (ت: ٢٧٠هـ) أنَّه سَمِعَ الشافعيّ يُقالُ له: لو تكلَّمتَ كما يتكلَّمُ فلانٌ وفلان. قال: «**رأيتُ أهل الكلام يُكَفِّرُ بعضُهم بعضاً، ورأيتُ أهلَ الحديث يُخَطِّئ بعضُهم بعضاً، فلأنْ أُخَطَّأ أحبُّ إليَّ مِن أنْ أُكَفَّرَ**»[١]، وقد علَّق الحافظ أبي بكر البيهقيّ بأنَّ «هذا شيءٌ استحبَّه عند عدم الحاجة إلى المناظرة فيه، فإنْ دعت الحاجة إليه؛ فقد حكينا عنه أنَّه نَاظَرَ فيه وذَبَّ عن مذهبِه»[٢].

لذلك أُثِرَ عن الشافعيِّ النهيُ عن الاشتغالِ بعِلمِ الكَلام؛ فقد كان يقول: «حُكمِي في أصحاب الكلام، أن يُضربوا بالجَريد، ويُحملوا على الإبلِ مُنكَّسِين، ويُطافُ بِهم في العشائرِ والقبائل، ويُقال: هذا جزاءُ مَنْ تَرَكَ الكِتَابَ والسُّنَّة، وَأَخَذَ فِي الكَلام»[٣]، وكانَ يقول: «لو أنَّ رجلاً أوصَى بكُتُبِهِ مِنَ العِلمِ لأحدٍ، وكان فيها كُتُب الكَلام، لم تدخُل تلكَ الكُتُب في الوَصِيَّة؛ لأنَّها ليستْ مِنْ كُتُبِ العِلْم، ولو أوْصَى لأهلِ العلمِ، لم يدخُل أهلُ الكلامِ في تلكَ الوَصِيَّة»[٤]، وكانَ يقول: رأيتُ أهلَ الكلام يُكَفِّرُ بعضهم بعضاً، ورأيتُ أهلَ الحديث يُخَطِّئُ بعضهم بعضاً، والتخطئةُ أهونُ مِنَ الكُفر.

وقد حدَّثَ الربيعُ بن سليمان، قال: أنشدنا الشافعيُّ ﷺ في ذمِّ الجَدَل[٥]:

١_ ذيل مناقب الشافعي: ٩٠.
٢_ مناقب الشافعي للبيهقي: ١/ ٤٥٤.
٣_ مناقب الشافعي: ٩٩.
٤_ نفس المصدر السابق: ١٠٠.
٥_ ديوان الشافعي: ١٢٠.

لَمْ يَبْرِحِ النَّاسُ حتَّى أحدَثوا بِدعاً في الدينِ بالرأيِ لم تُبْعَثْ بِهَا الرُّسُلُ
حَتَّى اسْتَخَفَّ بِدِينِ الله أكثرُهُمْ وفي الذي حُمِّلُوا مِن حَقِّهِ شُغُلُ

ولكنْ، هل كانَ الشافعيّ مع نَهيِهِ عن عِلمِ الكَلام على جَهلٍ به؟

يقولُ الفخرُ الرَّازيّ بأنَّه كان يعلمه، وقد ذَكَرَ أخباراً منقولةً تدلُّ على أنَّه ما كان يجهله، فقد رَوَى عن المُزَنِيِّ أنَّه قال: كُنَّا عَلَى بَابِ الشّافعيِّ ﷺ نَتَنَاظرُ في الكَلام، فخرجَ الشافعيُّ إلينا، فسمعَ بعض ما كنَّا فيه، فرجعَ إلينا وقال: «**مَا مَنَعَنِي عَن الخُرُوجِ إِلَيكُم إلا أَنَّنِي سَمِعتُكُم تَتَنَاظَرُونَ فِي الكَلام، أَتَظُنُّونَ أَنِّي لا أُحسِنُهُ، لَقَد دَخَلتُ فِيهِ، حَتَّى بَلَغتُ مَبلَغاً عَظِيماً، إلا أنَّ الكَلامَ لا غَايَةَ لَه، تَنَاظَرُوا فِي شَيْءٍ إِنْ أَخطَأْتُم فِيهِ يُقَالُ أَخطَأْتُم، وَلا يُقَالُ كَفَرتُم**».

ولا شكَّ أنَّ هذا الخبرَ يدلُّ على أنَّ الشافعيّ كانَ على إلمامٍ بهذا العِلم، وبالمسائل التي يخوضُ العلماءُ فيها، ولكنَّه بُغِّضَ إليه السَّيرُ فيه لأنَّ المؤمن لا يصلُ منه إلى طائل، وأنَّ مسائله شائكة: المخطئ يكفَّر ولا يخطَّأ كما أشارَ هو، ومعقولٌ أنْ يكونَ الشافعيّ على إلمامٍ بذلك العِلم؛ لأنَّه هو الذي كان يَجِدُّ في طَلَبِ المعرفَة أنَّى كانت، والذي اشتهرَ بالرحلة في طلبِ العِلم ومناقشته أهل الفِرَقِ والمذاهب، لابدَّ أنْ يكونَ قد اطَّلع على أبوابِ ذلك العِلم، وليس الشافعيّ العاقل هو الذي ينهَى عن أمرٍ لا يعرفُ موضوعه، ولا يتصوَّره، إذ الحكمُ على الشَّيءِ فرعٌ عن تصوُّره، وكيف يتصوَّر أنْ ينهى الشافعيُّ عن عِلمٍ لا يتصوَّره ولا يعرفه[1].

وهذا يُذكِّرنا بحُجَّة الإسلام أبو حامد الغزاليّ (ت: ٥٠٥هـ) الذي سعى في عددٍ من مؤلَّفاته إلى تفكيكِ الفِكرِ الفلسفيّ وبيان مواضع التَّهافت فيه، فألَّف أوَّلاً كتاب «**مقاصد الفلاسفة**» الذي حكى فيه مقاصد علومهم المنطقيَّة والطبيعيَّة والإلهيَّة وغيرها،

١ـ الشافعي (حياته وعصره .. آراؤه وفقهه): ١٢٤.

دون تمييزٍ بين الحقِّ منها والباطل، ثمَّ ثنَّى بكتاب «**تَهافُت الفَلاسِفَة**» الذي كَرَّ فيه على علومِهم المناقضة لأصولِ الدِّين، مبيِّناً مواطنَ تناقضهم، وحِيَلِهم وتلبيساتِهم، ومعرضاً عمَّا لا يتعلَّق بشيءٍ من الدِّين نفياً وإثباتاً.

الخصيصة الثانية: مخالفةُ الهوَى

حَرِصَ الشافعيُّ على أنْ يصرِّح بوجوبِ مخالفة الهَوَى الذي «يدعو مُطْلِقهُ إلى اللَّذَّةِ الحاضِرة مِن غيرِ فِكرٍ في العاقبة، ويحثُّ على نَيلِ الشَّهوات عاجلاً، وإنْ كان سبباً لأعظم الآلام عاجلاً وآجلاً»[1]، فنجده يقول: «لأنْ يلقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ العَبدُ بِكُلِّ ذَنبٍ مَا خَلا الشِّرك بِالله عَزَّ وَجَلَّ خَيرٌ مِن أَنْ يَلقَاهُ بِشَيْءٍ مِنَ الهَوَى»[2]، ويقول: «لَو رَأَيتُ صَاحِبَ الهَوَى يَمْشِي عَلَى المَاءِ مَا قَبِلْتُه»[3]، ولَمَّا كان الصِّراعُ بين العقلِ والهَوَى؛ نجده يقول: «العاقِلُ مَن عَقَلَه عَقْلُه عَن كُلِّ مَذْمُومٍ»[4].

ومِنَ الهَوَى أنْ يتعصَّب المرءُ لقولِه، وهنا يشير الشيخ سلمان العودة إلى أنَّ التعصُّب للأقوال هو أكبرُ الأدلَّةِ عند مَن لا ينظرونَ في حُجَّةِ المُخالِف بقدرِ ما يعبِّرون عن تعصُّبهم، وتمسُّكهم بالقولِ الذي قَرَعَ أسماعهم، وتشرَّبته عقولهم، كما أنَّ الانحيازَ إلى أحدِ الاتجاهات أو المذاهب هو ما يعنيه ويعوِّل عليه الذي لا يتأمَّل في الأدلَّة.

أمَّا الحِياد، فهو ريْبِيَّةُ العالِم، فإنَّ العالِم لا يميلُ لشيءٍ ولا يأخذُ بشيءٍ إلا بِحُجَّةٍ وبرهان مِنَ الله عزَّ وجلَّ، فربَّما تكون هذه المسألة أو تلك عند غير العالِم مقطوعاً بها لا تحتاجُ إلى نظرٍ ولا تأمُّل، ولكنها عند العالِم قد تكونُ خطأً، أو تحتاجُ إلى نظرٍ وتأمُّل، أو على أحسنِ الأحوال هي صوابٌ يحتملُ الخطأ، لذلك يقوله حرملة: إنَّ الشافعيَّ كانَ يقولُ لهم: «**كُلُّ**

١ــ روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ٦٣٠.

٢ــ ذيل مناقب الشافعي: ٨٤.

٣ــ سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٢٣.

٤ــ سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٩٨، مواعظ الإمام الشافعي: ٦٤.

مَا قُلتُ لَكُم، فَلَم تَشهَدْ عَلَيه عُقُولُكُم وَتَقبَله وَتَرَاه حَقًّا، فَلا تَقبَلُوه؛ فَإِنَّ العُقُولَ مُضطَرَّة إِلَى قَبُولِ الحَقِّ»[1].

وهو هنا يعوِّل على تحريكِ عقول الطلبة لتتأمَّل وتنظر، ولا تهمل تردُّدها أو تساؤلها، إذ ليست مهمَّة الشافعي الإمام هي صناعة أتباع يردِّدونَ ما يقول، بل إعداد قادة مستقلِّين، لهم فقه ونَظَر واستدلال[2].

كما كانَ الشافعيُّ يحذِّر أصحابه مِنَ الحَسَد الذي هو مِن مُسَبِّباتِ الهوَى؛ فيقول: «الحَسَدُ إنَّما يكونُ مِن لُؤْمِ العُنْصُرِ، وتَعادِي الطبائع، واختلاف التركيبِ، وفَساد مِزَاجِ البِنْيَةِ، وضَعْفِ عُقْدَة العقلِ، والحاسدُ طويلُ الحسراتِ عادِمُ الرَّاحاتِ»[3].

وقد تعاقبَ علماءُ الإسلام على التحذير من الهوَى ومسبِّباته، فيُشير ابنُ القَيِّم (ت: ٧٥١هـ) إلى أنَّ الهَوَى ما خَالَطَ شيئاً إلا أفسدَه:

فإنْ وقعَ في العلم؛ أخرجه إلى البدعةِ والضَّلالَة، وصارَ صاحبُه من جُملةِ أهلِ الأهواء..

وإنْ وقعَ في الزهدِ؛ أخرجَ صاحبه إلى الرياء ومخالفة السُّنَّة ..

وإنْ وقعَ في الحُكْمِ؛ أخرجَ صاحبه إلى الظلم وصدَّه عن الحق ..

وإنْ وقعَ في القسمةِ؛ خرجتْ عن قسمةِ العدلِ إلى قسمةِ الجَوْر ..

وإنْ وقعَ في الولايةِ والعزل؛ أخرجَ صاحبه إلى خيانة الله، والمسلمين حيث يُوَلِّي بهواه، ويعزل بهواه ..

١_ مناقب الشافعي للبيهقي: ٢/ ١٨٦.

٢_ مع الأئمة: ١٣٧ – ١٣٨.

٣_ أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ٩/ ١٤٦. انظر: ذيل مناقب الشافعي: ٤١.

وإنْ وقع في العبادةِ؛ خرجتْ عن أنْ تكونَ طاعةً وقربة، فما قارنَ شيئاً إلا أفسدَه[1].

كما يشيرُ ابنُ حَزْم إلى أنَّه لا يدركُ الأشياءَ على حقائقها إلا مَن جرَّد نفسَه عن الأهواء، ونَظَرَ في الآراء نظراً واحداً مستوياً لا يميلُ إلى شيءٍ منها، وفتَّش أخلاقَ نفسه بعقله تفتيشاً لا يتركُ فيها من الهَوَى والتقليد شيئاً البتَّة[2].

الخصيصة الثالثة: التخلُّق بالوَرَع

أيقنَ الشافعيُّ بأنَّ صاحبَ الوَرَعِ هو مَن كانَ قَانِعاً راضياً بكلِّ ما قدَّره اللهُ عليه وقَسَمَه، فيقول: «**أَصلُ الوَرَعِ القَنَاعَة**»[3]، فالوَرَعُ عنده لا يُثمر إلا إذا سُقِيَ بماءِ القَنَاعَة.

وقد أنشدَ في ذلك[4]:

والمَرْءُ إنْ كانَ عاقِلاً وَرِعاً ... يَشْغَلُه عنْ عيوبِهِمْ وَرَعُهْ

كَمَا العليلُ السَّقِيْمُ يَشْغَلُهُ ... عَنْ وَجَعِ النَّاسِ كَلِّهِمْ وَجَعُهْ

الخصيصة الرابعة: التأدُّب في النقد

ضَرَبَ الشافعيُّ أروعَ المثلِ في أخلاقيَّات النقدِ العلميّ؛ فَمِن خلال إلقاء نظرةٍ سريعةٍ على سيرتِه العلميَّة، نجد أنَّه كانَ يتحرَّزُ في نقدِ معاصريه غايةَ التحرُّز، وفي نقدِ شيوخه مِن بابِ أولَى؛ فقد كان صاحبَ طريقةٍ جديدةٍ في الفقه حينَ قدومِه إلى بغداد سنة ١٩٥هـ - بل قبل ذلك حينَ كانَ بمكَّة - وصاحبَ آراء جديدة فيه تنفصلُ عن آراء الإمام مالك، ولكنه لم يتَّجه إلى آراء مالكٍ بنقدٍ أو تزييفٍ، بل كان يُلقي بآرائِه، خالفتْ أو وافقتْ رأيَ مَالِك مِن غَيرِ نقدٍ له، ولذلك كان يُعَدُّ مِن أصحابِ مَالِك، وإنْ كان في

١ـ نفس المصدر السابق: ٦٣٥.

٢ـ التقريب لابن حزم: ٥٧٩.

٣ـ نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٨٦٦.

٤ـ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٤١، ديوان الشافعي: ١٠٥.

جُملةِ آرائه ما يخالفه قليلاً أو كثيراً، كما خالفَ بعضُ أصحابِ مَالِك مَالِكاً، وكما خالفَ أصحاب أبي حَنِيفَةَ شيخهم[1].

وفي خلافه مع بعض آراء مالك في الفقه، أظهرَ الشافعيُّ جوانبَ جديدة في النقد العلمي الأخلاقي لم تكن مألوفةً في عصرِه؛ فقد كان عزيزاً عليه أن ينقُد مالكاً لأنَّه أستاذه، وما كان يعبِّر عنه إلا بالأستاذ، وقد جَرَّ عليه ذلك متاعبَ ومصاعب؛ فإنَّ مَالِكاً كان له بمصر المكانَ الأوَّل بين المجتهدين[2].

وكان الشافعيّ يُجِلُّ فقهَ أهلِ العراق؛ فقد أوردَ البيهقيّ أنَّ الربيعَ كان يقول: سمعتُ الشافعيَّ يقول: «**ما تكَلَّمَ أحدٌ في الرَّأْيِ إلَّا وهو عيالٌ على أهل العراق، وما رأيتُ مثلَ مُحَمَّدِ بنِ الحَسَن**». يعني في الرأي[3].

ومِن إجلالِه لفِقهِ العراقيين أنَّه حتَّى بعد وصوله إلى مصر، كان يتأدَّب في حكايته لمناظراته مع الحنفيَّة؛ فكانَ يقول: «رواه عن عاصم» ويترك تسمية الرَّاوِي عن عاصم وهو أبو حنيفة، وكان يقول في حكايةِ قولِ الجماعة: «والذي رَوَى هذا»، ولم يقل: «وأبو حنيفة»[4].

وقد تنبَّه الشيخ عبدالرحمن بن يَحيَى المُعَلِّمِي (ت: ١٣٨٦هـ) إلى تأثَّر بعضُ أعلام المذهب الحنفيّ بهذا المسلك الأخلاقيّ للشافعيّ؛ مِن أمثال ابن التركماني الحَنَفِيّ[5] في كتابه «الجَوهَر النَّقِيّ على سُنَنِ البَيْهَقِيّ»[6]، وذلك في تأثُّرٍ واضحٍ بأخلاقِ الشافعيِّ في نَقدِ الحنفيَّة.

١_ الشافعي (حياته وعصره .. آراؤه وفقهه): ٣٠.

٢_ نفس المصدر السابق.: ٣٢.

٣_ ذيل مناقب الشافعي: ٥٧.

٤_ التنكيل للمُعَلِّمِي: ١/ ٧١١.

٥_ علاء الدِّين علي بن عثمان المارديني الحَنَفِي، المتوفَّى سنة ٧٤٥هـ.

٦_ التنكيل: ١/ ٧١١ – ٧١٣.

وكان الشافعيُّ مع ذلك لا يُخفِي وَلاءَه لأهلِ الحِجاز؛ فقد سمعه الربيعُ يقولُ يوماً: «إِذَا قلتُ: (**قَالَ أَصحَابُنا**) فَهُم أَهلُ الحِجَازِ، وَإِذَا قُلتُ: (**قَالَ بَعضُ النَّاس**) فَهُم أَهلُ العِرَاق»[1].

وبذلك نُدرك أنَّ الشافعيّ وسَّع نِطاقَ عِلمِهِ بالفِقه؛ وفي ذلك يقول شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: «أمَّا الشافعيّ فإنَّه تفقَّه أولاً على المكيِّين أصحابِ ابن جُرَيج، كسَعِيد بن سَالِمٍ القَدَّاح، ومُسلِم بن خَالِد الزّنجيّ، وابنُ جُرَيج أخذَ ذلك عن أصحاب ابن عبَّاس، كعطاءٍ وغيرِه، وابنُ عبَّاس كان مجتهداً مستقلاً، وكان إذا أفتَى بقول الصحابة أفتَى بقول أبي بكر وعمرَ لا بقولِ عليّ، وكان يُنكر على عليّ أشياء. ثم إنَّ الشافعيَّ أخذَ عن مَالِك، ثم كَتَبَ كُتُبَ أهلِ العراق، وأخذَ مذاهب أهل الحديث، واختارَ لنفسِه»[2].

والمُلاحَظ أنَّ الشافعيّ كان متوازناً في أخلاقيَّاتِه للنقدِ العلميّ؛ فنجد أنَّه عندما بَلَغَهُ أنَّ شيخه مالك تُقَدَّسُ آثارُه وثيابُه في بعض البلاد الإسلاميَّة، وأنَّ مِنَ المسلمينَ ناساً يُتحدَّثُ إليهم بحديثِ رسول الله ﷺ فيُعارضون الحديثَ بقولِ مالك!؛ عندها ثارت نفسُه واضطرَّ إلى أنْ يتَّجه لآراءِ شيخه بالنقد، وما كان منه ذلك إلا لَمَّا رأى الناسَ عدُّوا بمالك مرتبةَ الجهد الذي يُلتمَس من أحاديث رسول الله ﷺ، وأنَّ الناسَ مُقدِمونَ على أمرٍ خطيرٍ؛ إذ يُعارِضونَ بأحاديثِه ﷺ أقوالَ ناسٍ يُصيبونَ ويُخطئون، وما كان لأحدٍ مع الحديثِ رأي.

تقدَّم الشافعيُّ الذي قالَ مرةً: «سُمِّيتُ ببغداد: **ناصر الحديث**»، لينقُد آراء مَالِك، ويُعلن الزَّيفَ منها؛ ليعلمَ الناسُ أنَّ مَالِكاً بشرٌ يُخطِئُ ويُصيب، وأنَّه لا رأيَ له مع الحديث، ويؤلِّف في ذلك كتاباً سمَّاه «**خِلاف مَالِك**»، ولكنَّه يتردَّد في إعلانه وفاءً لمالِكٍ شيخه وأستاذه، والذي قال عنه: «مَالِكٌ أُستَاذِي»، وقال: «مَالِك بن أَنَس مُعَلِّمِي، وعنه أخذنا العِلم»، وقال: «إذا ذُكِرَ العلماء فمَالِكٌ النَّجْمُ»[3].

١ـ ذيل مناقب الشافعي: ٩٢.

٢ـ منهاج السنة: ٧/ ٥٣٠.

٣ـ مناقب الشافعي للبيهقي: ١/ ٥٠٣ – ٥٠٨.

ويُلاحَظ أنَّ الشافعيّ قد بَنَى منطلقاته الأخلاقيَّة في النقد العلميّ على نُصرةِ الحديث النبويّ؛ فهو لم يَنَل هذا النعتَ الشَّريف - ناصر الحديث - لكونِه وَضَعَ المصنَّفات الجامعة للآثارِ والمسانيد على نحوِ ما نراه لدى غيره من أصحابِ الحديث المصنِّفينَ فيه، بل إنَّما سُمِّيَ بذلك لأنَّه أوجدَ نظاماً معرفيًّا حامياً لموقع السُّنَّة من المنظومة التشريعيَّة، ولأنَّ السُّنَّةَ تمثِّل محورَ كثيرٍ من المجادلات التي دارتْ بين الشافعيّ وأعلامِ المدارسِ الأخرى؛ إمَّا مِن جهةِ أصل الاحتجاجِ بها، أو مِن جهةِ رُتبتها في الاستدلال وموقعها مِن خارطةِ الأدلَّة = كانَ الشافعيُّ شديدَ العنايةِ بتقرير حاكميَّتها وتثبيتِ حجيَّتها وبيانِ منزلتها، فتحدَّثَ عن حجِّيَّتها مِن حيث الأصل إذْ تمادتْ بعضُ الطوائفِ البدعيَّة فألغتْ اعتبارها بالكُلِيَّة، وتحدَّث مِراراً عن حُجِيَّةِ أخبار الخاصَّة «أخبار الآحاد»، لكثرةِ ما طالَ هذا الأصلَ ونالَه مِن توهين، كما بيَّن حاكميَّةَ السُّنَّة واستغناءَها بنفسها - وهذا المعنَى بحسب استقراءٍ تامٍّ أكثرَ المعاني المنهجيَّة وروداً في كُتُبِ الشافعيّ - وأنَّه لا يُعدَل عنها لرأيٍ ولا قياسٍ، كما بيَّن منزلة السُّنَّة مِنَ الكتاب وتبعيَّتها له، وأبطلَ القولَ بعرضِها على القرآن[1].

والمُلاحَظ أنَّ هذا الأدبَ في النقدِ العلميّ الذي تحلَّى به الشافعيّ، قد تسرَّبَ إلى أصحابِه وتلاميذِه، فها هو تلميذه المُزَنِي قد سأله رجلٌ من أهلِ العراق:

مَا تَقُولُ فِي أَبِي حَنِيفَة؟ قالَ: **سيِّدهم**.

قالَ: فأبو يُوسُف؟ قالَ: **أتبَعُهُم للحديث**.

قالَ: فمُحَمَّد بن الحَسَن؟ قالَ: **أكثرهم تفريعاً**.

قالَ: فزُفَر؟[2] قالَ: **أَحَدُّهُم قِيَاساً**[3].

١_ مجرد مقالات الشافعي في الأصول: ١٢٩ - ١٧٠.

٢_ يقصد العلامة الفقيه الحنفي: زُفَرُ بنُ الهُذَيل (ت: ١٥٨ هـ)، قالَ الذَّهبي: قد حَكَمَ له إمامُ الصَّنعة يَحيَى بن مَعِين بأنَّه ثقةٌ مأمون. انظر: نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٧٣٨ - ٧٣٩.

٣_ تاريخ بغداد: ١٤/ ٢٤٩، الأنساب للسمعاني: ٨/ ٢٠٢، ١٠/ ٣٠٨.

فَلَم يمنعه الخلاف في بعض المسائل بين أستاذه الشافعيّ، وبين هؤلاء الأعلام الذين ذَكَرَهم هذا الرجل، مِنْ أنْ يُنصِفَهُم ويُثنِي عليهم بالخير، وهذا مِن تأثيرِ الشافعيّ في تلاميذِه وأصفياءِه.

الخصيصة الخامسة: الرِّفق

كان الشافعيّ يتَّصِفُ بالرِّفقِ في حِجَاجِه الذي ما كان يبغي به إلا الوصولَ إلى الحقِّ وطَلَبِه، وكان يتأسَّى في ذلك بأبي حنيفة؛ فقد وَرَدَ أنَّ المُزَنِي سُمِعَ وقد ناظره إنسانٌ فخالفه فَصَاحَ في المناظرةِ، فَقَال: إنَّما سمعتُ الشافعيّ يقول: «نَاظَرَ رجلٌ أبا حنيفة، فصاحَ أبو حنيفة، فَمَرَّ به رجلٌ فقال: أخطأتَ يا أبا حنيفَة، فقال أبو حنيفة: اسكت، ودعاه فقال: ما المسألة؟ فقال: لا أدري. قال: فكيف قلتَ لي: أخطأتَ؟ فقال: **لأنَّكَ إذا ضعفتَ صِحْتَ، وإذا أَصَبتَ رَفَقتَ، فَعَلِمتُ أنَّكَ قَد أَخطَأتَ**»[1].

وقد قالَ الشافعيّ يوماً[2]:

إذا اعتذرَ الصَّديقُ إليكَ يوماً ... مِنَ التقصيرِ عُذْرَ أخٍ مُقِرِّ
فَصُنْهُ عنْ عِتَابِكَ واعْفُ عَنْهُ ... فإنَّ الصَّفْحَ شِيْمَةُ كُلِّ حُرِّ

ومع هذا الرِّفق الذي كان يتغيَّاهُ الشافعيّ في حِجَاجِه؛ فقد كان يُجادِل ويُصاوِل، ويضعُ بِجَدَلِه ومناظراته ما ينبغي أنْ يكونَ عليه المجادِل؛ يستمسكُ بالحُجَّة وحدها مِن غيرِ أنْ يَمَسَّ صاحبَ الرأيِ بِسُوء، حتى لقد كان بِخِلافِهِ صَاحِبَ فلسفةٍ فقهيةٍ خاصَّة[3].

وكان رفيقاً حتى في أمرِه بالمعروف ونهيِه عن المنكر؛ ويتجلَّى ذلك في نصيحتِه للمُزَنِيِّ وقد سمعه يوماً يقول: فلانٌ كذَّاب، فقال له الشافعيّ: «**يَا أَبَا إِبرَاهِيم، اكْسُ أَلفَاظَكَ**

١_ ذيل مناقب الشافعي: ٥٧.
٢_ ديوان الشافعي: ٩٠.
٣_ الشافعي (حياته وعصره .. آراؤه وفقهه): ٣٢.

بِأَحسَنِها، لا تَقُل: فُلانٌ كَذَّاب، وَلَكِنْ قُل: حَدِيثُه لَيسَ بِشَيءٍ»[1].

وقد أَخَذَ الشافعيّ يوماً بيدِ المُزَنِيِّ، وقالَ له[2]:

أُحِبَّ مِنَ الإخوانِ كُلَّ مواتي ... وكلَّ غضيضِ الطَّرْفِ عَنْ عَثَراتي

يُوافِقُنِي في كلِّ أمرٍ أُريدُه ... ويَحْفَظُنِي حَيًّا وبَعْدَ مَمَاتي

فَمَن لِي بهذا؟ ليتَ أَنِّي أَصَبْتُهُ ... فَقَاسَمْتُهُ ما لي مِنَ الحَسَناتِ

تَصَفَّحْتُ إخوانِي وكانَ أقلُّهم - على كثرةِ الإخوان - أهلَ ثِقاتِ

الخصيصة السادسة: الرِّضَى بالقليل

من أبرز ملامح شخصيَّة الشافعيّ الأخلاقية، أنَّه كان قَانِعاً رَاضِياً بما قَسَمَهُ الله له، فيقولُ معبِّراً عن ذلك[3]:

أَلا يَا نَفْسِ إنْ تَرضَي بِقُوتٍ ... وَأَنتِ عَزيزَةٌ أَبَداً غَنِيَّه

دَعي عَنك المَطامِعَ وَالأَمَاني ... فَكَم أُمنِيَّةٍ جَلَبَتْ مَنِيَّه

ويقولُ أيضاً[4]:

إذا شِئْتَ أنْ تَحْيَا غَنِيًّا فلا ... تَكُنْ عَلَى حَالةٍ إلا رَضِيتَ بِدُونِها

الخصيصة السابعة: الحِرصُ على نفعِ النَّاس

مِن دلائل المنهج الأخلاقيّ عند الشافعيّ أنَّه كان حريصاً على نفعِ مَن حوله مِنَ النَّاس، وليسَ أدلَّ على ذلك مِمَّا يُروَى أنَّه قد أفلسَ ثلاثَ مرات، على كثرةِ ما كان يأتيه

١ـ ذيل مناقب الشافعي: ٩٢.

٢ـ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٣١ - ٣٢، ديوان الشافعي: ٩٦.

٣ـ ديوان الشافعي: ١٧٩.

٤ـ مناقب الشافعي للبيهقي: ٢/ ٨٣.

مِنَ الأموال؛ لأنَّه كان ينفقها على الطلبةِ والمحتاجين والغُرَباء[١].

وقد أنشَدَ الشافعيّ في ذلك قائلاً[٢]:

وَجَبَتْ عَلَيَّ زَكَاةُ مَا مَلَكَتْ ... يَدِي وزَكَاةُ جَاهِي أنْ أُعِيْنَ وأشْفَعَا

فإذا سُئِلْتَ فجُدْ وإنْ لم تَسْتَطِعْ ... فاجْهَدْ بِجُهْدِكَ كُلِّهِ أنْ تَنْفَعَا

ومِن حِرصِ الشافعيّ على نفعِ النَّاس، أنَّه سُئِلَ يوماً: مَن أقدَرُ النَّاسِ عَلَى المُناظَرَةِ؟

فَقَالَ: «**مَن عَوَّدَ لِسَانَهُ الرَّكضَ فِي مَيدَانِ الأَلفَاظِ، وَلَم يَتَلَعثَم إِذَا رَمَقَتهُ العُيُونُ بِالأَلحَاظِ، وَلا يَكُونُ رَخِيَّ البَالِ، قَصِيرَ الهِمَّةِ، فَإِنَّ مَدَارِكَ العِلمِ صَعبَةٌ لا تُنَالُ إلا بِالجِدِّ وَالاجتِهَادِ، وَلا يَستَحقِرُ خَصمَهُ لِصِغَرِهِ فَيُسَامِحُهُ فِي نَظَرِهِ، بَل يَكُونُ عَلَى نَهجٍ وَاحِدٍ فِي الاستِيفَاءِ والاستِقصَاءِ، لأنَّ تَركَ التَّحَرُّزَ والاستِظهَارَ يُؤَدِّي إِلَى الضَّعفِ والانقِطَاعِ**»[٣].

الخصيصة الثامنة: التحلِّي بخُلُق العَفو

كان الشافعيّ كثيرَ العفو عمَّن أساءَ إليه؛ فقد أملَى أبو إسحاق المِرْوَزِيُّ يوماً على أصحابه، قال: قال الشافعيّ لصديقٍ جفاه[٤]:

لَسْتُ مِمَّنْ إذا جَفَاهُ أخُوهُ ... أَظْهَرَ الذَّمَ أو تَنَاوَلَ عِرْضَا

بلْ إذا صَاحِبِي بَدَا لِي جَفَاهُ ... عُدْتُ بالودِّ والوِصَالِ لِيَرضى

كُنْ كما شِئْتَ لي فإنِّي حَمُوْلٌ ... أنا أوْلَى مَنْ عَنْ مَسَاوِيْكَ أغْضى

وهو الذي قالَ يوماً[٥]:

١_ مناقب الشافعي للبيهقي: ٢/ ٢٢١، سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٣٧، مع الأئمة لسلمان العودة: ١٤١.

٢_ ديوان الشافعي: ١٠٣.

٣_ الفقيه والمتفقه: ٢/ ٥٦.

٤_ ديوان الشافعي: ١٠١.

٥_ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٣٢، ديوان الشافعي: ١٦١.

لَمَّا عَفَوتُ وَلَمْ أَحْقِد عَلى أَحَدٍ ... أَرَحْتُ نَفْسيَ مِنْ هَمِّ العَداواتِ
إِنِّي أُحَيِّي عَدُوِّي عِندَ رُؤيَتِهِ ... لِأَدفَعَ الشَّرَّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ
وَأُظهِرُ البِشْرَ لِلإِنْسَانِ أَبْغَضُهُ ... كَأَنَّه قَد حَشا قَلبِي مَوَدَّاتِ

وقال[1]:

اقبَل مَعاذيرَ مَن يَأتيكَ مُعتَذِراً ... إِن بَرَّ عِندَكَ فيما قالَ أَو فَجَرا
لَقَد أَطاعَكَ مَن يُرضيكَ ظاهِرُهُ ... وَقَد أَجَلَّكَ مَن يَعصيكَ مُستَتِرا

الخصيصة التاسعة: طَلَب الحَق بإخْلاص

مِن أجَلِّ ثمرات العلم أنَّه يورثُ صاحبهُ إخلاصاً في طلبِ الحقِّ ودفعِ الباطل، فهو يلتمسُ كلَّ وسيلةٍ مشروعةٍ توصِلُهُ إلى ذلك، وقد بلغَ الشافعيّ مرتبةً عاليةً في ذلك؛ فيقول: «مَا نَاظَرْتُ أَحداً عَلَى الغَلَبَة، إلا عَلَى الحَقِّ عِنْدِي»[2]، ويقول: «مَا نَاظَرْتُ أَحَداً قَطُّ إلا عَلَى النَّصِيحَة»[3]، ويقول: «مَا نَاظَرْتُ أَحداً قَطُّ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يُخْطِئ»[4]، ومِن أبلغ ما أُثِرَ عنه في هذا المقام، قوله: «**وَدِدْتُ أَنَّ النَّاسَ تَعَلَّمُوا هَذَا العِلْم - يعني كُتُبَه - عَلَى أَنْ لا يُنْسَبَ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْء**»[5].

وقد أشارَ ابنُ رجب الحنبلي إلى أنَّ الشافعيّ كان يُبالغ في وصيَّة أصحابه باتِّباعِ الحقِّ، وقَبول السُّنَّة، إذا ظهرتْ لهم على خلافِ قولهم، وأنْ يضرب بقولِه - حينئذ - الحائط، وكان يقول في كُتُبِه: لابدَّ أنْ يوجد فيها ما يُخالف الكتابَ والسُّنَّة؛ لأنَّ الله تعالَى

١ـ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٣٨.
٢ـ سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٢٩.
٣ـ نفس المصدر السابق.
٤ـ المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي: ١٧٢.
٥ـ نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٨٦٤.

يقـول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

وأبلـغُ مِـن هذا، أنَّه قالَ: «**مَـا نَاظَرَنِي أَحَدٌ فَبَالَيتُ، أَظَهَرَتِ الحُجَّةُ عَلَى لِسَـانِهِ أَو عَلَى لِسَانِي**»، وهذا يدلُّ على أنَّه لم يكن له قصدٌ إلا في ظهورِ الحقِّ ولو كان على لسانِ غيره مِمَّن يُناظِـرهُ أو يُخالِفه. ومَن كانت هذه حالـه؛ فإنَّه لا يكرهُ أنْ يُردَّ عليه قولُه ويتبيَّن له مخالفتُه للسُّنَّةِ، لا في حياتِه ولا في مَمَاتِه[2].

وهنا يأتي تشـديد د. رجب شـنتورك على أنَّ المناظرة في التراثِ الإسلاميّ كانت تهتمُّ بدراسـة حقيقة القول بغضِّ النظر عن صاحبه[3]، وبهذه النظرة التعبديَّة إلى الجَدَل يصحُّ أن يُدرَج في شُعَبِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر؛ لأنَّ بيانَ الحقِّ ودفع الباطل فرضٌ مِن الفروضِ الكفائيَّة، ومهمَّةٌ تقلَّدها الأنبياءُ وأتباعهم[4].

ومِـن دلائـل طلب الشـافعيّ للحـقّ أنَّه لَم يكـن يجزمُ برأيـه مطلقاً؛ فخرجـتْ قولته المشـهورة التي أصبحتْ دسـتوراً للمتناظرين مِنَ الناحيةِ النظريَّة، وإنْ كانت من الناحية العمليَّة أبعدَ ما تكونُ عن واقعِ كثيرٍ منهم، وهي قوله[5]:

«**قَولِي صَوَاب يَحتَمِلُ الخَطَأ، وَقَولُ غَيرِي خَطَأ يَحتَمِلُ الصَّوَاب**»

١ـ سورة النساء: ٨٢.

٢ـ الفرق بين النصيحة والتعيير، ضمن مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي: ٢/ ٤٠٤ – ٤٠٥.

3ـ Keynote Speech from Dr. Recep Şentürk on the Debate In Islamic Tradition Theme, Session Title: "Munazara: Why Recover the forgotten Islamic Discipline of Debate?", 29 May 2023, ICDD (Doha, Qatar).

٤ـ المناظرة الفقهية: ٦٩.

٥ـ هذا القول اشتُهر عن الإمام الشافعي، ولَم نجد مَن نسبه إليه من المتقدمين، وأقرب مَن نُسب إليه ذلك القول: الإمام أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النَّسَفي الحنفي (ت: ٧١٠هـ)، كما في (الفتاوى الكبرى) لابن حَجَر الهيتمي: ٤/ ٣١٣، و(حاشية ابن عابدين): ٦/ ٤٢١، وغيرهما. انظر: مع الأئمة لسلمان العودة، رقم الصفحة: ١٣٦.

وقد تركتْ هذه الكلمات أثراً كبيراً فيمَن أتَى بعدَه، لدرجةِ أنْ استعارها الغزاليّ – وهو من أهل القرن الخامس الهجريّ – بوصفها تخصُّ الحالةَ الذهنية التي مِنَ المفروض أنْ تسودَ النقاش الفقهيّ، لكنَّ الغزاليّ يجعل منها قاعدةً معمَّمةً تسري على كلِّ محادثةٍ مهما كانت طبيعتها، وطالما أنَّ المحادثةَ تتمُّ في جوٍّ مِنَ الاعترافِ بالآخر؛ فإنَّها يجبُ أنْ تتميَّز بالمحبَّة الصادقة، وأنْ تحترمَ آدابَ السلوك، معبِّراً بذلك عن الروح التي نشأ فيها وتعلَّم بها[1].

وأرى بذلك أنَّ الشافعيّ قد سبقَ الغزاليّ في الحديث عن «مناظرة النفس»، والتي هي أحدُ لونينِ جديدينِ من المناظرةِ أضافهما الغزاليّ في كُتُبه[2]، فعندما يقولُ الشافعيّ «**إلا عَلَى الحَقِّ عِنْدِي**»، فهو لا يُقْدِم على مناظرةِ الغير في مسألةٍ إلا بعدَ أنْ تشهدَ نفسُهُ أولاً بأحقِّيَّتها، وقد سَمِعَ الرَّبيعُ بن سُليمان الشافعيَّ يقول[3]:

اِعْـــــرفِ الحَـــــقَّ لـــذِي ... الحَـــقِّ إذا حَـــقَّ لـــه الحَـــقُّ

لا خَـــيْرَ في مَـــنْ يُـــنْـكِـرُ ... الحَـــقَّ إذا حَـــقَّ لـــه الحَـــقُّ

الخصيصة العاشرة: حُسن الظَّن

بَلَغَ الشافعيُّ مرتبةً عاليةً في إحسانِ الظَّنِّ بِمَن حولَه مِنَ النَّاس، وإنْ لَم يكن في هذه الصِّفةِ إلا راحةَ القلبِ وسلامةَ البالِ لَكَفَى، فهو الذي كان يقول[4]:

«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقضِيَ اللهُ لَهُ بِالخَيرِ، فَليُحسِن الظَّنَّ بِالنَّاسِ»

يقولُ الرَّبيع: «مَرِضَ الشافعيُّ، فدخلتُ عليه فقلتُ: يا أبا عبدالله، قَوَّى اللهُ ضَعْفَكَ. فقال: يا أبا محمد، لو قَوَّى اللهُ ضَعْفِي عَلَى قُوَّتِي أَهْلَكَنِي. قلتُ: يَا أبا عبدالله، مَا أَرَدتُّ

١ـ أبو حامد الغزالي: مسلم ممهد لعلم اجتماع الأديان، إمانويل بيساني، تعريب د. جمال فزة، الموقع الإلكتروني لـ «مركز نهوض للدراسات والبحوث»، الكويت، ١٩ أبريل ٢٠٢٠م، رقم الصفحة: ١٨.

٢ـ أخلاقيات المناظرة والحِجَاج (٢)، د. معتز الخطيب، موقع الجزيرة نت، ١٦/ ٦/ ٢٠٢٣م.

٣ـ ديوان الشافعي: ١١١.

٤ـ مناقب الشافعي للبيهقي: ٢/ ١٨٩، بستان العارفين للنووي: ٣٣.

إلا الخَيْرَ. فَقَال[1]:

«لو دَعَوتَ اللهَ عَلَيَّ لَعَلِمتُ أَنَّكَ لَمْ تُرِد إلا الخَيرَ»

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ كلامَ النَّاسِ لا يُؤخَذ بألفاظه، وإنَّما يُؤخَذ بمعانيه ومقاصده[2].

وقد أوردَ البيهقيُّ أنَّ يُونُس بن عبدالأَعلَى كان يقول: قالَ لي الشافعيُّ ذاتَ يومٍ: «يا يونس، إذا بَلَغَكَ عن صديقٍ ما تكرهُه، فإياكَ أنْ تُبادِر بالعداوةِ وقطع الولاية، فتكونَ مِمَّن أتاكَ يقينٌ ثُمَّ تَشُكُّ، ولكنْ الْقَه وقُل له: بلغَني عنكَ كذا وكذا، واحْذَرْ أن تُسمِّي المبلِّغَ. فإن أنكرَ ذلك فقُل له: أنتَ أصدقُ وأبَرُّ، ولا تزيدنَّ على ذلك شيئاً، وإنْ اعترفَ بذلك فرأيتَ له في ذلك وجهاً لعذرٍ فاقْبَلْ منه، وإنْ لَمْ ترَ لذلك وَجْهاً فقُل له: ماذا أردتَ بما بلغني عنك؟ فإنْ ذَكَرَ ما له وجهٌ مِن العذرِ فاقبله، وإنْ لَمْ ترَ لذلك وجهاً لعذرٍ وضاق عليكَ المسلك، فحينئذ أثبتها عليه سيئةً أتاها، ثُمَّ أنتَ في ذلك بالخِيَار، إنْ شئتَ كافَئْتَه بمثلِه مِن غيرِ زيادةٍ، وإنْ شئتَ عفوتَ عنه، والعَفْوُ أقربُ للتقوى وأبلغُ في الكرم، لقول الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[3]، فإنْ نازعَتْك نفسُك المكافأةَ فاذْكُر فيما سبق له لديك من الإحسان فعُدَّها، ثُمَّ أبْدِل له إحساناً بهذه السيئة، ولا تَبْخَسْ باقي إحسانه السّالف بهذه السيئةِ، فإنَّ ذلك الظلمُ بعينِه، وقد كان الرجلُ الصالِحُ يقول: رَحِمَ اللهُ مَن كافأني على إساءَتِي مِن غيرِ أنْ يزيدَ ولا يَبْخَسَ حَقًّا لي. يا يونس، إذا كان لك صديقٌ فشُدَّ يَدَيْك به، فإنَّ اتِّخاذَ الصديقِ صَعْبٌ، ومفارقتَه سهلٌ، وقد كان الرجلُ الصالِحُ يُشَبِّه سهولةَ مفارقةِ الصديقِ بِصَبِيٍّ يَطْرَحُ في البئرِ حَجَراً عظيماً، فيَسْهُلُ طَرْحُه ويَصْعُبُ إخراجُه على الرجال البُزُول[4]. فهذه وَصِيَّتِي لك، والسَّلام»[5].

١_ مناقب الشافعي للبيهقي: ٢/ ٢١٧.

٢_ مع الأئمة لسلمان العودة: ١٤١.

٣_ سورة الشورى: ٤٠.

٤_ يُقال: بَزَلَ الرجلُ: كمُلت تجربتُه، فهو بَازِل. انظر: المعجم الوسيط: ٥٤ – ٥٥.

٥_ ذيل مناقب الشافعي: ٣٤ – ٣٥.

الخصيصة الحادية عشرة: معرفةُ الغاية مِنَ العِلم

رُزِقَ الشـافعيُّ حِكمَةً أدركَ بِها فضائل العِلمِ وغاياتِه، فكان يَبُثُّ في نفوسِ أصحابه شيئاً مِن هذه الحِكمَة؛ يقولُ الشافعيّ في ذلك[١]:

«أَصلُ العِلمِ التَّثْبِيت، وثمرتهُ السَّلامَة، وأَصلُ الوَرَع القَنَاعَة، وَثَمَرَتهُ الرَّاحَة، وأَصلُ الصَّـبرِ الحَـزْم، وَثَمَرَتـهُ الظَّفَـر، وأَصلُ العَمَـلِ التَّوفِيق، وَثَمَرَتـهُ النُّجْح، وغايـةُ كُلُّ أمرٍ الصِّدْق»

وقد نَصَحَ يوماً بعضَ طُلابِه قائلاً[٢]:

تَعَلَّمْ يا فَتَى والـعُـودُ رَطْـبٌ ... وطَـيْـفُـكَ لَـيِّنٌ والـطَّـبْـعُ قَابِلْ

فـإنَّ الجـهـلَ وَاضِـعُ كُـلِّ عـالٍ ... وإنَّ العِلْمَ رَافِـعُ كُـلِّ خَامِلْ

فَحَسْبُكَ يا فَتَى شَرَفـاً وَعِـزًّا ... سُكُوتُ الحاضِرِيْنَ وأنتَ قَائِلْ

كـما كان يحرِّضُهُـم على أنْ يَضَعَ كلُّ واحدٍ منهم نفسـه في المكانِ اللائق، فنجده يقولُ يوماً[٣]:

«المَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَهُ، وَمَنْ تَوَانَ عَنْ نَفْسِهِ ضَاع»

ويقول[٤]: **«مَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَه لَمْ يَنْفَعْه عِلْمُه»**.

وإذا كان شرفُ العِلمِ تابعٌ لشَرَفِ مَعلومِه؛ فإنَّ صاحب العِلمِ سينالُه مِن هذا الشّرفِ بقدرِ عِلمِه، وقد أنشدَ الشافعيُّ مُستحضِراً هذا المعنَى[٥]:

١ـ نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٨٦٦.

٢ـ ديوان الشافعي: ١١٨.

٣ـ ذيل مناقب الشافعي: ٣٣.

٤ـ أدب الدين والدنيا: ٧٧، ذيل مناقب الشافعي: ٢٧.

٥ـ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٤٨، ديوان الشافعي: ١٣١.

رَأَيْـــتُ الـعِـلْـمَ صاحِـبُـه كريمٌ وَلَـو وَلَـدَتْـهُ آبـاءٌ لِئامُ
وَلَـيـسَ يـــزالُ يَـرْفَـعُـه إلى أنْ يُعَظِّمَ أمـرَه القومُ الـكِـرَامُ
ويتَّبِعونَه في كلِّ حـالٍ كراعِي الـضَّـأْنِ تـتْـبَـعُـه الـسَّـوَامُ
فَلولا العِلْمُ ما سَعِدَتْ رِجَـالٌ ولا عُـرِفَ الحـلالُ ولا الحـرامُ

الخصيصة الثانية عشرة: التهيُّؤ لطلبِ العِلم

كانَ الشـافعيُّ يبثُّ في أصحابه روحَ المبادرةِ في طَلَبِ العِلم، وقد سَـمِعَهُ المُزَنِيُّ ينشـدُ يوماً[1]:

إذا هَبَّتْ ريَـاحُـكَ فاغْتَنِمْهَا فعُقْبَى كُـلِّ خـافِـقَـةٍ سُـكُـونُ
ولا تَغْفَلْ عَـنِ الإحـسـانِ فيها فَـمَا تـدري السكونُ متى يكونُ

وكان يحذِّرهم مِنْ مَغَبَّةِ اقتراف الذُّنوب المَاحِقَة لِبَرَكَةِ العِلم، فيقول[2]:

شكوتُ إلى وَكِيْعٍ سُـوْءِ حِفْظِي فـأَرْشَـدَنِي إلى تَـرْكِ المَـعـاصي
وقـالَ: اعْـلَـم بـأنَّ العِلْمَ نُـوْرٌ ونُـورُ الله لا يُـؤْتَـى لِـعَـاصي

وكان يرشـدهم إلى بعـض آداب مجالـس العِلـم؛ فقـد سُـمِعَ الرَّبيعُ يقول: سـمعتُ الشافعيَّ يقول[3]:

«مَنْ حَضَرَ مجلسَ العلمِ بلا مِحْبَرَةٍ ولا وَرَقٍ كَمَنْ حَضَرَ الطاحونةَ بلا طَعَامٍ»

١ـ مناقب الشافعي للبيهقي: ٢/ ١٠٥.
٢ـ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٤١، ديوان الشافعي: ٩٩.
٣ـ أخرجه أبو سعد السمعاني في «أدب الإملاء والاستملاء»: ١٥٦، من طريق الآبري به. انظر: ذيل مناقب الشافعي: ٤٠.

ومِـن أَجَّـلِ هذه الآداب المقصودة لطالبِ العِلمِ أنْ يكـونَ ذا هِمَّةٍ عاليةٍ، فيقولُ معبِّراً عن ذلك[1]:

إذا رَأَيْتَ شَبَابِ الحَيِّ قَدْ نَشَؤوا ... لا يَحْمِلُونَ قِلالَ الحِـبْرِ والوَرَقَا
ولا تراهُمْ لَدَى الأَشْيَاخِ في حِلَقٍ ... يَعُوْنَ مِنْ صَالِحِ الأَخْبَارِ ما اتَّسَقا
فعَدِّ عنهمْ ودعْـهُـم إنَّهُـم هَمَـجٌ ... قد بـدَّلُـوا بِعُلُوِّ الهِـمَّـةِ الحُمقا

الخصيصة الثالثة عشرة: عدم التعلُّق بالدُّنيا

مِن أظهرِ الإشراقاتِ الأخلاقيَّة في منهجيَّة الشافعيّ؛ أنَّه كان دائمَ التذكيرِ بضرورة التعلُّق بالآخرة، وعدم الرُّكون إلى هذه الدُّنيا الفانية، وقد عبَّر يوماً عن مُرادِه في ذلك بقولِه[2]:

يَـا مَـنْ تعزَّز بالدُّنيا وزِينَتِها ... الـدَّهْـرُ يأتي على المَبْنِيِّ والبَاني
ومَـنْ يَكُنْ عِـزُّهُ الدُّنيا وزينتُها ... فَـعِـزُّهُ عـن قليلٍ زائـلٍ فَـاني
واعلمْ بـأنَّ كنوزَ الأرضِ مِن ... ذهبٍ فاجعلْ كنوزَكَ مِنْ بِرٍّ وإيمانِ

الخصيصة الرابعة عشرة: التعليم بِطَريقِ السُّؤال

أدركَ الشـافعيُّ أهميـةَ إيصـال العِلمِ بطريقِ السـؤال، والذي أصبحَ مِـن أهمِّ الطرق التعليميَّة وأكثرها شـيوعاً في التاريخِ الإسـلاميّ، وقد استعملَ النبيُّ ﷺ هذا الأسلوبَ كوسـيلةٍ فاعلةٍ مؤثرةٍ في تعليم أصحابه أمورَ دينهم وركائز عقيدتهم، وتوضيح كثيرٍ من الأمور الدينيَّة والدنيويَّة التي تهمهم.

وكنَّا قد أشرنا في الفصل الأول إلى إحدى خصائص المنهاج القرآني في البناء الأخلاقي للإنسـاني؛ وهي خصيصة «**الدعـوة إلى القيمِ الأخلاقيَّة مِن خلالِ الاسـتفهام**»، كما نَجِد

١ـ ديوان الشافعي: ١١٠.

٢ـ مناقب الشافعي للبيهقي: ٢/ ٨٩.

حضـور هذه الخصيصـة في السـنَّة النبوية المطهَّـرة؛ فبالنظرِ إلى ذلك الحـوار الذي جَرَى بـين النبيِّ ﷺ وجبريل عليه السـلام، نجد أنَّه تَمَّ بطريقةٍ مشـوِّقةٍ شـدَّت انتباهَ الصحابة الحاضريـن وهيَّـأتْ عقولَهم للتَّلقي والفهـم ومتابعة الحوار مِن بدايتِـه إلى خاتمتِه، بوعيٍ وتركيزٍ شديدَين[1].

وكذلـك عندمـا لَفَتَ النبيُّ ﷺ أنظارَ أصحابِه إلى بعـض الأفعال التي يؤدِّي الوقوعُ فيهـا إلى سـوء العاقبة، والتي لا ينفع معها القيام بأعمالٍ صالحـة، كقوله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟**»[2].

وقد سـارَ الشـافعيُّ على هذا النهجِ التربويّ المسـتمدِّ مِن المنهاجَينِ القرآنيّ والنَّبويّ؛ رغبـةً منـه في أنْ يكونَ التعليمُ أشـدُّ وَقْعاً في نُفوسِ المتلقِّين؛ فَمِـن ذلك ما ذكره أبو ثَوْر: «لَمَّا قَدِمَ علينا الشـافعيُّ العراقَ قصدناه وامتحناه بمسائل عَويصَة مِنْ فِقْهِ أبي حنيفَة ﷺ، فأجـابَ عنها، ثم قال: يا أبا ثَور! بم تَسْـتَفْتِحُ الصلاةَ؟ قلـتُ: بالفَرْضِ، قال: أخطأتَ، قلتُ: بالسُّـنَّة، قـال: أخطأتَ، قلتُ: فبم أسْـتَفْتِحُ؟ قال: بهما معاً، قُـل: الله أكبر، وارفع يديك، فيكون معَ الفَرْضِ سُنَّة»[3].

وعـن أَبِي ثَـوْر أيضـاً، قال: «كنتُ مِن أصحابِ مُحَمَّد بن الحَسَـن، فَلَمَّا قَدِمَ الشـافعيُّ علينا جئتُ مجلسَـه شِـبْهَ المسـتهزئِ به، فسـألتهُ عن مسـألةٍ مِن الدَّوْرِ، فلَم يُجِبْنِي، فقال: كيف تَرْفَعُ يَدَيْك في الصلاةِ؟ قلتُ: هكذا. قال: أخطأتَ. فقلتُ: هكذا. قال: أخطأتَ. فقلـتُ: كيف أصنعُ؟ قال: حدَّثني ابنُ عُيَيْنَة، عن الزُّهْرِي، عن سَـالِم، عن أبيه، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يرفـعُ يَدَيْه حَـذْوَ مَنكِبَيْه، وإذا رَكَع، وإذا رَفَع[4]. قالَ أبو ثَوْر: فوَقَعَ في قلبي مِن

١ـ الحديث في صحيح مسلم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

٢ـ الحديث في صحيح مسلم (٢٥٨١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

٣ـ ذيل مناقب الشافعي: ٣٨.

٤ـ صحيح مسلم (٣٩٠).

ذلك، فجعلتُ أزيدُ في المجيءِ إلى الشافعيِّ وأقَصِّرُ مِنَ الاختلافِ إلى مُحَمَّد بن الحَسَن، فقالَ لي ابنُ الحَسَن يوماً، يا أيا ثَوْر، أحسبُ هذا الحِجَازِيّ قد غَلَبَ عليك. قلتُ: أَجَل، الحقُّ معه. قال: وكيف ذاك؟ قلتُ: وكيف ترفعُ يديكَ في الصلاة؟ فأجابني على نحو مِمَّا أجبتُ الشافعيّ، فأجبته بما قال الشافعيّ. قال أبو ثَوْر: فلَمَّا كان بعد شهرٍ وعَلِمَ الشافعيُّ أنِّي قد لَزِمْتُه قال: يا أبا ثَوْر، خُذْ مسألتَك في الدَّوْرِ، فإنَّما مَنَعَنِي أنْ أُجِيبَك يومئذٍ لأنَّك كنتَ مُتَعَنِّتاً»[1].

والمتأمِّل في طريقة التعليم بطرح الأسئلة، يلحظ أنَّها تدخلُ في بابِ **الجِدَال المحمود** الذي مارَسَهُ كثيرٌ مِن أهلِ العلمِ في إثباتِ الحقِّ الذي معهم؛ فقد ذكرَ ابنُ أَبِي العِز الحَنَفِي ﷺ: «يُحكَى عَن أَبِي حَنِيفَةَ ﷺ: أنَّ قوماً مِن أَهلِ الكَلامِ أَرادُوا البَحثَ مَعَهُ في تَقرِيرِ تَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ. فَقالَ لَهُم: أَخبِرُونِي قَبلَ أَنْ نَتكَلَّمَ في هَذِهِ المَسأَلَةِ عَن سَفِينَةٍ في دِجْلَةَ، تَذهَبُ، فَتَمتَلِئُ مِنَ الطَّعامِ والمَتاعِ وَغَيرِهِ بِنَفسِها، وَتَعُودُ بِنَفسِها، فَتَرسُو بِنَفسِها، وَتُفرِغُ وَتَرجِعُ، كُلُّ ذَلِكَ مِن غَيرِ أَن يُدَبِّرَها أَحَدٌ؟! فَقالُوا: هَذا مُحالٌ لا يُمكِنُ أَبَداً! فَقالَ لَهُم: إِذا كانَ هَذا مُحالاً في سَفينَةٍ، فَكَيفَ في هَذا العالَمِ كُلِّهِ، عُلوِهِ وَسُفلِهِ[2]؟!.

فهؤلاء القوم المتشككون في توحيد الرُّبُوبِيَّة قد أرادوا أنْ يمتحنوا أبي حنيفة، فقامَ هذا الإمام وسَبَقَهُم بِطَرحِ بعض الأسئلة العقليَّة التي أسكتتهم وقَطَعَتْ دَابِرهم[3]، فهذا جِدالٌ محمود.

١ـ أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ٩/ ١١٧، وانظر: ذيل مناقب الشافعي: ٣٧ – ٣٨.

٢ـ شرح الطحاوية: ٣٥.

٣ـ مِن قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دابِرُ القَومِ الَّذينَ ظَلَموا﴾، سورة الأنعام: ٤٥.

الخصيصة الخامسة عشرة: التحلِّي بالصَّبرِ الجَميل

لَمَّا كان «**الصَّبْرُ ضِياءٌ**»[1] – كما قالَ النبيُّ ﷺ – لم يفتأ الشافعيّ يذكِّرُ أصحابه أنْ يتحلَّوا بِخُلُقِ الصَّبر الذي هو «حَبسُ النفسِ عن مَحَارِمِ الله، وحبسُها على فرائضِه، وحبسُها عن التسخُّط والشِّكايَة لأقدارِه»[2]، وقد نُسب إليه قوله[3]:

الصَّبرُ مِفتَاحُ ما يُرَجَّى ... وَكُلُّ أَمْرٍ بِهِ يَهُونُ
فَاصْبِر وَإِنْ طَالَتِ اللَّيَالي ... فَرُبَّما طَاوَعَ الحَرُونُ[4]
وَرُبَّما نِيلَ بِاصْطِبارٍ ... مَا قِيلَ هَيْهاتَ لا يَكونُ

ومِمَّا ذُكِرَ عنه أنَّه قال[5]:

إِذا جَارَ الزَّمانُ عَلَيكَ فاصْبِرْ ... فَإِنَّ الصَّبْرَ أَحسَنُ مَا يَكونُ
فَإِنَّ اليُسْرَ يَأتِي بَعدَ عُسْرٍ ... وَمَا مِنْ شِدَّةٍ إلا تَهُونُ

كما نُسِبَ إليه قوله[6]:

وَلَرُبَّ نازِلَةٍ يَضيقُ لَها الفَتَى ... ذَرْعاً وَعِندَ اللهَ مِنها المَخرَجُ
ضَاقَت فَلَمّا اِستَحكَمَت حَلَقاتُها ... فُرِجَت وَكُنتُ أَظُنُّها لا تُفرَجُ

١_ صحيح مسلم (٢٢٣).
٢_ مجموعة من الباحثين بإشراف عبدالقادر السقاف، موسوعة الأخلاق: ٧/ ٤٧.
٣_ ديوان الشافعي: ١٧٨.
٤_ الحَرُون: الجَمُوح، وَهُوَ مَنْ يَرْفُضُ الانْقِيَادَ.
٥_ ديوان الشافعي: ١٧٨.
٦_ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٣٣.

الخصيصة السادسة عشرة: الحِرصُ على العربيَّة

احتلَّت العربيَّة موقعاً فريداً في نَفسِ الشافعيّ وقلبه؛ كما أنَّها على علاقةٍ بمنهجيَّته الأخلاقيَّة؛ فهو القائل: «**مَنْ نَظَرَ فِي اللُّغةِ رَقَّ طَبْعُه**»[1].

وقال أيضاً: «**تَعَلَّمُوا العَرَبِيَّةَ، فَإِنَّهَا تُثَبِّتُ العَقْلَ، وَتَزِيدُ فِي المُرُوءَةِ**»[2]، فكانَ صاحِبَ نَظرٍ وتأمُّلٍ طويلَينِ في علومِ العربيَّة.

يُشير د. مشاري الشَّثْري إلى أنَّ للشافعيّ في تقريرِ أهميةِ العِلمِ بلغةِ العَرَب، وأثرِ ذلك في فقه الوحي = تقريراتٌ حِسانٌ، ولمركزيَّة هذه القضيَّة عنده ضمَّنها أخصَّ كتبه بتقرير المنهج، وهو كتاب (**الرسَالَة**)، وجعلَ القولَ في ذلك مِن أوائلِ ما عالجه فيها، وليدركَ قارئَه أهميةَ ذلك ويقعَ منه موقعَ القَبول؛ ذَكَرَ الشافعيُّ أنَّ إبانتَه عن ذلك وتنبيهَه العامَّةَ عليه = مِنَ النصيحةِ المفروضةِ للمسلمين، وضمَّن كلامَه وجوهَ تصرُّفات العربِ في كلامِها ليعلَمَ الناظرُ أنَّ تمييزَها وفصلَ ما بينَ دلالاتها من مهمَّات النظر وضروراته، إذْ بلسانها نزلَ القرآن وجاءت السُّنَّة، فالجهلُ بتلك الأوضاع جهلٌ بمعنى الوحي[3].

كما اعتبرَ الشافعيّ اللغةَ مِرقاةً لفهم علوم الفقه التي كانت مقصودَه الأوَّل[4]؛ فكان يقول: «**مَنْ تَكَلَّمَ فِي الفِقْهِ بِغَيْرِ لُغَةٍ تَكَلَّمَ بِلِسَانٍ قَصِيرٍ**»[5]، وقد أثمرت له هذه العناية بالعربية مقدرةً فائقةً في المناظرة الفقهية التي كان له فيها قصبَ السَّبق.

وإلى جانب هذه الفلسفة الفقهية التي وُصِفَ بها الشافعيّ، نجدُه كان حريصاً على أنْ يُظهرَ صورةً عمليةً للأخلاقِ الإسلاميَّة، فقد أورد البيهقيّ أنَّ الحَسَن بن عبدالعزيز كان يقول[6]:

١ـ أدب الدين والدنيا: ٧٧، ذيل مناقب الشافعي: ٢٧، مواعظ الإمام الشافعي: ٥٠.

٢ـ مناقب الشافعي للبيهقي: ١/ ٢٨٢.

٣ـ عبقرية الإمام الشافعي: ١٢٩.

٤ـ أخبرَ عبدالله بن أحمد بن حنبل أنَّه سَمِعَ مِن أبيه قوله: «كانَ الشافعيُّ إذا ثَبَتَ عنده الخبرُ قلَّدَه، وخيرُ خصلةٍ كانت فيه أنَّه لم يكن يَشْتَهِي الكلامَ، إنَّما هِمَّتُه الفِقْهُ». انظر: ذيل مناقب الشافعي: ٩٠.

٥ـ الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي: ٢/ ٤٢.

٦ـ ذيل مناقب الشافعي: ٤٠.

«قَدِمَ علينا الشافعيُّ بمصر، فجعلنا نختلفُ إليه، نسمعُ حسن ألفاظِه، ما بِنا مِن الاختلافِ إليه في أوَّلِ ابتدائِه إلا ما نَسْمَعُ مِن كَلامِه ونَرَى مِن أدَبِه»

وكان يُونُس بن عبدالأعلَى يقول: «ما كان الشافعيُّ إلا ساحراً، ما كُنَّا ندري ما يقول إذا قعدنا حولَه، كأنَّ ألفاظَهُ سُكَّرٌ ... وكان قد أُوتِيَ عُذوبةَ منطقٍ، وحُسْنَ بلاغةٍ، وفَرطَ ذكاءٍ، وسَيَلانَ ذِهْنٍ، وكمالَ فَصَاحَةٍ، وحُضورَ حُجَّةٍ»[1].

وليسَ أدلَّ على هذه المقدرة اللغويَّة الفريدة، مِن تعاقُبِ كثيرٍ مِن العلماءِ على دراسةِ مسألة «**الاحتجاج بألفاظ الشافعيِّ في العربية**»، وهذه المسألة قد تعرَّض لها الإمام الأزهريُّ (ت: ٣٧٠هـ) صاحب «تَهذِيب اللُّغة» في أكثر مِن كتابٍ له، والبيهقيُّ في «الرد على الانتقاد على الشافعيِّ في اللُّغة»، وأحمد بابا التُّنْبُكْتِيُّ (ت: ١٠٣٦هـ) في رسالته «وسيلتي وشافعي»[2]، وغيرُ واحدٍ من النحويين، منهم ابن الحاجب في «شافيته»، والسيوطي في «الاقتراح»، أمَّا المحدِّثون، فقد أفرَدَها غيرُ واحدٍ منهم بالتصنيف.

وهذا الاحتجاجُ بألفاظِ الشافعيّ في اللُّغة، له دلالته في سُطُوحِ برهان حُجَّتِه الأخلاقيَّة التي جعلت منه وَاضِعاً لأدبِ المناظرةِ في الإسلام، فكلُّ هؤلاءِ العلماء المذكورين آنفاً لم يخرجوا في عرض المسألة عن القول بأنَّ الشافعيّ عربيٌّ فصيح، وقولُه حُجَّة في اللُّغة، وما جاءَ مِن ألفاظِه مخالِفاً لظاهرِ العربيَّة وقواعدها، سَعَوا في تحصيلِ شواهد عربية تؤيِّده، أو لُغةٍ مِن اللغاتِ تعضده، وهذا لا يتأتَّى إلا بعد التسليم بأنَّ الشافعيّ مِمَّن يُحتجُّ بلُغته كما يُحتجُّ بكلام امرئ القيس وغيره مِنَ العَربِ الصُّرَحاء[3].

١_ نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٨٦٧.

٢_ حقَّقها د. أحمد فتحي البشير، مع رسالة أخرى لنفس المصنِّف بعنوان «إمتاع الأسماع بما قيلَ في إجراء ألفاظ رواة الحديث مجرَى السَّماع»، من إصدارات مركز تراث للبحوث والدراسات بالقاهرة، ١٤٤٠هـ/ ٢٠٢٠م.

٣_ مقدمة رسالة «وسيلتي وشافعي» لأحمد بابا التُّنْبُكْتِيّ، د. أحمد فتحي البشير، صفحة: ١١٥.

وفي هذا السياق، يُشير الشيخ محمد الخضر حسين (ت: ١٣٧٧هـ) في معرض كلامه عن الاستشهاد بالحديث النبويّ على قواعد العربية، إلى أنَّ «الذين نشئوا في بيئةٍ عربيةٍ لم ينتشر فيها فساد اللغة انتشاراً يرفعُ الثقةَ بفصاحةِ لهجتها، يوثقُ بأقوالهم، ولو تأخَّروا عن منتصفِ القرن الثاني؛ **كالإمامِ الشافعيّ**، فإنَّه وُلِدَ سنة ١٥٠هـ، ولكنَّه نشأَ في بيئةٍ عربيَّة، وهي مَكَّة، فيصحُّ الاستشهاد بما يستعمله مِنَ الألفاظ»[١].

ويؤكِّد د. أحمد فتحي البشير[٢] على أنَّ فريقاً مِنَ العلماء احتجوا بكلام الشافعيّ؛ «لسلامة نشأته وتقلُّبِه في البيئات العربيَّة السليمَة»[٣]؛ فقد «تأدَّبَ بُهذَيل في البادية»[٤]، وأقامَ فيهم كواحدٍ منهم، فكان يقول: خَرَجتُ مِنْ مَكَّة؛ فَلَزِمْتُ هُذَيلاً في الباديةِ، أتعلَّم كلامَها وآخُذ بِلُغَتِها، وكانت أفصحَ العرب، فأَقَمتُ معهم مُدَّةً؛ أرحَل برحِيلهم. وأَنزِل بِنُزُولِهِم»[٥]، وأقامَ على تعلُّم العربيَّة وأيَّام النَّاس عشرينَ سَنة[٦].

ولِسَائِلٍ أنْ يسألَ عن الحِكمَةِ مِن إيرادِ احتجاجِ العلماء بكلام الشافعيّ في هذا المقام المتعلِّق بالمناظرةِ والحِجَاج، وللإجابةِ عن هذا السؤال نُشيرُ إلى أنَّ كَون كلام الشافعيِّ حُجَّةً في اللُّغة؛ ينسحبُ تِباعاً على مقدرتِه الحِجَاجِيَّة المنبثِقَة مِن رَحِمِ مقدرتِه اللُّغويَّة، وقد عبَّر جمال الدِّين الإسنوي (ت: ٧٧٢هـ) عن ذلك بقوله: «أمَّا العربية فكان فيها الكعبَةَ والمَحَجَّة، والذي ينطِقُ به فيها حُجَّة، كما شَهِدَ به معاصِروه من علماء هذا الفنِّ؛ منهم ابن هشام «صاحب سيرة رسول الله ﷺ» مع كونه معاصِراً له ومُساكِناً له بمصر»[٧].

١_ دراسات في العربية وتاريخها: ١٧٨.

٢_ باحث في مركز تحقيق التراث بمشيخة الأزهر الشريف في مصر.

٣_ سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو العربي: ٢٥.

٤_ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك: ٣/ ١٣٨.

٥_ مناقب الشافعي للبيهقي: ١/ ١٠٢.

٦_ نفس المصدر السابق: ٢/ ٤٢، انظر: د. أحمد فتحي البشير، الحصيلة في بيان ما أغفله التُّنْبُكْتِيُّ في الوسيلة: ١٨١.

٧_ الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية: ١٨٧ – ١٨٨.

وأخيراً فقد اعتبرَ شيخُ الشافعيَّةِ أبو العبَّاس الطَبَري، المعروف بابنِ القَاص (ت: ٣٣٥هـ)، أنَّ العربيةَ مِن قَوَائِمِ المناظرة التي لا تقومُ إلا بها، وقد عبَّر عن ذلك بقولِه «مَنْ أنكرَ اللُّغَةَ أُسْقِطَتْ مُحَاوَرَتُهُ؛ لأنَّ اللُّغَات للمُسَمَّيَاتِ سِمَاتٌ»[١].

الخصيصة السابعة عشرة: الإعراضُ عن الجاهلين

كثيراً ما كانَ الشافعيُّ في مواجهةٍ مع بعض الجاهلين، فكانَ طبعُه أنْ يُعْرِضَ عنهم عَمَلاً بقولِه تعالَى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٢]، ومما قاله في ذلك[٣]:

قالُوا سَكَتَّ وَقَد خُوصِمْتَ، قُلتُ ... لُهم إِنَّ الجَوَابَ لِبَابِ الشَّرِّ مِفْتَاحُ

والصَّمتُ عَن جَاهِلٍ أَو أَحمَقٍ شَرَفٌ ... وَفِيهِ أَيضاً لِصَونِ العِرضِ إِصلاحُ

أَما تَرَى الأُسدَ تُخشَى وَهِيَ صَامِتَةٌ ... والكَلبُ يَخشَى لَعَمرِي وَهُوَ نَبَّاحُ

وهُنا ينبِّه الإمام جَلال الدِّين السيوطيّ (ت: ٩١١هـ) على أنَّ الشافعيّ إنَّما كان يقصد أنَّ الصمتَ عن الجاهلِ يصونُ عِرضَ وكرامَةَ الإنسان، ولا يوقعه في شَمَاتَةِ الشَّامِتين، ولا يوقعه في بَراثِنِ التعلُّق بأخطائِه والتي ينتظرها الناس الطامعينَ في النَّيلِ منه، وشبَّه الشافعيُّ السكوتَ عن الجاهلِ كالأسدِ السَّاكِت؛ فسُكُوته هذا يخيفُ الناسَ ويُرعبهم، أمَّا مَن يتكلَّم مع الجاهل؛ فهو كالكلب الذي يرجمه النَّاس بالحِجَارَةِ عندما ينبح[٤].

وقالَ الشافعيّ أيضاً في الإعراضِ عن الجاهلين[٥]:

إِذا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تَجِبهُ ... فَخَيرٌ مِن إِجابَتِهِ السُكُوتُ

١_ الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي: ٢/ ٣٦ – ٣٧.

٢_ سورة الأعراف: ١٩٩.

٣_ حسن السمت في الصمت للسيوطي: ٢٦.

٤_ نفس المصدر السابق: ٢٧.

٥_ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٣٣.

فَـــإِنْ كَـلَّـمـتَـهُ فَـرَّجـتَ عَنهُ وَإِن تَـرَكـتَـهُ كَـمَـداً يَـمُـوتُ

وقد نصَحَ الشافعيّ يُونُس بن عبدالأعلَى قائلاً له: «**رِضَى النَّاس غايةٌ لا تُدرَك، وليسَ إلى السلامةِ منهم سبيلٌ، فعليكَ بما ينفعُك فالْزَمه**»، ففي نصيحتِه توجيهٌ بأنْ يلزمَ المسلمُ ما ينفعه وأنْ يُعْرِضَ عن الجاهلينَ والفارِغين.

كما يؤكِّد ابنُ حَزْم هذه الحقيقة بقوله: «واعلَم أنَّ الأكثرَ مِنَ النَّاسِ جداً فالغَالِبُ عليهم الحُمْقُ وضعف العقول، والعاقل الفاضل نادرٌ جداً، وقليلٌ البتَّةَ، وهذا يوجد حِسًّا، وقد وَرَدَ النَّصُّ بذلكَ عن الخالقِ الأوَّل، وعن خيرتِهِ المبتعَثِ إلينا ﷺ. قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِئَةٍ، لا يَجِدُ الرَّجُلُ فيها راحِلَةً»[2].

الخصيصة الثامنة عشرة: النصيحةُ في السر

لَمَّا كان الشافعيُّ بَصِيراً بنُفوسِ النَّاس ودَخَائِلِهم، أيقنَ أنَّ النصيحةَ لهم لا تُؤتِي ثمارها إلا إذا أدَّاهَا صَاحِبُهَا في السِّرِّ، لا يرجو بذلك إلا ابتغاءَ رِضا الله تعالَى والنصيحة لعبادِه، يقولُ الشافعيّ[3]:

تَعَمَّدنِي بِنُصحِكَ في انفِرادي وَجَنِّبني النَّصِيحَةَ في الجَمَاعه
فَـإِنَّ النُّصحَ بَـينَ الـنَّـاسِ نَـوعٌ مِنَ التَّوبِيخِ لا أَرضَى اسْتِمَاعَه
وَإِنْ خَالَفْتَني وَعَصَيتَ قَولي فَـلا تَجـزَع إِذا لَم تُـعـطَ طَاعَه

١_ سورة الأنعام: ١١٦.

٢_ صحيح مسلم (٢٥٤٧)، انظر: التقريب لابن حزم: ٥٧٨.

٣_ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٤١. ديوان الشافعي: ١٧٣.

الجديـر بالذكـر أنَّ الإمام الغـزاليّ كان قد وضعَ بعـضَ المعايير للمناظـرة أو المباحثة عـن الحـقِّ ليتَّضح، وبها يتمُّ التمييز بين مَن يُناظِر لله ومَن يُناظِر لِعِلَّةٍ أخرى، أو يحاول أنْ يُشرعن أغراضه عبر تشـبيهِ مسلكه بمشاورات الصحابة ومفاوضات السَّلف في مسائلِ العِلمِ، وهو بعيدٌ عن مقاصدهم وإنْ شابهم في الصِّيغةِ أو الشَّكل.

ومِـن بين هذه المعايير التي أشـارَ إليها الغزاليُّ: أنْ تكـونَ المناظرة في الخُلْوة أحبّ إلى المُنَاظِر وأهمّ مِنَ المحافل، وبين أظهُرِ الأكابرِ والسلاطين؛ فإنَّ الخُلْوة أجمعُ للفهمِ وأحرَى بصفـاءِ الذِّهنِ والفِكر ودرك الحقّ، وفي حُضور الجمـع ما يحرِّك دواعي الرِّياء، ويُوجِب الحرص على نصرة كل واحدٍ نفسه، مُحِقًّا كان أو مُبطِلاً[1].

الخصيصة التاسعة عشرة: العِلم باختلافِ النَّاس

إذا كانَ المرءُ بأَصْغَرَيْهِ[2]: عَقلِه ولِسـانِه، فقلد كان الشـافعيُّ على أَوجِ التَّمام في ذلك، كانَ حَكِيـماً عاقـلاً بعيـدَ الغَوْر، شَـهِدَ له بالعقلِ كثـيرون، فنجد أنَّ يُونُـس الصَّدَفِيّ كانَ يقـول: «**مَا رَأيتُ أعقَلَ مِنَ الشَّـافِعِيّ، ناظرتُهُ يوماً في مسـألةٍ، ثمَّ افترقنـا، ولَقِيَنِي، فأَخَذَ بيدي، ثمَّ قال: يا أبا مُوسَى، ألا يستقيم أنْ نكونَ إخواناً وإنْ لم نتَّفِق في مسألَة**»، حتى علَّق الذهبـيُّ عـلى ذلك بأنَّ «هَذَا يَدُلُّ عَلَى كَـمَالِ عَقْلِ هَذَا الإِمَامِ وَفِقْهِ نَفْسِـهِ، فَمَا زَالَ النُظَرَاءُ يَخْتَلِفُون»[3].

ولَمَّا كان الشـافعيُّ عالِماً خَبيراً في النُّفُوس، متجرِّداً لله عزَّ وجلَّ، فهو يشـيرُ إلى بعض الطرق والوسائل التي مِن شأنِها أنْ تجعلَ الآخرَ يقبلُ الحقَّ، كما يشيرُ إلى بعض الأسباب التي تجعله يرفض الحقَّ، وينصرفُ عنه.

١ـ أخلاقيات المناظرة والحِجَاج (٢)، د. معتز الخطيب، موقع الجزيرة نت، ١٦/ ٦/ ٢٠٢٣م.

٢ـ الأَصْغَرَان: القلبُ واللِّسَان. انظر: المعجم الوسيط: ٥١٥.

٣ـ نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٨٦٤.

يقـولُ الشـافعيُّ: «**مَا ضُحِكَ مِن خَطَـأ رَجُلٍ، إلا ثَبَتَ صَوَابُـهُ فِي قَلبِهِ**»[١]، أي أنَّه إذا شعرَ بأنَّ الذي أمامه يسخر منه ويزدريه ويتنقَّصه، فسيتكوَّن في داخلِه تمسُّكٌ بهذا الشَّيء الذي قاله، فيُصِرُّ عليه ويتثبَّت صوابه في قلبِه[٢].

ويقـولُ أيضـاً: «**مـا أَوْرَدْتُ الحَقَّ والحُجَّةَ عـلى أحَدٍ فَقَبِلَهـا مِنِّي إلَّا هِبْتُـه واعتقدتُ مَوَدَّتَه، ولا كابَرَنِي أَحَدٌ على الحَقِّ وَدَفَعَ الحُجَّةَ الصَّرِيحَةَ إلَّا سَقَطَ مِنْ عَينِي ورَفَضْتُه**»[٣].

ومِن هذه الدلائل ما أورده البيهقيّ أنَّ يُونُس بن عبدالأعلَى كان يقول: قالَ لي الشافعيّ: «يا أبا موسى، **ليسَ إلى السَّلامَةِ مِنَ النَّاسِ سَبيل، فَانْظُر إلى مَا فِيهِ صَلاحك فَالزَمه**»[٤].

وكان الشـافعيُّ حريصـاً عـلى أنْ يُنـزِلَ الناسَ منازلهـم، فعند البيهقـيّ أنَّ أبا بكر بن العبَّاس سَـمِعَ الشـافعيَّ يقـول: «**ما أكرمتُ أحداً فَـوقَ قَدرِه إلا نَقصَ مِـن قَدرِي عنده بقَدرِ ما زِدتُ في قَدرِه**»[٥].

ومِـن حِكمَتِـهِ في العِلـمِ باختـلافِ النَّـاس أنَّه كانَ يقـول: «**سِيَاسَـةُ النَّاسِ أَشَـدُّ مِنْ سِيَاسَةِ الدَّوَاب**»[٦]، وكان دائمَ التحذيرِ مِنْ عَواقبِ البَغي وعَدم الإنصاف في الحُكم بين مختلفيهم؛ فكانَ يُنشِد[٧]:

تحكَّمُوا فاستطالوا في تحكُّمِهِمْ ... عـمَّا قليلٍ كـأنَّ الحُـكْـمَ لَم يَكنِ

لَو أَنْصَفُوا أُنْصِفُوا لكنْ بَغَوا فَبَغَى ... عليهمُ الدهرُ بالأَحْزَانِ والمِحَنِ

١ـ مناقب الشافعي للبيهقي: ٢/ ٢١٤، سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٩٩.

٢ـ مع الأئمة لسلمان العودة: ١٣٨ (بتصرف).

٣ـ ذيل مناقب الشافعي: ٥٩.

٤ـ نفس المصدر السابق: ٥١.

٥ـ نفس المصدر السابق: ٨١.

٦ـ سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٩٨، مواعظ الإمام الشافعي: ٦٣.

٧ـ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٥٣.

فأصبحوا ولسانُ الحالُ يَنشدُهم هذا بـذاكَ ولا عَتْبٌ على الزَّمَنِ

ولَمَّا كان الشـافعيُّ على عِلْمٍ بأنَّ «مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الاخْتِلافَ لَمْ يَشُـم أَنْفُهُ الفِقْهَ»[1]، وبأنَّه «لا يُفْلِـحْ مَـنْ لا يَعْرِف اخْتِلافَ النَّاس»[2]، نجدُه قـد أدركَ ببصيرتِه أنَّ الناسَ لا يمكن أن يتَّفقوا في عقولِهم، ولا في مداركِهم، ولا في عِلمِهِم، ولا في شخصيَّاتِهم، فلا يمكن أن يتَّفقوا على كلِّ شيء، وليس أمامهم إلا أحد طريقين:

- إمَّا أنْ يختلفوا اختلافاً بعيداً.
- وإمَّـا أنْ يضعـوا لأنفسـهم قواعـدَ عامَّة يتَّفقـونَ على جميعها، ويقبلـون الخلافَ في جزئياتِها وفروعِها.

فكانَ عليهم – في نَظرِه – أنْ يقصدوا الطريقَ الثاني الذي يُوصِلُهُم إلى قَبولِ الخِلاف في جزئياتِ العِلمِ وفروعه، ولن يتأتَّى لهم ذلك إلا إذا أدركوا الحِكمَةَ في اختلافِ النَّاس، يقـول الله تعـالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾[3]، فهـذا التفـاوت الـذي قدَّره الله بين عبـاده هو لأجلِ الابتلاءِ والامتحان، وهو أعلمُ بأحوالِ عبادِه.

وهذه المقدرة الشافعيَّة الفريدة في إدارةِ الخِلافِ الفِقهيّ؛ هي التي دَعَتْ الإمام أحمد إلى أنْ يقول بأنَّ «**الشافعي فيلسوفٌ في أربعةِ أشياء: في اللغة، واختلاف النَّاس، والمعاني، والفِقْه**»[4]، ولا عجب بعد ذلك في أنْ يلقِّبه بعضُ أهلِ العِلمِ المعاصرين بـ «**الفيلسوف الربَّانِيّ**»[5].

١_ الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي: ٢/ ٤٠.

٢_ نفس المصدر السابق.

٣_ سورة الأنعام: ١٦٥.

٤_ معرفة السنن والآثار للبيهقي: ١/ ٢٠٠.

٥_ انظر كتاب «مع الأئمة» لسلمان العودة، صفحة: ١٢٧.

وأكثر مِن هذا، فإنَّ الإمام أحمد قد رشَّح الشافعيَّ لمنصب المجدِّديَّة الذي وَعَدَ به النبيُّ ﷺ، كما في الحديثِ المشهور: «إنَّ اللهَ يبعثُ لهذه الأُمَّةِ على رَأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ من يُجدِّدُ لَها دينَها»[1]، فيقول الإمام أحمد: «فكان في المائة الأولى: عُمَر بن عبدالعزيز، وفي المائة الثانية **الشافعيّ**»[2].

وهنا يُشير الشيخ سلمان العودة إلى أنَّ إعجاب الإمام أحمد بجلاءِ عقلِ الشافعيّ الذي فكَّ المُشْكِل والمُعْضَل بين ظواهرِ النصوص، **وأجابَ عن الأسئلة الجديدة التي لم تُطرح مِن قَبل**، وخفَّف مِن حِدَّةِ الاستقطاب والخِلاف بين المدارس، ووضع قواعد الاستنباط والتعامل مع النصّ بطريقةٍ علميَّة، كما في كتاب (الرسالة)[3].

كان الشافعيُّ مع عِلمِه باختلافِ النَّاس، بَصيراً بنفوسِهم، وفي هذا السياق يُشير الشيخ أبو زهرة إلى أنَّ الشافعيَّ كان نافذَ البصيرةِ في نفوسِ النَّاس، قَوِيَّ الفراسَة كشيخه مَالِك في معرفة أحوال الرِّجال، وما تُطيقُه نفوسهم، وتلك صفةٌ لازمةٌ للمُناظِرِ الأريب الذي يريدُ أنْ يجذب خصمه إليه، كما هي لازمةٌ للأستاذ الذي يُلقِي على تلاميذه القَدْرَ الذي يُطيقونه مِنَ المعرفة؛ فيُوائم بين طاقاتِهم في الفهم وطاقتِه في التعبير والحقائق العلميَّة المناسبة، وكان بَصرُ الشافعيّ بهذا مع قوَّةِ بيانه سبباً في أنْ التفَّ حوله أكبر عددٍ من الأصحابِ والتلاميذ.

وقد كان لخبرته بنفوسِ النَّاس لا يُعطي سامعيه مِنَ العِلمِ إلا بمقدارِ ما يألفون، يجتهدُ في ألا يُعرِّفهم مِن نفسِه إلا بما يُطيقون، جاء في معجم ياقوت: أنَّه كان يتناشد مع بعض معاصريه شِعراً هُذَليًّا، فأتى عليه الشافعيُّ حِفظاً، وقال لِمَن كانَ يتناشد معه: لا

١ـ أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني (٥٩٩).

٢ـ محمد بن يوسف الجندي، السلوك في طبقات العلماء والملوك: ١/ ١٥١، وانظر: سلمان العودة، مع الأئمة: ١٢٨.

٣ـ مع الأئمة: ١٢٨.

تُعْلِم بِهذا أحداً مِنْ أهلِ الحديث، فإنَّهم لا يحتملونَ ذلك، وهكذا تجد الشافعيّ لا يَجِيءُ الناسَ إلا بمقدارِ ما يُطيقون، ولا يحبُّ أنْ يعلمَ عنه أصحابه إلا ما يستسيغون، وإنْ كان ما يخفيه عنهم هو عِلمٌ مطلوب، وأمرٌ يعرفه الشَّرع ولا يُنكِره[1]، ومِن عِلْمِهِ بنفوسِ أصحابه، أنَّه كان يؤهِّلُهم لتحمُّل مَشَاق العِلم؛ فقد أخَذَ يوماً بِيَدِ المُزَنِيِّ وقالَ له[2]:

تَصَبَّرْ عَلَى مُرِّ الجَفا مَن مُعلمٍ ... فإنَّ رسوبَ العِلْمِ في نَفراتِهِ

ومَنْ لَمْ يَذُقْ مَرَّ التَّعَلُّمِ ساعةً ... تجرَّعَ ذُلَّ الجَهْلِ طُولَ حياتِهِ

ومَنْ فاتَهُ التعليمُ وَقتَ شَبابِهِ ... فكبِّرْ عليهِ أربعاً لوفَاتِهِ

حياةُ الفَتَى واللهِ بالعِلْمِ والتُّقَى ... إذا لَم يكونا لا اعتبارَ لذاتِهِ

الخصيصة العشرون: التوسُّط في الأمر

المتتبِّع لكلامِ الشافعيِّ في مناظراتِه وَوَصاياه، يلحظ بأنَّه كان يميلُ إلى التوسُّطِ في الأمرِ كُلِّه؛ فقد كان مِن براعتِه الفائقة ومهارتِهِ الخارقة: أنَّه كان يجمع في مناظراته بين لُطفِ الأَدَبِ وحُسنِ العِشْرَة واستيفاءِ الحقِّ حتَّى في التَّشنِيع[3]، وهذا مِن مَسَالِكِ التوسُّطِ الأخلاقيّ للشافعيّ في مناظراته الفقهيَّة.

وأمَّا النَّاظِرُ في وصاياه؛ فَسَيَجِد حُضُوراً كبيراً لهذا التوسُّط المُشار إليه؛ فَمِنْ ذلك أنَّه نصحَ يُونُس بن عبدالأعلَى قائلاً: «**يا يُونُس؛ الانقِباضُ عَن النَّاسِ مَكسَبَةٌ للعَدَاوَة، والانبِسَاطُ إِلَيهِم مَجلَبَةٌ لِقُرَنَاءِ السُّوءِ، فَكُن بَينَ المُنقَبِض والمُنبَسِط**»[4].

١ـ الشافعي (حياته وعصره .. آراؤه وفقهه): ٣٧.

٢ـ الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس: ٣٢، ديوان الشافعي: ٧٠.

٣ـ التنكيل للمُعَلِّمِي: ١/ ٧٠٩.

٤ـ نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٨٧١.

وعنده أنَّ العاقل هو الذي يختارُ أيسَرَ الشَّرَّين؛ فيقول: «**لَيسَ العَاقِلُ الذي يَختَارُ الخَيرَ عَلَى الشَّرِّ، وَلَكِنَّ العَاقِلَ الذِي يُدفَعُ إِلَى الشَّرَّينِ فيَختَارُ أَيسَرَهُمَا**»[1]، وذلك مِصداقاً لِما قاله أميرُ المؤمنين عُمَرَ بن الخَطَّاب ﷺ: «**لَيسَ الفَطِنُ مَن عَرَفَ الخَيرَ مِنَ الشَّر، وَإِنَّمَا الفَطِنُ مَن عَرَفَ خَيرَ الشَّرَّينِ**».

كما بيَّن ﷺ أنَّ التوسُّط لا يكونُ محموداً على الإطلاق، فقد يكونُ مذموماً إذا وقعَ في غير محله، فيقول: «**مَن ادَّعَى أَنَّه جَمَعَ بَينَ حُبِّ الدُّنيا وحُبِّ خَالِقِها في قَلبِهِ، فَقَد كَذَب**»[2].

الخصيصة الحادية والعشرون: المُرونَة العلميَّة

تَحَلَّى الشافعيُّ بقدرٍ كبيرٍ من المُرونَة العلميَّة التي هي مِن أسمَى دلائل منهجيَّته الأخلاقيَّة، وهذه المرونة مِن اليُسرِ في الدِّين؛ فقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا، وأَبْشِرُوا**»[3].

وليسَ أدلَّ على هذه المرونَة مِن استحداثِه أقوالاً جديدة حينما حطَّ رِحَالَهُ ببلادِ مِصر، وهي تلك الأقوال التي اعتمدها عندما نقَّح «الرسالة» وأملَى «الأُم»، وهذا أوجدَ للشافعيّ قولين: القديم والجديد.

وهنا يُشير الشيخ سلمان العودة إلى أهمِّ الأسباب التي دَعَت الشافعيَّ لتغييرِ مذهبه:

أولاً: بسبب الاجتهاد؛ فإنَّ العالِمَ يظلُّ مجتهداً إلى أنْ يموت، والاجتهادُ مِن العبادة، قالَ تعالَى: ﴿وَاعبُد رَبَّكَ حَتّى يَأتِيَكَ اليَقينُ﴾[4]، فالاجتهادُ مِنَ الثوابتِ التي لا تتغيرَّ، وإنّ كانت نتائج الاجتهاد مِنَ المتغيِّرات التي لا ثباتَ لها، بل هي عُرضَةٌ للاختلاف.

١ـ ذيل مناقب الشافعي: ٨٩.

٢ـ إحياء علوم الدين للغزالي: ١/ ٣٦، مواعظ الإمام الشافعي: ٥٦.

٣ـ صحيح البخاري (٣٩).

٤ـ سورة الحجر: ٩٩.

ثانياً: لأنَّه جالَسَ العلماءَ المصريين، وأخَذَ عنهم وسَمِعَ حديثهم، وكانَ ممن أخَذَ عنهم الشافعيّ في مصر: تلاميذ اللَّيْث بن سَعد، ووَجَدَ عندهم من حديثِ العلمِ وجديده ما أضافه إلى عِلمِه القديم[1].

ثالثاً: أنَّه بصُر في مِصر بحالاتٍ جديدةٍ من الأوضاع العَمليَّة والعِلميَّة والاجتماعيَّة = ولَّدت عنده نوعاً مِنَ الفهمِ الجديد؛ ولذلك تجد في كتبه التي كتبها بمِصر ما يَنُمُّ عن الأحوال والأمور التي كانت موجودةً في مِصر، ولا يعلمها أهلُ العراق.

رابعاً: مع التجربة الجديدة، والبيئة الجديدة، زادَ عقلُه وتَمَّ نضجُه ونَمَتْ تجربتُه بالسِّنِّ وبمخالطةِ النَّاسِ ورجالِ العِلم، ولذلك قال الإمامُ أحمد لمحمَّد بن مسلم بن وارَة لَمَّا سأله: ما تَرَى في كتب الشافعيّ التي عند العراقيين، أهي أحبُّ إليك أو التي عندهم بمصر؟ فقالَ: «عليكَ بالكتب التي وضعها بمصر؛ فإنَّه وضع هذه الكتب بالعراق ولَمْ يُحْكِمْها، ثُمَّ رَجَعَ إلى مصر فأَحْكَمَ ذاك»[2].

ولهذا، ولِمَا جُبِلَ عليه الشافعيّ من الصدقِ والإخلاص والنِّيَّة الصالحة في طلبِ العلم وتعليمه، ولِمَا كان عليه من حُسنِ الأدب والتربية، ولِمَا عنده مِن سَعة العلم والفهم والاطلاع على نصوصِ الكتاب والسُّنَّة، ولِمَا أصَّله مِنَ القواعد التي احتاجَ إليها مَن بَعده؛ كَتَبَ اللهُ تعالَى له القبول عند النَّاس، وصارَ أحدَ الأئمة المتبوعين[3].

١_ تاريخ المذاهب الفقهية لأبي زهرة: ٤١٩.

٢_ آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم: ٤٥، حلية الأولياء: ٩/ ٩٧، تاريخ دمشق: ٥١/ ٣٦٦.

٣_ مع الأئمة لسلمان العودة: ١٤٧ – ١٤٨.

خاتمة الدراسة

لا يخفَى ما للإمامِ الشافعيِّ مِن امتيازٍ بين أهل طبقته مِن أئمة الفقهاء المتقدمين، وذلك بقَصْدِه إلى تدوين القواعد والأصول استقلالاً؛ سواءً في كتبه الأصليَّة كـ «الرسالة» و«جماع العلم» و«إبطال الاستحسان» وغيرها، أو في كتبه الفرعيَّة، ويسجِّل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الامتياز للشافعيّ، فيقولُ حين موازنته بين أصول الأئمة: «**الشَّافِعِيُّ فِي أُصُولِ الفِقْهِ أَجْوَدُ لَهَا إِجْمَالاً وَتَفْصِيلاً مِن مَالِك، وَتَمْيِيزاً بَيْنَ الدَّلِيلِ وَغَيْرِ الدَّلِيل، وَتَقْدِيمِ الرَّاجِحِ عَلَى المَرْجُوح، وإِنْ كانَ لِمَالِكٍ فِي ذَلِكَ مِنَ الكَلِمَاتِ الجَامِعَةِ المجملة مَا هِيَ حَسَنَةٌ عَظِيمَةُ القَدْر، ولكنَّ الشَّافِعِيَّ يُفَصِّلُ أُصَولَه**»[1].

وهذا التفصيلُ الأصوليّ الذي عَنَاهُ شيخ الإسلام في مَعرِضِ حديثِه عن امتياز الشافعيّ؛ لابدَّ له مِن مُكْنَةٍ[2] لُغويَّةٍ وحِجَاجِيَّةٍ تكونُ مِن وراءِه دافعاً له وظهيراً، كما يلزمُهُ تقليبٌ للبصرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشيءِ ورؤيتِه مِن جميع الأوجهِ الممكنة، مع تجرُّدٍ خالصٍ للوصولِ إلى الحقّ، لا إلى الغَلَبَة.

وقد حاولتُ قدرَ الإمكان في هذه الدِّراسة الموجزة أنْ أستقصي جهودَ الإمام الشافعيّ في إرساءِ دعائم المنظومة الأخلاقيَّة في جانبِ المناظرةِ والحِجاج، وبالنظرِ إلى خصائص منهجه الأخلاقيّ التي تعرَّضنا إليها في ثنايا هذه الدِّراسة؛ نجد أنَّه جديرٌ بأنْ يُوصفَ بـ «**واضع أصول الحِجَاج الأخلاقيّ في الإسلام**»، وذلك بالنظرِ إلى مقولاتِه ذائعةِ الصِّيت

١ـ من رسالة مختصرة له عن الأئمة الأربعة ودرجاتهم، لم تطبع، وهي منشورة على الشبكة، وهي موجودة على المكتبة الشاملة بعنوان: «فضائل الأئمة الأربعة وما امتازَ به كلُّ إمامٍ مِنَ الفضيلة».

٢ـ المُكْنَةُ: القدرة والاستطاعة، والقوَّة والشدَّة. انظر: المعجم الوسيط: ٨٨٢.

في أدبِ المناظـرة، والتـي اتَّخذها واضعـو عِلمِ (آداب البحث المناظرة) قاعـدةً بَنَوا عليها صرحَ هذا العِلم الأخلاقيّ الرَّاسِخ.

فرَحِمَ اللهُ إمامنا الشـافعيّ ورزقنا صحبته في جنَّاتِ النَّعيم، ونختم بقول أبي بكر بن دريد الأزديّ (ت: ٣٢١هـ) صَاحِب الجَمهَرَة[1]:

أَلَم تَـرَ آثـارَ اِبـنِ إِدريـسَ بَعدَهُ ... دَلائِلُها في المُشكِلاتِ لَوامِعُ

مَعالِمُ يَفنَى الدَّهرُ وَهِـيَ خَوالِد ... وَتَنخَفِضُ الأَعـلامُ وَهيَ فَوارِعُ

مَناهِجُ فيها لِلهُدى مُتَصَرَّفٌ ... مَـوارِدُ فيها لِـلـرَشـادِ شَرائِـعُ

لِـرَأيِ اِبنِ إِدريس اِبنِ عَمِّ مُحَمَّدٍ ... ضِياءٌ إِذا ما أَظلَمَ الخَطبُ ساطِعُ

إِذا المُعضِلاتُ المُشكِلاتُ تَشابَهَت ... سَـما مِنهُ نـورٌ في دُجـاهُـنَّ لامِـعُ

أَبَى اللهُ إِلّا رَفعَهُ وَعُلُوَّهُ وَلَيسَ ... لِمـا يُعليهِ ذو الـعَـرشِ واضِـعُ

فَمَن يَكُ عِلمُ الشافِعِيِّ إِمامَهُ ... فَمَرتَعُهُ في باحَةِ العِلمِ واسِـعُ

فَأَحكامُهُ فينا بُـدورٌ زَواهِـرٌ ... وَآثـارُهُ فينا نُـجـومٌ طَـوالِـعُ

١ـ تهذيب الكمال: ٢٤/ ٣٧٧.

لائحة المصادر والمراجع

- إبراهيم بن عمر السّكران: **مسلكيّات**، الرياض، دار الحضارة، الطبعة الثانية، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.
- ابن حَزم الأندلسيّ (ت: ٤٥٦هـ): **الأخلاق والسّير في مُداواة النّفوس**، تحقيق وتقديم وتعليق: د. الطاهر أحمد مكي، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- ابن حزم الأندلسي: **التقريب لحدِّ المنطق والمدخل إليه**، تحقيق: عبدالحق التركمانيّ، بيروت، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- ابن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ: **جامع العلوم والحِكَم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكَلِم**، تحقيق: د. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، دار السلام، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- ابن رجب الحنبلي: **مجموع الرسائل**، تحقيق: أبي مصعب طَلْعَت بن فؤاد الحُلْوَانِي، القاهرة، دار الفاروق الحديثة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- أبو إسحاق الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ): **الموافقات**، تحقيق: محمّد مرابي، بيروت، مؤسسة الرسالة ناشرون، ٢٠١٣م.
- أبو الحسن الندويّ: **روائع من أدب الدعوة في القرآن والسّيرة**، الكويت، دار القلم، لا يوجد سنة للنشر.
- أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (ت: ٤٥٠هـ): **أدب الدِّين والدُّنيا**، تحقيق: اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، جدّة، دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.
- أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٢هـ): **كتاب الفقيه والمتفقِّه**، تحقيق: عادل بن يوسف العَزازي، الرياض، دار ابن الجوزيّ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

- أبي العبَّاس أحمد بابا التُّنْبُكتِي (ت: ١٠٣٦هـ): **وسيلتي وشافعي: في ثبوت الاستدلال بألفاظ الإمام الشافعيّ**، تحقيق: د. أحمد فتحي البشير، القاهرة، مركز تراث، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ/ ٢٠٢٠م.
- أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ (ت: ٤٥٨هـ): **مناقب الشافعيّ**، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، مكتبة دار التراث، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ: **ذَيل مناقب الشافعيّ**، دراسة وتحقيق: أبي عامر عبدالله شرف الدين الداغستاني، الرياض، آفاق المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.
- أبي عبدالله محمد بن إدريس: **ديوان الشافعيّ**، جمع وتحقيق ودراسة: د. مجاهد مصطفى بهجت، دمشق، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.
- أحمد بن برَّاك الهَيْفِي: **١٠٠٠ فائدة من تفسير أضواء البيان للعلامة محمد الأمين الشنقيطيّ**، الرياض مدار القبس، الطبعة الأولى، ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م.
- أحمد محمود عيساوي: **حاجة الدعاة لعلمي المقاصد وفقه الواقع**، الدوحة، سلسلة كتاب الأمَّة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد: ١٨٠، جمادى الأولى ١٤٣٩هـ.
- إمام الحرمين الجويني: **الكافية في الجَدَل**، تحقيق: د. فوقية حسين محمود، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- البشير عصام المراكشي: **ثمار الأنظار: أبحاث في العقائد والفقه والفكر**، القاهرة، العصرية، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.
- جَمَال الدِّين أَبِي الحَجَّاج يُوسُف المِزِّيِّ (ت: ٧٤٢هـ): **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تحقيق: د. بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ): **الفصول في سيرة الرسول** ﷺ، تحقيق وتعليق: د. محمد العيد الخطراوي، د. محيي الدين متو، الطبعة العاشرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- خالد بن جمعة بن عثمان الخرَّاز: **موسوعة الأخلاق**، الكويت، مكتبة أهل الأثر، الطبعة الأولى،

١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

- خالـد ترغـي: **المناظرة الفقهيَّة: من منطـق الجدل إلى منطق الحوار**، بـيروت، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.
- الراغـب الأصفهـانيّ (ت: ٥٠٢هـ): **الذّريعة إلى مكارم الشّريعة**، تحقيق دراسـة: أ.د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، القاهرة، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- الراغـب الأصفهـانيّ: **مفـردات ألفاظ القرآن**، تحقيـق: د. صفوان داوودي، دمشـق، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م.
- راغب السرجاني: **ماذا قدَّم المسـلمون للعالَم: إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانيَّة**، القاهرة، مؤسسة اقرأ، الطبعة السابعة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
- سـلمان العودة: **مع الأئمة: الجوامع والفروق والسِّـير**، الرياض، مؤسسـة الإسلام اليوم، الطبعة الثالثة، رمضان ١٤٣٤هـ.
- صالـح أحمـد الشـاميّ: **مواعظ الإمام الشـافعيّ**، بـيروت، المكتب الإسـلامي، الطبعـة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- الطاهر ابن عاشـور: **أصول النظام الاجتماعيّ في الإسـلام**، تونس، دار سـحنون، والقاهرة، دار السَّلام، الطبعة الرابعة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.
- الطاهر ابن عاشور: **النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصّحيح**، تونس، دار سحنون، والقاهرة، دار السَّلام، الطبعة الثالثة، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.
- عبدالباسط بن موسى بن محمد العَلْمَوي (ت: ٩٨١هـ): **المعيد في أدب المفيد والمستفيد**، دمشق، المكتبة العربية، الطبعة الأولى، ١٣٤٩هـ.
- عبدالرحمن بن ناصر السعدي: **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان**، الرياض، مجلة البيان، لا يوجد تاريخ للنشر.
- عبدالرحمـن بـن يَحيَى المُعَلِّمِي (ت: ١٣٨٦هـ): **التنكيل بـما في تأنيب الكوثريّ مـن الأباطيل**،

تحقيق: علي بن محمَّد العِمران – محمد أجمَل الإصلاحي، مكّة المكرّمة، دار علم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ.

• عبدالعزيز بن مرزوق الطَّريفي: **الفصل بين النفس والعقل**، الرياض، مكتبة دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ.

• عبداللطيف سلامي: **المدخل إلى فنّ المناظرة**، مراجعة وإشراف: د. حياة عبدالله معرفي، الدوحة، مركز مناظرات قطر، دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر، الطبعة العربية الأولى، ٢٠١٤م.

• عَلَوي بن عبدالقادر السَّقَّاف: **موسوعة الأخلاق**، القسم العلميّ بمؤسسة الدُّرر السّنية، www.dorar.net

• علي محيي الدين القره داغي: **نحن والآخر: دراسة فقهيّة تأصيليّة**، لجنة التأليف والترجمة، الاتحاد العالميّ لعلماء المسلمين (الموقع الالكتروني).

• عمر بن عبدالله المُقبل: **مجالس التذكير: فصولٌ إيمانيَّة تربويَّة**، الرياض، دار رسالة البيان، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

• عمر سليمان عبدالله الأشقر: **نحو ثقافة إسلاميّة أصيلة**، عمّان، دار النفائس، الطبعة الرابعة عشرة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

• عمر عبيد حسنه: **نظرات في مسيرة العمل الإسلاميّ**، الدوحة، سلسلة كتاب الأمَّة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد: ٨، المحرَّم ١٤٠٥هـ.

• عيسى علي العاكوب: **التفكير النقديّ عند العرب**، دمشق، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

• فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ): **مناقب الإمام الشافعيّ**، تحقيق: د. أحمد حجازي السَّقَّا، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

• اللجنة العلمية بمجمع البحوث الإسلامية: **صور من القيم الحضارية في الإسلام**، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، الطبعة الأولى، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م.

- مجمع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية، **المعجم الوسيط**، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- محمد أبو زهرة: **الشافعي: حياته وعصره .. آراؤه وفقهه**، القاهرة، دار الفِكر العربيّ، ٢٠٠٨م.
- محمد أبو زهرة: **تاريخ الجَدَل**، القاهرة، دار الفِكر العربيّ، الطبعة الأولى، ١٩٣٤م.
- محمد بن عبدالعزيز الخُضَيْري: **السّراج في بيان غريب القرآن**، الرياض، مجلة البيان، الطبعة الرابعة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٧م.
- محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ): **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، وزارة الأوقاف المصرية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- محمد حسن هيتو: **الوجيز في أصول التشريع الإسلامي**، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- محمد صالِح المنجّد: **مفسدات القلوب**، الرياض، مجموعة زاد للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.
- محمد عبدالله دراز: **دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظريَّة في القرآن**، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- محمد عبدالله دراز: **كلمات في مبادئ علم الأخلاق**، المملكة المتّحدة، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢١م.
- محمد علي حميسان: **مناظرات الإمام الشافعيّ**، الرياض، دار كليم، الطبعة الأولى، لا يوجد سنة للنشر.
- محمّد عمارة: **الطريق إلى اليقظة الإسلاميّة**، القاهرة، دار الشّروق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- محمد مصطفى الشاذليّ: **الجوهر النّفيس في تاريخ حياة الإمام محمّد بن إدريس**، القاهرة، المطبعة الحسينية بمصر، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.

- محمّد موسى الشّريف: **نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي** (ت: ٧٤٨هـ)، دمشق، دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.
- محمود محمد شاكر: **رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**، جدّة، دار المدني، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- مريم حسين السّادة: **المنهاج القرآنيّ في البناء الأخلاقيّ للإنسان وأثره في رواد مراكز القرآن الكريم وعلومه في دولة قطر** (رسالة ماجستير)، الدوحة، جامعة قطر، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.
- مشاري بن سعد بن عبدالله الشَّثْرِي: **عبقرية الإمام الشافعيّ: المَدَد والمِدَاد**، الرياض، دار رسالة البيان، الطبعة الثانية، محرَّم ١٤٤١هـ.
- مصطفى السِّباعي: **من روائع حضارتنا**، القاهرة، دار السلام، الطبعة السادسة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.
- مقداد يالجن: **علم الأخلاق الإسلامية**، الرياض، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- هارون عبدالرَّازِق (ت: ١٣٣٦هـ): **فنّ آداب البحث والمناظرة**، الكويت، دار الظاهرية، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.
- يوسف القرضاوي: **ثقافة الداعية**، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية عشر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

المجلات والدوريات العربيَّة

- عبدالرحمن حللي: «**قراءة الشافعيّ في سياقه: نحو مقاربة جديدة**»، الدوحة، مجلة تبيُّن، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، المجلد: ٩، العدد: ٣٤، خريف ٢٠٢٠م.
- محروس بسيوني: «**أخلاق التعامل مع الأزمات من منظور إسلاميّ**»، الدوحة، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، المجلد: ٣٦، العدد: ١، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.